مكتبة ١٠٦٠

كنتُ في السابعة عندما قابلته
لأول مرة، ذلك الرجل الذي
ناداني بسيدته الصغيرة.

قصة
حقيقية

# HELPLESS
# الخاضعة

ماريان مارش
وتوني ماغواير

رواية

عصير الكتب

ترجمة: هدى يحيى

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

# HELPLESS
# الخاضعة

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Helples
- العنوان العربي: الخاضعة
- طُبِع بواسطة: Harper Collins هاربر كولينز
- حُقوق النشر: 2009 ماريان مارش وتوني ماغواير
copyrights: 2009 Marianne march and Tony maguire
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- المترجمة: هدى يحيى
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين
- الطبعة الأولى: مارس 2021م
- رقم الإيداع: 2021/22090م
- الترقيم الدولي: 978-977-85810-0-3

20 12 2022

مكتبة
t.mc/soramnqraa

كنتُ في السابعة عندما قابلته لأول مرة،
ذلك الرجل الذي ناداني بسيدته الصغيرة

قصة
حقيقية

# HELPLESS
# الخاضعة

ماريان مارش
وتوني ماغواير

رواية

مكتبة ١٠٦٠

عصير
الكتب

القصة الحقيقية لفتاة مُهمَلة، نبذها الناس
وغدر بها جارها الذي ائتمنته، واستغلها أبشع استغلال.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# شكر وتقدير

إلى زوجي الحبيب، شكرًا على تشجيعك ودعمك في أثناء تأليف هذا الكتاب، والأهم على منحك إياي حياة مليئة بالاستقرار والأمان والسعادة والحب.

إلى ولدَيَّ، شكرًا على دعمكما وتفهمكما، وشكرًا على جعل حياتي كاملة بالسعادة التي تمنحانها لي. أنا جد فخورة بالرجلين اللذين أصبحتما عليهما.

إلى شقيقتي وعائلتها، شكرًا على وجودكم الدائم لأجلي، خلال فوضى المشاعر التي عانيت ويلاتها طوال حياتي.

إلى جميع أصدقائي الأعزاء، القدامى منهم والجدد، سواء هنا أو في الخارج. إنكم تعرفون أنفسكم جيدًا! شكرًا لكم، شكرًا لكل واحد منكم، شكرًا على وجودكم المُهم والدائم في حياتي.

إلى ابنتَيَّ، شكرًا لكما لإكرامي بمتعة التعرف إليكما، واحتضانكما مجددًا.

إلى توني، شكرًا لكِ يا عزيزتي، فلولاكِ لم أكن لأستطيع كاتبة قصتي.

إلى باربرا وهاربر كولينز، شكرًا على تحويل الحلم إلى حقيقة.

# مفتتح

حدث أن كان هناك رجل شرير، يبحث عن فتاة صغيرة بريئة مثلي. في واقع الأمر، كان ذلك الرجل يبحث عني حتى من قبل أن أُولَد!

أجل، كان هذا الرجل يفتش عن فتاة صغيرة مميزة، كما اعتاد أن يخبرني؛ فتاة محرومة بحاجة ماسة إلى الحب والحنان.

وسَّع ذلك الرجل دائرته الاجتماعية بحيث تشمل الأزواج الشباب، وبدأ يراقبهم وهم يصيرون آباء، وكانت ابتسامته الماكرة تتسع كلما طلبوا منه أن يصبح عرابًا لفلذات أكبادهم.

كان أصدقاؤه يهتفون معجَبين: «كم يجيد التعامل مع الصغار!».

تزوج الرجل الشرير حين كنت طفلة، إلا أنه لم يكن قد التقى بي بعد. فكر في البداية في استخدام ابنته لإشباع احتياجاته! بيد أنه مع مرور الوقت، تحولت شكوك زوجته إلى يقين، فعملت بكل جهدها على حماية طفلتها من براثنه. دون أن ألحظ له وجودًا، راقبني ذلك الرجل وأنا أقطع الشارع الضيق المؤدي إلى المدرسة. ولما قرأ علامات الإهمال على وجهي وهيئتي، عرف حينها أنني الطفلة المنشودة؛ الطفلة التي طالما انتظر دخولها إلى حياته.

بدأ يتردد على الحانة التي كان والدي يعاقر الخمر فيها، وحرص بكل السبل على التودد إليه. استمع إليه وهو يخبره عن مشكلاته، ويشكو من راتبه الزهيد، والأفواه الصغيرة التي تنتظر أن يطعمها. وفي

إثر ذلك استطاع تزكية والدي في وظيفة أفضل، والتي بسببها حظينا بمنزل لائق أخيرًا.

أخبر الرجل والدي الممتن له أن مساعدته كانت على الرحب والسعة، وأنها كانت من دواعي سروره.

أقر الناس بأنه كان رجلًا صالحًا، وأن زوجته لا بد وأنها امرأة محظوظة، وأن والديَّ كانا سعيدَي الحظ بلقائه ومعرفته.

كان صديقًا للجميع. كان الشخص الذي يتذكر أعياد ميلاد الزوجات، ويجلب الهدايا للأطفال.

كان الزائر الموثوق به، والصديق المؤتمن، والعم المفضل.

كان الرجل الذي لا تفارق الحلوى خزانة سيارته.

كنت في السابعة عندما قابلته للمرة الأولى. كنت في السابعة حينما قابلت الرجل الذي ناداني بسيدته الصغيرة.

***

مرت سنوات على آخر مرة تحدثنا فيها، إلا أن كل كلمة دارت بيننا لا تزال محفورة في ذهني، مطبوعة في ذاكرتي، كما لو أن كل ما جرى قد جرى بالأمس فحسب.

# الفصل الأول

اعتاد ولدايَّ أن يناشداني:

- احكي لنا قصة! احكي لنا قصة!

وقد اعتدتُ أن أسألهما:

- مِن أين تريدان أن أبدأ؟

ثم أتناول أحد كتبهما المفضلة التي بليت من كثرة القراءة.

- من البداية بالطبع يا أمي!

وكنت أذعن لرغبتهما، وأفتح الصفحة الأولى، وأستهل بقولي:

- «كان يا ما كان...».

بيد أنه حينما تكون القصة قصتي، حينما يكون العمر الآتي أقل بكثير من الذي مضى، ألا يكون السؤال الأنسب هو: من أين أبدأ؟

من أين أبدأ الحكاية التي طالما حاولت إبقاءها حبيسة نفسي؟ الحكاية التي تطاردني في أحلامي.. الحكاية التي بدأَتْ مذ كنت في السابعة من عمري.

لعل مفتتح قصتي الحقيقي يكمُن في الليلة التي حملت أمي بي، بل لعله في وقت أبكر! إنني في جميع الأحوال لم أتقبل فكرة مواجهة أشباح الماضي إلا بعد تلك الجلسة المصيرية في مطبخي، تلك التي طالعت فيها رسالة شديدة الأهمية، رسالة طويلة كُتِبت في صفحتين كاملتين بخط دقيق أنيق.

سألتُ نفسي:

- مِن أين أبدأ إذن؟

أجابني صوتي الداخلي:

- من البداية يا ماريان. بدايتكِ. يتعين عليكِ تذكر السنوات التي مضت كي تفهمي كل ما حدث في حياتكِ.

وهذا هو ما فعلته.

***

في كل مرة يحل فيها عيد ميلادي، خلال السنوات التي عشت فيها بمنزل أبي، وحتى قبل فتح بطاقة المعايدة أو تلقي الهدية، كانت أمي تخبرني عن كُوَى السماء التي انفتحت يوم وُلِدت.

في كل عام، كانت أمي تقول: ليلتها كانت تمطر، لم يكُن مطرًا خفيفًا، بل انشقت السماء وهطلت منها زخات قوية، سيل من المياه ضرب المنازل، وأوحل الشوارع والأزقة.

في ذلك اليوم، فاضت المزاريب، التي لم يفكر أبي يومًا في إفراغها من ورق الشجر الميت، ضربت مياه الأمطار المنزل، وتدفقت إلى المصارف المثقلة بالماء بالفعل. على مر السنوات كانت الجدران الخارجية تتلون أكثر فأكثر بالأخضر الطحلبي، كما تسببت المزاريب المسدودة في نشع جدران غرف النوم، فتناثرت عليها بقع العفن الغامقة الكريهة.

في ذلك اليوم جئتُ إلى العالم. وُلِدتُ في الساعات الأولى من الصباح، حتى قبل أن تصيح الديكة. استيقظت أمي على آلام حادة، ووجدت لباس نومها رطبًا، ولما أدركت أنني على وشك النزول، سرى الذعر في بدنها.

هزت أمي أبي لتوقظه كي يغيثها، فغمغم متذمرًا مما عدَّه فظاظة في اختيار المواعيد، وقلة اكتراث بمشاعر الناس. لكنه سرعان ما ارتدى ملابسه، ودس قدميه في حذاء سميك، وصعد فوق دراجته، وهرع باحثًا عن المولِّدة القريبة.

سمعته أمي يبرطم بأنها أمور تخص النساء، ولا مكان لرجل فيها قبل أن يدفع الباب الأمامي ويخرج، تاركًا إياها وحيدة إلا من ألمها

وخوفها. وبعد أقل من عشرين دقيقة، بدت لها ساعات طويلة بطيئة، كانت القابلة تقف أمام السرير.

ولما كانت القابلة امرأة متمرسة، سرعان ما أخذت بزمام الأمور، وعملت على تهدئة مخاوف أمي، وأكدَت لها بثقة أنها ولَّدت مئات الأطفال. وبعد فحص سريع، تأكد لها وصولي الوشيك.

كانت أمي تتوقف عند هذه النقطة دائمًا وتسألني:

- وهل تعرفين بما خبرتني القابلة عندئذ؟ (كنت أسايرها، وأهز رأسي بعلامة النفي). لقد خبرتني أنه ليس هناك ما يمكنها فعله إلا بعد أن تقل المدة التي تفصل نوبات الطلق بعضها عن بعض.

بعدها كانت أمي تتنهد بقوة كي تجذب انتباهي إلى كلماتها التالية:

- كل ما كان عليَّ فعله حينئذ هو الدفع! بعدها سألتني عن مكان المناشف النظيفة التي طلبَتْ تجهيزها مسبقًا.

ثم تُواصل أمي إخباري عن بقية أحداث ذلك اليوم الطويل المؤلم.

طرقعت القابلة بلسانها مستهجنة عندما وجدت أن أبي، الذي لم يكن قد استفاق من آثار السُّكْر بعد، وقد نسي تحضير الأغراض التي طلبَتْها، لكنها بمساعدة أمي وجدت ما كانت بحاجة إليه في النهاية.

كان الشيء التالي الذي قامت به هو طلب المساعدة من الجارة القريبة. حاولت القابلة ترقيق قلب الجارة كي توافق على القدوم والمساعدة عندما يحين الوقت، وحتى يحين لم يكن هناك ما يمكن للمرأتين فعله. وهكذا تناهى إلى أمي صوتهما من الطابق السفلي، حيث تناوبتا على إعداد أكواب الشاي والثرثرة. وعلى مدار اليوم، كانت المرأتان تجلبان إليها المشروبات في غرفتها، وتمسحان على وجهها بقطع القماش المبللة بالماء. إلا أن أمي بقيت وحيدة خلال تلك الساعات الطويلة التي سبقت ولادتي.

«ناديني إذا كنتِ بحاجة إليَّ». كانت هذه هي كلمات القابلة التي فشلت في طمأنتها أو إراحتها بأي وسيلة، قبل أن تنزل إلى الطابق السفلي وتجلس قريرة أمام المدفأة.

أحيانًا كنت أتعجب من قدرة أمي على تذكُّر كل هذه التفاصيل، لكنها أكدَتْ لي مرارًا أنها تتذكرها لحظة بلحظة.

طوال ذلك اليوم، ظلت أمي مستلقية على ظهرها، رافعة ساقيها، مباعدة بين ركبتيها، تجذب ملاءة السرير وتلويها بين يديها المتعرقتين من الرعب والألم. كان سريرها يواجه النافذة، وبينما أخذت تراقب المطر يضرب الزجاج، راح جسدها يتمزق من وجع لا يقوى على احتماله أي امرئ في العالم.

بح صوت أمي يومها من شدة ما صرخت. كانت غارقة في العرق الذي سال على وجهها ملصِقًا شعرها برأسها، وتساقط في قطرات ثخينة من ذقنها. أكثر شيء أرادته أمي في تلك اللحظة هو وجود شخص يحبها إلى جوارها؛ شخص يمسك بيدها، ويمسح على جبينها، ويخبرها أنها ستكون بخير. بيد أنه لم يكن هناك سوى القابلة.

ثم حل الليل، دون أن يتوقف المطر. تطلعَتْ أمي عبر النافذة فرأَتْ انعكاس وجهها على زجاجها الذي تتخلله قطرات المطر. بدت وكأن مليون دمعة تنسال على خديها في تلك اللحظة.

وبعد ثماني عشرة ساعة من العذاب، دفعت أمي الدفعة الأخيرة. كانت في اعتقادها آخر دفعة يستطيعها جسدها الواهن. وهكذا جئتُ إلى العالم.. أخيرًا.

لحسن الحظ، عندما تركت جسد أمي الدافئ، لم أكن أدري إلى أي مدى كان الجميع مستاءً من وجودي. استغرق الأمر مني بضع سنوات كي أكتشف هذه الحقيقة.

لم يعد أبي إلى المنزل إلا بعد قدومي إلى الدنيا، ومعرفة أنني فتاة. ولا أظنه كان سعيدًا بهذا الخبر.

# الفصل الثاني

تتجلى أمامي الذكرى الأولى من حياتي. كنت جالسة في عربة تسوق، أصغر من أن أستطيع القفز منها لأهيم على وجهي في مكان بعيد. تحركت عجلات العربة من جديد، مع تكدس المزيد من الأغراض التي كانت تُلقى فوقي دون اكتراث. في تلك اللحظات كنت أشتاق إلى الدفء المُنتظَر لذراعَيْ أمي حينما تنحني وتخرجني من العربة في نهاية يوم التسوق. كانت العديد من الوجوه تتطلع إليَّ بين الفينة والفينة، وجوه لم تكن واضحة أمام عيني بسبب تكوم الأكياس والعلب فوقي. في ذلك الوقت لم تكن لدي وسيلة أستطيع بها أن أرى نفسي مثلما كانوا يرونني.

في ذلك الوقت كنت في الثالثة من عمري، أصغر حجمًا بكثير ممن هم في مثل عمري، بشعر بني فاتح، ووجه شاحب لا يمكن وصفه بالنظيف، وعينين زرقاوين مستديرتين تتطلعان إلى العالم بحذر سابق لأوانه.

لم أكن أعلم حينها أنني محرومة من الحب؛ كيف وأنا لم أكن أدري معناه أصلًا؟! كيف أفهم معنى الراحة التي تغمر الطفل حينما تدثره أمه في فراشه وتقرأ له قبل النوم، وأنا لم أذقها قط؟ أو البهجة التي يدخلها أبواه على نفسه حين يحتضنانه بحنان، أو الأمان الذي يستقر في قلبه عندما يشعر بتميزه لديهما، وأنا لم أختبر أيًّا من هذا؟

لم أكن قد سمعت بكلمة خوف، وإن اختبرت معناها جيدًا. لم أستطع تسمية ما كنت أشعر به حينما كانت القشعريرة تتسلل إلى ذراعي، والشعيرات الصغيرة تنتصب خلف عنقي، ومعدتي تتشنج بشدة كما

لو أن سربًا من الفراشات يرفرف بداخلها. ولكن في الوقت الذي بدأتُ فيه في اتخاذ خطواتي المتعثرة الأولى، ونطق كلماتي المتلعثمة الأولى، أدركت أن صوت أبي المرتفع كان السبب في هذا الشعور الذي لا اسم له.

في اللحظة التي كان يفتح فيها أبي الباب الأمامي، ويندفع داخل الغرفة السفلية مترنحًا، كان فور أن يراني يصيح في وجهي: «إلامَ تحدقين؟». في البداية، عندما وعيت مشاعر الغضب وإن لم أفهم معنى كلماته، كانت تند عن فمي صيحة عالية تستجلب المزيد من صرخاته، إلى أن تبعدني أمي عن نطاق رؤيته. تعلمتُ لاحقًا أن حضوره في الغرفة كان يستدعي مني دائمًا أن أنكمش لأقصى حد ممكن، وأصمت فلا أنبس بحرف، والأفضل من كل هذا أن أختفي عن نظره تمامًا.

كان المنزل الذي قضيت فيه سنواتي السبع الأولى عبارة عن كوخ صغير في صف من ستة أكواخ. كان الباب الأمامي يقود مباشرة إلى غرفة الجلوس، بينما يقود دَرَج ضيق إلى غرفتَيْ النوم. كانت غرفة أبي تسع سريرًا مزدوجًا وخزانة ذات أدراج، بينما كانت غرفتي بحجم خزانة، جدرانها المصنوعة من الجص عارية تمامًا، وأرضيتها المتسخة مغطاة بمشمع بني مشقق. كانت قطعة الأثاث الوحيدة في غرفتي عبارة عن سرير صغير مغطى ببعض المعاطف القديمة والفُرُش الممزقة، والذي كان ملتصقًا بالجدار المقابل للنافذة الخالية من الستائر.

كان هذا الكوخ ملكًا للمزرعة التي يعمل فيها أبي، مثله مثل العديد من أكواخ العمال، وكانت إقامتنا فيه تمثِّل جزءًا من الأَجْر.

أما صاحب المزرعة فكان رجلًا جشعًا رجعيًّا، وقد رفض رفع الأجور رفضًا تامًّا، واستمر يدفع لعماله المستائين مبالغ زهيدة. كان يبرر ذلك

بقوله: «إنني أنعم عليهم بسكن مجاني!». والأسوأ أنه يرى أن «السكن المجاني» لا يستدعي منه أي التزام بالصيانة، فترك الأكواخ في الشتاء رطبة باردة. فلا يساعد لف الجرائد القديمة وحشرها بين الفراغات أسفل الأبواب، أو تثبيت الأكياس البلاستيكية على النوافذ التي نخر أطرها السوس على إيقاف التيارات الباردة عن التسرب وتجميد الآذان والأنوف، أو ما ينكشف من الأصابع والسيقان. كنا ثلاثتنا نلجأ مرتجفين إلى أي مكان بجوار النار. كنا نتجمع حول الشبكة السوداء الصغيرة والتي كانت جذوع الأشجار الرطبة تحترق خلفها. وصحيح أن هذا كان يجعل بطوننا دافئة، إلا أن ظهورنا كانت تبقى باردة!

وحينما كانت تظلم السماء وينهمر المطر، ويصبح اللعب بالخارج أمرًا مستحيلًا، كنت أقضي أيامي في غرفة المعيشة الصغيرة التي كانت كمطبخٍ، ومساحة للجلوس، ومنطقة استحمام في بعض الأحيان، حيث كانت تضع أمي فيها حوض الاستحمام الصفيح. كانت الغرفة مؤثثة بأثاث رث تكرّم أجدادي الأربعة علينا به. أتذكر مقعدًا منجدًا بقماش كستنائي باهت، تبرز أحشاؤه من بعض الأجزاء، بالإضافة إلى طاولة طعام خشبية ذات أربعة كراسي غير متطابقة، وخزانة جانبية مكدسة بالقدور وأدوات المطبخ الأخرى. كانت غرفة المعيشة تفتقر إلى أي ميزة يمكن أن تجعلها مريحة. كانت غرفة كئيبة مظلمة في منزل صغير بائس.

كان للمنزل ثلاثة أبواب؛ واحد يؤدي إلى الدَرَج الذي يقود إلى غرفتَيْ النوم، والآخر يؤدي إلى الفناء الخلفي، حيث يتم غسل الملابس والقدور، والثالث هو الباب الأمامي الذي لم يكن ذا جدوى في نظر أمي، فبصرف النظر عن الذهاب إلى المتجر لجلب الغذاء واحتياجاتنا الأساسية، بدا لي

أنها لم تكن تفكر قط في الذهاب إلى أي مكان، أو العيش خارج تلك الجدران.

كان إطعامنا، وهي المهمة التي لم تكن بالسهلة قط، يستهلك معظم وقت أمي. وعلى الرغم من أن مساهمة أبي في تدابير المعيشة جاءت في المرتبة الثانية بعد زيارات الحانة، فإنه كان يتوقع وجبة دافئة كل مساء، بغض النظر عن الوقت الذي كان يصل فيه إلى المنزل، فإنه إن لم يجد طعامه على الطاولة في غضون دقائق، كان ينفجر في نوبة غضب مفزِعة، فينطلق بصوت راعد، رافعًا قبضتَيْ يديه الباطشتين في تهديد واضح.

كان أبي مدمنًا على الكحول. لم تعرف أمي قط ما إذا كان سيذهب مباشرة إلى الحانة بعد العمل أم سيعود إلى المنزل أولًا لتناول العشاء، لينطلق بعدها إلى الحانة ويشرب، إلى أن يُفرغ جيوبه.

ولما كانت أمي تعلم أنه في الأيام الأخيرة قبل تحصيل أجره، سيبحث عن أي مال متبقٍ من مصروف المنزل، فإنها حاولت إخفاء بعض النقود كي تتمكن من شراء ما يكفي من الخبز والحليب على الأقل. لكن بعد ساعات من اكتشافها مكان جديد لإخفاء تلك العملات المعدنية القليلة، كانت رغبة أبي في الكحول تمنحه ما يشبه القوة الخارقة، وهكذا كان يكتشفها دائمًا.

في تلك الأيام يصبح جو الغرفة مشحونًا بالتوتر. كنت أراقب أبي وهو يشرب شايه، ويدفع بالطعام في فمه، بينما تتجول عيناه في جميع أنحاء الغرفة. ولإدراكها ما كان سيتتبعه ذلك، كانت أمي تبقى على مقربة، وتدعو الله أن يتحسن مزاج أبي هذه المرة ويختار البقاء في المنزل. لكنه كان نادرًا ما يفعل.

في بعض الأحيان كان أبي يطلب المال بابتسامة، وفي أحيان أخرى كان يكتفي بتكشيرة، لكنه غالبًا ما كان يهدد أمي. لكن أمي كانت تعلم أنه بغض النظر عن الطريقة التي ينتهجها أبي للحصول على المال، فإنه لم يكن يطلبه منها، بل يصدر إليها أمرًا واضحًا بأن تعطيه إياه.

كانت احتجاجاتها وشكواها بأنه لم يبقَ شيء، لا تلقى إلا نظرات نارية وسبابًا مهينًا.

كان رده المعتاد لا يخرج عن: «أيتها الكاذبة الملعونة. فلتعطيني المال وإلا لقنتكِ درسًا لن تنسيه طوال حياتكِ».

كان جسدي الضئيل يرتعد من الهلع حينها، فأنزلق بهدوء من على مقعدي، وأتسلل خلف الأريكة. وأضع يديَّ فوق أذنيَّ، وأغمض عيني محاولة حجب كل صورة وصوت. كنت أسمع كرسيه وهو يندفع للوراء بعنف، وصوت قدميه في حذاء العمل الثقيل وهما تضربان أرضية الغرفة، قبل أن يبدأ في إلقاء القدور على الأرض، وإفراغ الخزانات والأدراج.

وخلال كل هذا كنت أسمع صيحات أبي الغاضبة تعلو: «أين تخفين المال أيتها العاهرة؟»، واحتجاجات أمي الواهنة تؤكد: «لم يتبق معي شيء»، إلى أن تمتلئ الغرفة بأصوات بحثه وصيحاته وتوسلاتها.

كان زئيره الغاضب يزداد ويتبعه الصوت الواضح للكماته الموجهة إلى وجه أمي وجسدها. كنت أسمع نحيب أمي، وحذاء أبي الثقيل يضرب السلالم الخشبية، ثم صيحته المنتصرة في النهاية التي كانت تخبرني أن بحثه أسفر عن الغنيمة المنتظرة.

- ها هو ذا أيتها الخبيثة عديمة الفائدة. لقد كنت محقًّا! كنتِ تخفين المال عني!

كان إغراء الحانة ينتصر في كل مرة. كلما دعت الحانة أبي، كان يلبي دعواها دون أدنى اكتراث لاحتياجات عائلته.

وعندما كان يصفع أبي الباب معلنًا رحيله أخيرًا، عندها كنت أرفع يدي عن أذني، وأفتح عيني، وأفرد جسدي المنكمش على نفسه، وأخرج مترددة من خلف الأريكة. في كل مرة كان يحدث فيها هذا، كانت الغصة تكاد تخنقني عندما أبصر أمي متكورة على نفسها تبكي ألمها وبؤس حالها.

أذكر أول مرة رأيت فيها علامات أصابعه الحمراء ظاهرة على وجهها، وقد تخثرت قطرة دماء عند حافة فمها المتورم، وانتشرت الكدمات على ذراعها. كانت دموع المهانة واليأس تنساب بصمت على وجهها بينما تتفحص الفوضى من حولها. في كل مرة كنت أراها على هذه الحال كنت أرغب في الركض إليها والتخفيف عنها. في بعض الأوقات لم تكن لدى أمي طاقة تمكّنها من دفعي بعيدًا عنها، فكانت تتركني أحتضن ركبتها بصمت، ولكنها في أغلب الأوقات وبمجرد أن أنطق بكلمة «أمي»، كانت ترميني بنظرة غضب وإحباط تجعلني أتراجع مبتعدة.

كانت حينها تصيح بصوت حاد:

- ماذا تريدين يا ماريان؟ ألا يمكنكِ تركي بمفردي ولو للحظة؟ ماذا تريدين مني الآن؟

في هذه السن لم يكن لساني يسعفني بحيث أتمكن من إخبارها بأنني أحتاج إلى الأمان، وأرغب في احتضانها والاختباء بين ذراعيها. لم أكن أريد شيئًا سوى أن تخبرني أمي بأن كل شيء سيصبح على ما يرام.

لكن عوضًا عن كل هذا، وكرد فعل على رفضها الواضح لي، كان وجهي ينكمش وأبدأ في النحيب.

في العادة كان الغضب يغادر وجهها حينما تراني على هذه الحال، ويحل محله القليل من الشعور بالذنب. بيد أن نفاد الصبر كان ينتصر على هذه المشاعر في أغلب الأحوال.

- آه يا إلهي! توقفي عن النحيب يا ماريان! إنه لم يكن يقصدكِ أنتِ، ألا تفهمين هذا؟ دعينا نجد شيئًا نجفف به دموعكِ.

وبعدها بيد مرتعشة كانت أمي تبحث في جيبها عن أي خرقة بالية كي تستخدمها كمنديل، وتجفف دموعي بها على عجالة، ثم تقول:

- أنتِ تعلمين أن هذا ليس خطأكِ يا ماريان.

تلك اللحظات القصيرة من لطف الأمهات في أكثر صورة بدائية كانت تعزيني مؤقتًا، لكنني كنت أستمر في تخيل أن غضبها كان بسببي بطريقة أو بأخرى. ففي نهاية المطاف، لم يكن هناك أي شخص آخر يمكنني لومه سوى نفسي.

وعندما لا يتبقى لدينا من المال ما يكفي حتى ولو لأساسيات البقالة، كان على أمي الاعتماد على كرم الآخرين، أو الأسوأ من هذا: إحسانهم.

كم كرهتُ تلك الأوقات التي كنت أسمع فيها أعذارها وحججها الواهية! وأدرك أن أحدًا لا يصدق قصتها: لا صاحب المتجر ولا الزبائن الآخرين الواقفين خلفها. كان الحرج يستولي عليَّ وأنا أقف إلى جوارها، أراقب نظرات الشفقة والازدراء على وجوههم، وأتساءل عما إذا كانت تعليقاتهم الهامسة تخصنا نحن. كنت أراقب وجه أمي يتلون بالذل والحرج حينما كانت تدرك أن أحدًا لا يصدق كذبتها الواهية.

كانت تشتري أرخص قطع لحم تجدها عند الجزار. كان حساء فتافيت الضأن يستمر عندنا أسبوعًا عندما تضيف أمي إليه العظم المليء بالنخاع فتمنحه قوامًا أغلظ ونكهة أفضل. كما كانت قطع البطاطس

الكثيرة وبقية الخضر الموسمية تتحول إلى يخنة مغذية تقدمها أمي لنا ليلة بعد ليلة.

وقد مرت علينا أوقات أسوأ من هذا كله، أوقات كان أبي لا يظهر فيها إلا بالكاد، وعندما يفعل كان يأتينا بوجه غير حليق، وعينين داميتين، تفوح منه روائح الحانة من الكحول والسجائر والعرق. كان يأتينا وظرف أجره فارغ تمامًا.

في تلك الأوقات كان على أمي التوسل إلى الجزار ليعطيها العظام المكسوة باللحم التي يمنحها لعملائه الأثرياء كي يطعموا كلابهم. كان يتأمل وجهها المثير للشفقة ووجهي الممتقع ويقول:

- أظنكما تستحقانها أكثر من كلابهم المدللة.

وكان يضيف بعض بقايا اللحم التي تتساقط بعد التقطيع إلى اللفافة، ثم يقول:

- إنها مجانًا يا حلوة.

ويتجاهل كلمات الشكر والامتنان. في كل مرة كان لطفه يحرج أمي أكثر مما كانت فظاظته المعهودة تفعل.

في تلك الأوقات كان مقدار البطاطس وأوراق الملفوف في يخنة أمي يزيد على مقدار اللحم كثيرًا. كانت فطيرة الراعي تتحول إلى هريس ومرق، ويُستبدَل بالزبد والمربى على خبزنا دهنٌ أبيض غريب المذاق.

في كل مرة كانت أمي تضع فيها أمامي طبق الملفوف وقطع البطاطس الشاحبة السابحة في المرق كانت تقول:

- علينا أن نترك اللحم لوالدكِ.

كنت أتطلع إلى كرسي أبي الفارغ والمكان المخصص له على الطاولة، وأتساءل عما إذا كان سيعود إلى المنزل بعد نومي.

# الفصل الثالث

كثرت النزاعات بين أمي وأبي، واشتدت حدتها مع الوقت، وبدأتُ أنال نصيبي من الضربات كذلك، وصار صوت أبي المرتفع يعني لي قضاء ليلة مليئة بالرعب والفزع. في منتصف الخمسينيات كان قد ظهر عدد من المصانع الجديدة في إسيكس، والتي كانت تنتج مجموعة واسعة من السلع، ابتداء بعطر ياردلي وانتهاء بسيارات وجرارات فورد. وفي كل مرة كان يتم فيها افتتاح مصنع جديد، كان مزاج أبي يزداد سوادًا. كان يتحسر على الحقول الزراعية الخضراء التي صارت تغطيها العقارات السكنية والمصانع الجديدة، وهو الشيء الذي أدى إلى استبعاد المزيد من عمال المزارع، وحرمانهم من العمل. كان يستهزئ بعمال المصانع، ويشكو من عدد السيارات اللامعة الجديدة التي تقذفه بالطين كل يوم وهو يقود دراجته على الطريق.

وقد بدا أن زياراته للحانة تغذي هذا الغضب، فكان يعود إلى البيت مهتاجًا. لم تكن هناك سوى شعرة تفصل بينه وبين الانفجار، دومًا يرقد السخط تحت السطح، مستعدًا للفوران مع أدنى استفزاز. كانت تكفي مشاحنة بسيطة في الحانة، أو شيء لم تفهمه أمي تمام الفهم، أو جلوسي في مكان يريد اتخاذه، كي يتفجر غضبه كالبركان. وعندما يبدأ انفجاره يتوقف عن الكلام، جاعلًا من موجات الغضب وعنف اللكمات وسيلة للتواصل. كانت عيناه تتقدان في حنق واضح وهما تمسحان الغرفة، وتبحثان عن شيء يستطيع به التنفيس عن غضبه. كنت أتمنى وقتها ألا تسقط عيناه عليَّ أبدًا.

وفي تلك الأوقات كنت أبقى منكمشة في أحد الأركان، أحاول إخفاء نفسي عن مرمى بصره.

وعلى الرغم من أنني كنت أختبئ في مكان بالغرفة التحتية وأغلق عيني بقوة، أو في غرفتي راقدة على فراشي أرتعد رعبًا، كنت لا أزال قادرة على سماع الصرخات وتمييز صوت الضربات. إلا أنني لم أشاهد أبي وهو يضرب أمي فعليًّا إلا حين بلغت الرابعة من عمري.

ليلتها كانت الوجبة المسائية قد أُعدت قبل ساعة، وكانت أمي تضع لأبي حصة إضافية من الطعام عندما فتح الباب، واندفع منه إلى المطبخ بوجه مسود من الغضب. انحنى أبي على الطاولة، وشد عليها بأصابعه الغليظة، وقد تصاعدت رائحة الخمر من فِيه تزكم أنوفنا. هب في وجوهنا يفرغ غضبه الذي أججه بداخله عمال المصانع الذين يتقاضون أجورًا أفضل، بعد أن بدؤوا في ارتياد الحانة نفسها.

- هؤلاء الملاعين! من يظنون أنفسهم؟ أيحسبون أنهم أفضل منا؟ إنهم يجهلون معنى العمل الشاق، لا يزالون سذَّجًا، حمقى صغار ملعونون، يتوهمون أنهم يعرفون كل شيء. هل تعرفان ما الذي أخبروني به اليوم؟

شعرتُ أن أمي تبحث بجهد جهيد عن الكلمات الصحيحة لتهدئته، ولكن لما لم تجد في نفسها القدرة على قول أي شيء مناسب، أبقت فمها مغلقًا.

وتطلعت إليه عاجزة، بينما تنطلق الكلمات الغاضبة من فمه، كلمات لم أفهم منها الكثير، لكنني أدركت الشر الكامن فيها، ورحتُ أرتعد هلعًا.

- لقد سجلوا أسماءهم لشراء تلك العقارات الجديدة التي يتم بناؤها. إنهم سيمتلكون المنازل الآن. التأجير لم يعد كافيًا بالنسبة إليهم. كان الواحد ليظن أن قيادة تلك السيارات

السريعة تكفيهم. إنهم ينظرون إلينا من فوق أطراف أنوفهم، نحن الذين عملنا بجد في المزارع بينما كانوا لا يزالون في المدارس يلهون كالحمقى. وها هم أولاء يحصلون على المنازل الآن ويستفيدون من الرهن العقاري. حسنًا، هذه لا تسمى إلا استدانة، وهذا الديْن سيدمرهم، وسأذكركما بكلامي هذا قريبًا.

طوال الوقت الذي كان يصيح فيه أبي متذمرًا من عمال المصانع كان إحباطه الناجم عن فشله في تحقيق أي إنجازات يتعاظم. كان يلقي باللوم على أمي لأنها قيدته بقيد الزواج، ويلقي باللوم على وجودي كعبء إضافي. أخبرنا بأنه لو لم يكن بحاجة إلى وظيفة توفر لنا منزلًا، فلعله كان يقود الآن سيارة جديدة مثل هؤلاء الحمقى بدلًا من ركوب الدراجة.

تسمرت في مكاني فوق المقعد بينما كنت أستمع إلى همسات أمي المستعطفة الملطفة. وضعَتْ العشاء أمامه بسرعة، وأعدت الشاي وصبته، وقطَّعتْ شريحة من الخبز ودهنتها بالزبد. إلا أن شيئًا من هذا لم يُهدِّئ من غضبه.

تطلع أبي إلى كل منا بشراسة قبل أن يلتقط الشوكة ويلقي بالطعام في فمه. صاح في اللحظة التي تذوق فيها اللقمة الأولى:

- حبًّا بالله يا امرأة! ألا يمكنكِ طهي أي شيء آخر غير هذه اليخنة المقرفة؟

للحظة ظننت أنه سيلقي بالطبق على الأرض، وهو شيء رأيته مرارًا في الماضي، لكن لأنه في قرارة نفسه كان يعلم أن هذا هو أفضل طعام في البيت، وأنه ليس هناك من شيء آخر ليأكله، صمت قليلًا، وبعدها عاد إلى تناول الطعام، وبين كل لقمة ولقمة كان لا ينسى أن يسب أمي ويلعنها بكل السبل الممكنة.

ثم صمت طويلًا.

لما شاهدت احتقان وجهه استنتجت أن غضبه لم يهدأ بأي شكل. كان أبي ساعتها يفكر في سبب آخر يمكِّنه من إلقاء اللوم على أمي والتنفيس عن حنقه على العالم بأكمله. استطعت الشعور بارتياع أمي وغضب أبي المكتوم. شعرت بثقل في معدتي ورغبة قوية في التقيؤ. الله يعلم كم رغبت في مغادرة الطاولة! بيد أنني لم أجرؤ على الحركة. كنت أذكى من أن أتسبب في لفت انتباهه إليَّ.

جمع آخر قطرات من المرق بآخر كسرة خبز، ثم دفع الطبق جانبًا، ومسح فمه بظاهر يده. وبنظرات تقطر سمًّا، مسحت عيناه جسد أمي صعودًا وهبوطًا. وبعد القليل من الصمت المخيف صاح أبي:

- آه يا إلهي! ألا إنك امرأة مقرفة! لا عجب أنني لا أريد العودة إلى المنزل أبدًا. إنكِ لتُشعرين المرء بالخجل. هذا المنزل حظيرة حقيقية. هل تظنين أننا يمكننا أن ندعو أي شخص هنا؟ كانت أمي محقة بشأنكِ. لطالما أخبرتني أنكِ بقرة قذرة. كانت دومًا تحافظ على المنزل نظيفًا، وكان لديها من الأبناء أربعة. أما أنتِ أيتها الكلبة الكسول فلا تبالين بشيء.

أضحى وجه أبي أشد احتقانًا بينما يتدفق سيل الإهانات من فمه. تراجعت أمي للخلف وكأن كل كلمة من فِيه كانت لكمة حقيقية، لكنها لم تحاول بأي شكل أن تدافع عن نفسها.

وفجأة ارتد مقعد أبي للخلف ونهض مندفعًا من على الطاولة. لا بد أن أمي كانت تعرف ما سيحدث بعد ذلك، فقد حاولت أن تنكص على عقبيها، لكنه كان أسرع منها. غطت أمي وجهها بيديها تحاول حمايته حينما راح أبي يمطرها باللكمات على كتفيها وذراعيها. انهمرت الدموع

من بين أصابعها. كان بإمكاني سماع أنينها الخافت وتوسلاتها له بأن يتوقف.

وإذ فجأة، توقف أبي كما بدأ، وترك ذراعيه تسقطان إلى جانبه، وصاح:

- إن ضربكِ إهدار للوقت.. أنتِ لا تتعلمين أبدًا. انظري إلى نفسكِ يا امرأة، لقد هرمتِ حقًّا!

رفع يده مرة أخرى، لكنه اكتفى هذه المرة بلكزها في صدرها بإصبعه، واستأنف إهاناته قائلًا:

- انظري إلى سروالكِ يا امرأة!

عندما انتهى من كلماته الساخرة، تحولت عيناي إلى تنورة أمي، ورأيت أن لباسها الداخلي قد سقط متهدلًا على ساقيها.

وفجأة علت وجه أبي ابتسامة صفراء، ابتسامة كانت تخيفني مثل قبضة يده بالضبط. دنا أبي من أمي وأجبرها بجسده على التراجع إلى أن لمس ظهرها الجدار. امتقع وجه أمي من الرعب، فصار أبيض كالشبح. سمعتها تتوسل إليه بأنفاسٍ لاهثة، ثم أبصرت يده تدخل جيبه وتخرج بولاعة السجائر. لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ معدودة للضغط عليها بإبهامه. قبل أن تتاح لأمي الفرصة لتدرك ما سيحدث لها، انحنى أبي وأشعل النار في لباسها الداخلي، بينما كان يثبتها بيده الأخرى مانعًا إياها من الحركة.

صرخت أمي تستغيث:

- بيرت! دعني أذهب أرجوك! أطلق سراحي.

حاولت مرارًا دفعه بعيدًا عنها، فتعالت ضحكاته وأبقاها في مكانها. جعلني الذعر أقفز من فوق الكرسي وأكرر ما رأيته يفعله ذات مرة عندما سقطت شرارة من النار على الملابس المنشورة أمام الموقد كي

تجف. التقطتُ صحيفة قديمة، واندفعت بينهما، وبدأت أضرب بها على اللهب الصغير المتوهج. ضحك ساخرًا منا وحررها من قبضته. هرعت أمي إلى الحوض وغمرت تنورتها بالماء، ولحظتها نسيت كم كنت خائفة منه؛ صحت وأنا أرفع بصري إلى وجهه المدهوش:

- أنت سيئ. أنت أب سيئ، وشرير، ومؤذٍ!

هدر مرة أخرى:

- من تظنين نفسكِ؟ أتصيحين في وجهي؟ لا تتعدي حدودكِ مع أبيكِ أيتها الشقية الصغيرة، واذهبي للنوم الآن، هل تسمعين ما أقوله؟

صفع مؤخرة رأسي بيده، فظهرت بقع سوداء أمام عيني وكدت أسقط من هول الضربة، ولكن بعضًا من إحساس بالكرامة جعلني أحافظ على توازني وأغادر المكان، قاصدة غرفتي بالأعلى.

كتمت دموعي إلى أن صرت وحدي في الغرفة.

مع تزايد الشجارات يوم بعد الآخر، أصبحت غرفتي الصغيرة ملاذي وملجئي.

هناك كنت أندس تحت المعاطف القديمة والأغطية الممزقة، وأسحبها حتى أذني، محاولة حجب الأصوات التي كانت تفزعني وتثير الرعدة في جسدي، كل الصيحات واللكمات والصرخات التي كانت تأتيني إما من الطابق السفلي أو من غرفة نوم أبويَّ، وليس من أحلامي.

ولكن بغض النظر عن كل محاولاتي التي بذلتها، كان زئير أبي الغاضب يصلني دائمًا.

كان يصيح في أمي:

- أيتها الساقطة! أيتها العاهرة!

وعلى الرغم من أنني لم أكن أفهم معنى هذه الكلمات بعد، إلا أن شراسته كانت تجعلني أنتفض من الهلع.

كان إبهامي يتسلل إلى فمي، فأمتصه بينما يهتز جسدي بالنشيج الصامت، وأقبض بيدي الأخرى على دميتي المصنوعة من الخِرق، والتي رسمت أمي وجهًا عليها بالألوان. كنت ألجأ إلى دميتي في كل مرة أسمع فيها توسلات أمي بأن يتوقف، وما يتبعها من انتحاب وأنين.

وفي كل مرة كنت أهتف طوال الليل: يا رب، اجعل هذا يتوقف!

إلا أنه حينما يستجيب ويتوقفان أخيرًا، كان السكون يتحول إلى مصدر لفزع أكبر!

بيد أنه كانت تمر علينا أيام يختفي فيها مزاج أبي النكد، ويتحول عبوسه إلى ابتسام، وزمجرته إلى لطف. في تلك الأوقات كان يؤكد لأمي أن ذهابه إلى الحانة ماضٍ وانتهى، وكان يبقى معنا بعد العشاء. صحيح أن أمي كانت قد سمعت منه كل هذا من قبل، وتعلم أنها فترة مؤقتة لن تدوم طويلًا، لكن هذا لم يمنع الأمل من التجدد في صدرها كل مرة.

في تلك الأيام، كان القلق يغادر وجه أمي، وتظهر سلة ملآنة بأدوات صُنْع السجاجيد. كانت أرضيات منزلنا مغطاة ببعض البسط البالية منزلية الصنع، والتي بخلاف المشمع البني البارد، تمنح الأرضيات بعض اللون والبهجة. كان والداي يجلسان أمام النيران وقد انتشرت أمامهما الأدوات اللازمة لتحويل بعض الأسمال البالية إلى بسط لا بأس بها لتغطية الأرضيات. كانا يستخدمان لأجل هذا مجموعة متنوعة من الملابس الرثة، التي تلقي بها زوجات المزارعين بعد أن تُبلى، بالإضافة إلى مقص وكومة من الزكائب. كانت أمي تقطع الخرق القابلة للاستخدام إلى شرائح طويلة، وتفرزها بحسب اللون، ثم تعطيها لأبي لينسجها بصبر بين خيش الزكائب. وعندما أريد في تلك الأوقات أن أكون ذات

فائدة، كنت ألتقط بهدوء البقايا التي تسقط على الأرض وأضعها في حقيبة أخرى.

كان أبي يأخذ إبرة معدنية رفيعة طويلة ذات خطاف منحنٍ في أحد طرفيها وسن حادة في الطرف الآخر، والتي كانت تشبه إبرة الكروشيه، وينسج شرائط القماش داخل ما كانت في السابق زكائب البطاطس بالمزرعة. وأخيرًا، كان يربط كل شريط من القماش، مثبتًا إياه في مكانه. كنت أبصر يدَيْ أبي المتشققتين وهما ترتعدان من أثر توقفه المؤقت عن الكحول، بينما يكرر التمرين مرة بعد مرة إلى أن تظهر بُسط ملونة بأحجام مختلفة.

ذات مرة هتف يحدثني بنبرة خشنة عندما انتهى من العمل على سجادة ملونة:

- هاكِ واحدة لغرفة نومكِ يا ماريان، كيلا تتجمد قدماك عند النزول من السرير صباحًا (ثم ألقى إليَّ بسجادة مكتملة الصنع).

همست:

- شكرًا لك.

والامتنان يغمرني بسبب السجادة واللفتة غير المتوقعة. ابتسمت له ابتسامة متوترة فتلقيت ابتسامة مماثلة.

في تلك الليلة، صعدت إلى غرفتي، وفرشت السجادة بكل فخر إلى جوار سريري، وعندما استيقظت في الصباح رحت أتأملها، معجبة بألوانها الدافئة. كل ما أردته آنذاك هو أن يدوم مزاجه الجيد، وأن يستمر وجه أمي في الابتسام، وألا تعلو صيحات الغضب والتوسل في البيت مرة أخرى.

هذان كانا الوالدَين اللذين أردتهما.

بيد أن خيبة الأمل كانت تدمر حلمي البسيط مرة بعد الأخرى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# الفصل الرابع

سمعت كلمات عابرة عن شيء اسمه المدرسة، وعرفت أن هذا يعني أن عليَّ الجلوس في حجرة واحدة مع بعض الأطفال الآخرين، والاستماع إلى معلمة تشرح لنا الدروس، وتعلمنا القراءة والحساب، وعندما أخبرتني أمي أنه سيكون عليَّ الذهاب إليها في غضون أسبوع، لم أهتم لهذا كثيرًا.

قالت أمي بصبر نافد عندما أكدت لها أنني أريد البقاء معها في المنزل:

- أنتِ لستِ طفلة رضيعة يا ماريان، فلا تتصرفي مثل الرُضَّع. كما أنكِ ستحبين الأمر حالما تجربينه على أي حال. وستكتسبين بعض الأصدقاء الذين هم في مثل سنكِ، وسينفعكِ هذا صدقيني.

بيد أنني لم أرَ الأمر بهذه الطريقة. بصرف النظر عن بعض الزيارات لأقارب أبي، لم أكن معتادة على الاختلاط مع الآخرين. جعلتني فكرة الابتعاد عن المنزل أتتبع أمي في جميع أنحاء المنزل محاولة تغيير رأيها. هتفت أمي عندما كررت احتجاجاتي للمرة الألف:

- توقفي عن هذا الهراء، ستذهبين إلى المدرسة يا ماريان، وهذا قرار نهائي.

استمرت أمي في تذمرها وأخبرتني أن عليَّ أن أكون ممتنة لأنها ستوصلني وتعود بي كل يوم، ولن تكتفي بوضعي في الحافلة وتركي

أذهب وحدي. لكنها لم تقل بأن توصيلها لي على الدراجة كان لتتجنب تكلفة الاشتراك في حافلة المدرسة، ولأنني كنت أصغر من احتمال المشي لمسافة ميلين إلى المدرسة وحدي.

ثم حل اليوم الذي كنت أخشاه؛ يومي الأول في المدرسة، وقد جاء في رأيها أسرع من اللازم. فيما عدا غسل وجهي ويدي بعد الإفطار، بدأ يومي الدراسي الأول مثل أي يوم آخر. ألبستني أمي فستانًا كنت قد ارتديته عدة مرات من قبل، ووضعت قدمي في حذاء ويلينجتون أسود، ومشطت شعري على عجالة. لم أتقبل حقيقة أنني في طريقي إلى المدرسة إلا حينما ألبستني أمي حقيبة ظهر اشترتها من متجر الأغراض المستعملة، ورفعتني على المقعد الصغير على الدراجة، وأمرتني بالتشبث بها جيدًا.

يومها شعرت بكل انبعاج ونقرة في الطريق غير الممهدة، فأحكمت قبضتي على وسط أمي طوال الرحلة متمسكة بها بقدر ما أستطيع. بمجرد أن وصلنا إلى المدرسة، ركنت أمي دراجتها الصدئة على الحائط وأنزلتني من فوقها. تجاهلت أمي الأمهات الأخريات اللواتي وقفن يثرثرن معًا في الفناء، وتوجهت مباشرة إلى امرأة شابة كانت تحمل دفتر ملاحظات كبير وتقف بين الأطفال والأمهات؛ لقد كانت المعلمة المسؤولة.

قالت أمي دون مقدمات:

- هذه ابنتي في يومها الأول. اسمها ماريان. (ثم التفتت إليَّ وهتفت) كوني مؤدبة يا ماريان، وافعلي ما تأمركِ به معلمتكِ. سآتي لاصطحابكِ لاحقًا.

وفورًا استدارت أمي وسارت بسرعة إلى دراجتها. ظللت أحدق إلى ظهرها وهي تسير مبتعدة، وكنت أعلم أن ما أشعر به من كرب كان مرده إلى غيابها الوشيك.

ارتجفت شفتي السفلى وأنا أشاهدها تندفع بدراجتها بعيدًا، فعضضت شفتي، آملة أن يمنع هذا دموعي الوشيكة من الهطول. لم أكن راغبة في أن أبدو حمقاء أمام بقية الأطفال.

سمعت المعلمة تهتف:

- ماريان! تعالي وسلمي على جين. هذا هو يومها الأول مثلكِ يا عزيزتي.

بيد أنني قد غلبني الخجل، وعوضًا عن تنفيذ أمر المعلمة، التي اكتشفت لاحقًا أن اسمها الآنسة إيفانز، رحت أتأمل الفناء بعينين واسعتين مدهوشتين كطفلة وحيدة منعزلة، طفلة وجدت نفسها فجأة تواجه سيلًا من الأطفال الآخرين للمرة الأولى في حياتها.

كان هناك نحو عشرين طفلًا، كل واحد منهم يظهر مشاعر مختلفة عن الآخر. البعض كانت الدموع جلية في مآقيهم، والبعض الآخر وقفوا في مجموعات صغيرة متشبثين بحقائبهم بعصبية، بينما وقفت أمهاتهم، اللائي بَدَوْنَ على وشك البكاء مثلهم، يهمسن بكلمات مهدئة أو مشجعة قبل أن يلوحن إليهم مودعات.

لكن على الرغم من وجود الأطفال الباكين بوجوههم الكئيبة التي عكست مشاعري وقتها بالضبط، كنت أدرك الفرق الواضح بيني وبينهم في المظهر. لقد بدا جميع الأطفال مختلفين عني.

لم تكن هناك سوى فتاة واحدة ترتدي ملابس تشبه ملابسي. كنت أعي بوضوح أن ثوبي قديم باهت، وأن السترة التي ارتديتها فوقه

مكتبة ١٠٦٠

مرتقة عند الكوعين. أما بقية الأطفال فكانوا جميعًا في منتهى النظافة والهندمة.

كان شعر الفتيات مسرح، ومربوط بشرائط جميلة بألوان الباستيل، وكن يرتدين بلوزات قطنية نظيفة جميلة مدسوسة في تنانير داكنة ذات ثنيات، وقد غطت أقدامهن جوارب بيضاء نظيفة وأحذية جلدية لامعة. حتى الأولاد في المدرسة كانت شعورهم مقصوصة، يرتدون قمصانًا بيضاء جديدة زاهية، وربطات عنق معقودة بأناقة، وسترات أنيقة، وبنطلونات قصيرة بطول الركبة. بدت جميع ملابسهم خارجة لتوها من علبها.

تطلعتُ بحسرة إلى ساقي العارية النحيفة، وحذاء الويلينجتون المستعمل في قدمي، ورفعت يدي إلى شعري الخالي من الشرائط، والذي كانت أمي قد قصته حتى صار طوله يصل إلى أذني بالكاد، وأردت من كل قلبي العودة إلى المنزل. كنت أعرف من اليوم الأول أنني لن أحب المدرسة، وأن اختلافي سيجعلني لن أستطيع مصادقة أي طفل هناك.

دق الجرس وعلا رنينه في أذني فأفزعني. علمتنا المعلمة كيف نقف صفًا في أزواج، وسرنا خلفها إلى الفصل الدراسي النظيف، وجلسنا على دكك صغيرة. طلبت الآنسة إيفانز أن نخبرها بأسمائنا بصوت عالٍ، وأعلمتنا أننا سنفعل ذلك كل صباح حتى تعرف ما إذا كان هناك شخص غائب، ومع كل اسم، كانت تضع علامة في كتاب كبير علمت فيما بعد أن اسمه دفتر الحضور.

قلت لنفسي: بالتأكيد كان بإمكانها معرفة ذلك بمجرد عدِّنا، لكني احتفظت بأفكاري لنفسي.

وفيما بعد منحوا كل واحد منا قلم تلوين وأوراقًا، وطلبوا منا أن نرسم أي شيء يخطر على أذهاننا. رسمت الكثير من الخطوط المتعرجة، وفرحت بالألوان وهي تتوهج على ورقتي.

في منتصف النهار، منحونا زجاجات صغيرة من الحليب، وشفاطات بيضاء طويلة لشربه.

في وقت الغداء وقفنا في صف من جديد وذهبنا إلى المقصف. بمجرد ابتلاع اللقمة الأخيرة، تم إرسالنا للعب في الفناء. في ذلك اليوم الأول، وقفت في أحد الأركان أراقب الأطفال الآخرين يلعبون. كل ما أردته يومها هو أن يأتي إليَّ ولو طفل واحد فقط، ويسألني عن اسمي، ويدعوني إلى اللعب، بيد أن أحدًا لم يفعل.

بعد الظهر قرأت المعلمة قصة علينا. بالنسبة إليَّ كانت مجرد كلمات تعبر عن أشياء لا أعرف لها معنى. لم تكن هناك كتب في منزلنا، مجرد صحف وبعض المجلات النسائية أحيانًا، لذا كان «سرد القصص» طقسًا غير مفهوم بالنسبة إليَّ. وبدافع من الملل، تحولتُ ببصري إلى النافذة. رأيت بعض أمهات زملائي يتقاطرن على الفناء، ويقفن في مجموعات صغيرة، ويثرثرن مع بعضهن بعضًا. ركزت عيني على الطريق خلفهن، منتظرة ظهور الهيئة المألوفة لأمي.

أعلن رنين الجرس نهاية اليوم الدراسي، وبعدها رأيت أمي تدفع دراجتها عبر البوابة، وكما فعلتُ وقت الغداء، نأت بنفسها عن الأمهات الأخريات، وقد فعلن بدورهن ما فعله أطفالهن معي، فلم يمنحنها أي اهتمام.

هتفت عندما ركضت في اتجاهها:

- أكان يومكِ على ما يرام يا ماريان؟

أجبتها:

- نعم. (وشعرتُ أن عليَّ ألا أزيد على هذا بشيء).

قالت أمي:

- حسنًا، إذن يا صغيرة.

ورفعتني بعدها لتثبتني فوق مقعد الدراجة الصغير، وانطلقنا إلى المنزل.

لم تسألني أمي المزيد من الأسئلة.

ولم يسألني أبي عن أي شيء.

ربما كانا يعرفان بالفعل ما بدأت أتعلمه هناك، وهو أن الأطفال المختلفين مثلي لا يكتسبون أصدقاء.

# الفصل الخامس

مرت سنوات عديدة قبل أن أسمح لنفسي أخيرًا بالرجوع بذكرياتي إلى تلك المرحلة التي كنت فيها مجرد فتاة صغيرة وحيدة. ومع عودة الصور إلى مخيلتي، عادت الدموع توخز عيني. رأيت بعين خيالي جسدها الهزيل الصغير منكمشًا في زاوية الفناء يومًا بعد يوم، حيث ظلت تنتظر أن يتخذها أي طفل صديقة له، وإن لم تصدق في قرارة نفسها أن شيئًا كهذا يمكن أن يكون قابلًا للحدوث.

استرجعت بذاكرتي كم كانت تقف حائرة أمام كلمات مثل «عطلة»، أو «تدفئة مركزية»، أو «شرفة أرضية»، أو «حمام داخل المنزل»، وتسمع ضحكات ساخرة لا نهاية لها من كل طفل يشهد ارتباكها أمام مثل هذه الكلمات.

أخذت أستعيد كيف كانت تحاول هذه الفتاة إخفاء ألمها عندما كانت تسمع عن حفلات أعياد ميلاد لم تُدعَ إليها قط، حفلات تُقدَّم فيها هدايا لم تتخيل أن تمتلك يومها مثلها: بيت عرائس مؤثث بقطع متناهية الصغر من الأثاث في كل غرفة، ودراجات بثلاث عجلات مطلية بطلاء أحمر لامع، ودمى تغمض عينيها وتفتحها، وتبكي مثل الأطفال الحقيقيين.

تحدث الأطفال عن متع لم يكن بإمكانها سوى أن تحلم بها: نزهات يذهبون فيها إلى المقاهي ويتناولون فيها حلوى المارينج الوردي، والآيس كريم بالتوت الطازج والكريمة، وفساتين جديدة تشتريها

الجدات لحفيداتهن، ورحلات عائلية إلى شاطئ البحر، وكرنفال متنقل، وغير ذلك من أشياء عجيبة.

ولأنها لم تكن لديها قصص خاصة بها يمكنها أن تحكيها للأولاد الآخرين، فقد آثرت هذه الفتاة الوحيدة الصمت.

حاولتُ استحضار صور أخرى أقل قتامة، بيد أن ذاكرتي بدت لي وكأنها مركزة على صورتي وأنا فتاة هزيلة وحيدة أقف بمفردي في فناء المدرسة. أطلقتُ تنهيدة طويلة، ونهضتُ من مقعدي المريح، وتوجهتُ صوب الخزانة حيث أحتفظ بالألبومات العائلية التي سجلت مناسباتنا السعيدة. غير أني دفعتها جانبًا، وأخرجت مظروفًا بنيًّا قديمًا أحالته السنوات إلى أصفر مشوب بالسواد.

قلت لنفسي آسفة: كم هو صغير! وعلى الرغم من أني لم ألقِ نظرة على محتوياته لأكثر من عقدين من الزمن، كنت أعلم أن بداخله الصور التي التقطت خلال الخمسة عشر عامًا الأولى من حياتي. أخرجت من الظرف الصور القديمة المعدودة التي تم التقاطها بالأبيض والأسود ورصصتها أمامي على الطاولة.

لم أكن في أي من هذه الصور طفلة رضيعة تبتسم للكاميرا ابتسامة عريضة مشرقة، أو صبية صغيرة سعيدة يمسك والداها الفخوران بيديها بينما تخطو خطواتها الأولى. كنت في معظمها أقف بصحبة أشخاص آخرين. كان الأمر كما لو أن الكاميرا كانت تنتوي التقاط صورهم هم، ثم أكون هناك بالصدفة فتصورني معهم، كنت أقف دائمًا في ركن قصي من الصورة. وجدت بعض الصور المدرسية الجماعية التي تم التقاطها حينما كنت في الثانية عشرة، فنحيتها جانبًا. كنت أرغب في أن أرى نفسي حينما كنت أصغر سنًّا.

كانت هناك صورتان فحسب؛ الأولى صورة بالأبيض والأسود التُقطت لي أنا وأخي حينما كان طفلًا رضيعًا وأنا في السادسة من عمري. كنا نجلس جنبًا إلى جنب على الأريكة القديمة. كان يميل عليَّ ويمسك بيد أمي. كانت هناك ابتسامة عريضة على وجهه بينما كنت أنظر إلى الفراغ نائية عن الجميع بجسدي الهزيل، وذراعيَّ وساقيَّ شديدات النحافة.

كان هذا هو الوقت الذي كبرت فيه بما يكفي لأدرك أن أبويَّ لم يشعرا بأي عاطفة حب تجاهي. قبل ولادة أخي، لم أكن قد رأيت أبي أو أمي يتعاملان بعطف مع أي شخص آخر، ولكن بعد مجيئه شاهدتهما مرارًا يغدقان على أخي نظرات الحب والرعاية التي لم يتكرما عليَّ بواحدة منها، فتوقفت عن التشكك في ذلك الأمر. أصبحت لا مبالاتهما تجاهي يقينًا استقر عميقًا بداخلي.

سمعت مرارًا كلمات التدليل التي يهمسان بها في أذنه، بل وسمعت أبي في بعض المرات يهتف «ولدي» بصوت يفيض منه الرضا والسعادة، وكل هذا ترك في أعماقي فجوة عميقة.

كانت رؤية هذا الحب يُغدَق على طفل آخر، هذا الحب الذي كنت أتوق إليه دون أن أدري، تخلِّف في قلبي يومًا بعد يوم شعورًا بالبرودة والفراغ. اعتقدت حينها أنني -لا بد- لا أستحق مثل ذلك الحب، فها هو ذا أخي يستمتع به وهو لم يمر عليه وقت طويل في هذه الدنيا. في البداية عندما كان مجرد مخلوق ضئيل، كنت أقف أتطلع فيه وأتأمل أطرافه السمينة المثالية، وبشرته الملساء التي كانت بلون القشدة، ومع نموه في الحجم نما حبي له في قلبي، لكن مع هذا الحب تعزز بداخلي شعور آخر كذلك؛ لا لم يكن الغيرة، بل الوحدة القاتلة.

كانت أمي تهتف بإعجاب: «انظري إلى أخيكِ الصغير يا ماريان»، وهو يتخذ خطواته المتعثرة الأولى. وتؤكد لأبي: «انظر إلى تلك الابتسامة المشرقة. سيحطم قلوب الفتيات، هذا مؤكد!».

أردت أن أصيح: أنا هنا! انظرا إليَّ! ولكن عندما فعلا تمنيت لو لم يفعلا، لأن النظرة الحنون المخصصة لأخي اختفت بمجرد تحول أعينهما إليَّ.

كنت أشاهد أمي وهي تربت على وجنتيه الورديتين، وتقبل بطنه الصغير وتدغدغه قبل أن تضع ذراعيها حوله محتضنة إياه بحنان.

حاولت أن أكون مطيعة حينها، وعرضت المساعدة في إطعامه وتغيير حفاضاته، ولكن طوال الوقت كنت أسأل نفسي: إذا كانت أمي قادرة على الشعور بكل هذا الحب لأخي، فلم لا يتبقى لي ولو بعض الفتات منه؟

عندما كنا ننتهي من وجبتنا، كنت أهبط من فوق مقعدي وألتقط أطباقنا المشروخة وأي شيء آخر يمكن أن تحمله يداي الصغيرتان، وأحملها متجهة إلى الحوض بتركيز كيلا يسقط أي شيء من يدي، فقد كنت أعقل من ارتكاب خطأ كهذا.

في بعض الأحيان كانت أمي تكافئني بابتسامة وتمرر أصابعها بين خصلات شعري، وتهتف: «أنتِ فتاة طيبة يا ماريان». وفي تلك المناسبات القليلة كانت كلمات الثناء المعدودة هذه كافية لإبقاء الابتسامة على وجهي لأيام.

بصرف النظر عن وجود أخي الذي يؤكد عدم اكتراث أبي بي، فإن أكبر تغيير أحدثه وجوده في حياتي هو توقف أمي عن اصطحابي إلى المدرسة في الأشهر القليلة التي سبقت ولادته.

- أنا مشغولة للغاية يا ماريان، وأنتِ كبيرة بما يكفي للذهاب بمفردكِ الآن.

كان هذا هو كل ما قالته لتفسر الوضع.

لذلك عوضًا عن الجلوس على المقعد خلفها ولف ذراعي حول خصرها بإحكام، كان عليَّ أن أسير وحدي لمسافة نصف ميل إلى محطة الحافلات، والذهاب إلى المدرسة بنفسي. عزز هذا الشيء من اختلافي عن بقية الأطفال، فلقد أدركتُ حينها أنني كنتُ الطفلة الوحيدة في الصف التي تدخل المدرسة بمفردها، دون أم تودعها. وعندما كان يرن جرس الانصراف، كنت الوحيدة التي لا يأتي أحد لأخذها.

في نهاية اليوم الدراسي، كان جميع الأطفال في صفي يسارعون إلى البوابة لتلقي الأحضان والقبلات والأسئلة المهتمة حول أحداث اليوم. كنت أجد رجالًا ونساءً في عمر أبي وأمي يمسكون أيدي صغارهم بإحكام، ثم يغادر الجميع دون إلقاء نظرة واحدة عليَّ. شعرت وكأنني طفلة خفية، وهو الشعور الذي تعاظم عندما وصلت ذات يوم إلى المنزل ورأيت أخي يجلس على ركبة أمي.

في تلك الأيام شعرت بحاجة ماسة إلى وجود شيء في حياتي، دون أن أعرف ماهية ذلك الشيء بالضبط.

# الفصل السادس

كانت الصورة الثانية هي التي جعلتني أبتسم. لقد تم التقاطها لي عندما كنت في السادسة من عمري أيضًا، ولكن هذه المرة كانت آيات السرور جلية على وجهي. تذكرت بوضوح ذلك اليوم الذي التقطت الكاميرا فيه هذه الصورة، وحفظت تلك اللحظة إلى الأبد.

لم تُكِن عائلة أبي أي حب لأمي، لكنها كانت تُكِن لي القليل منه في واقع الأمر. في الأوقات النادرة التي كانوا يزوروننا فيها، كنت أرى تعبيرات وجوههم المتأففة وهم يتفحصون الغرفة القذرة بأبصارهم قبل أن تستقر نظراتهم عليَّ.

كانت جدتي تخبر أمي في كل مرة: «الفتاة تشبهكِ في مظهرها»، وأدركتُ بعد عدة مرات أنها لم تقصد مجاملة أمي بذلك. لذا كان ما فعله أبي مفاجئًا للغاية.

كان الأكبر بين أربعة أبناء، وعلى الرغم من اضطراره إلى الزواج بامرأة لم توافق عليها عائلته، كان لا يزال فتى والدته المفضل. توفي والده وأنا بعد صغيرة، لذلك عندما أعلنت أخته أنها ستتزوج طلبت منه أن يهبها إلى عريسها يوم الزفاف.

وقد وافق أبي على شرطين: أن تدعو زوجته إلى حفل الزفاف، وأن أكون أنا وصيفة الشرف. لم أكن أنا ولا أمي حاضرتين عندما طلب هذا الطلب. كل ما كنت أعرفه هو أن عمتي وافقت، وأنهم اصطحبوني معهم إلى منزل جدتي لأخذ مقاسات ثوبي.

إذا كان الحب هو الذي يحيل الطفل جميلًا، ومحبة الأبوين هي التي تحيل خديه حمراوين متوهجين، فإن افتقاري إلى هذين الشيئين كان يفسر وقتها سبب شحوب وجهي الدائم، وارتدائي الملابس الرثة التي يهبها الناس إلى الجمعيات الخيرية، وعدم استحمامي إلا في مناسبات نادرة. فإن كان لدي ولو القليل من الشك بشأن مظهري الرث، فإن التعبير الذي علا وجوه عماتي قد محا مثل هذا الشك تمامًا.

هتفت العمة الكبرى بعد إلقاء نظرة واحدة عليَّ:

- ستحتاج إلى الكثير من الوقت كي تصبح مستعدة. أحضروها لي في المساء الذي يسبق العرس كي نتمكن من تجهيزها. إنها ضئيلة الحجم، ولن أتضرر من وجودها إن باتت في سريري، هذا إن لاحظت وجودها أصلًا!

وعلى هذا، وفي المساء الذي سبق العرس سلموني إلى عمتي الكبرى. وعلى سريرها وجدت ثوبًا جميلًا من الحرير الوردي، ينتظرني كي أرتديه في اليوم التالي.

هتفت عمتي بحماس بعد أن تناولتُ العشاء:

- هيا! إلى الحمام فورًا.

ثم تطلعت لأختها وناشدتها قائلة:

- ساعديني من فضلكِ؛ لا يزال أمامي الكثير من المهام قبل الزفاف.

أخذت عمتي بيدي، وسرعان ما وجدت نفسي أقف عارية بعد أن خلعت ملابسي ووضعتها على ظهر أحد الكراسي. تلا ذلك دخولي الحمام، وهناك وجدت حوضًا أبيض ضخمًا مملوءًا بالماء والصابون الذي تعلوه الفقاعات. همست عمتي الشابة بلطف لم أعهده:

- هيا يا ماريان، ادخلي في الحوض.

تجمدت مكاني خائفة. كان الحوض صخمًا بالنسبة إليَّ، وظننت أنني سأغرق فيه حقًّا. لكن ذراعَيْ عمتي القويتين حملتاني كدمية ووضعتاني فيه. بعدها بدأت عمتاي تفركان الصابون على وجهي ورقبتي وجسدي، والشامبو على شعري، ثم أمرتني عمتي الكبرى بإغلاق عيني، ودفعتني إلى الوراء. وسرعان ما سقط رأسي في الماء، فرفعت ساقيَّ ورحت أرفس بهما مستنجدة! كان الصابون يملأ فمي وصوت الضحكات يتناهى إلى أذنيَّ جليًّا. كنت أختنق بصدق، لكنني بسرعة وجدت من يرفعني إلى السطح.

حذرتني عمتي:

- هذه المرة ابقي فمكِ مغلقًا وعينيكِ كذلك.

ثم وجدت نفسي تحت الماء مرة أخرى.

هتفت عمتي الشابة تقول:

- يا لها من مهرة صغيرة هذه الطفلة! أتساءل إن كانت بلغت هذا المستوى من النظافة قبل هذا اليوم!

وسمعتُ العمة الكبرى تجيب أختها:

- كان بإمكاننا تقشير الأوساخ من على وجهها تقشيرًا! ما الذي تفعله أمها بها بحق الله؟

- حمدًا لله أن شعرها خالٍ من القمل، وإلا لم أكن لأشاركِ قط في تفليتها.

كانت المرأتان تتحدثان عني أنا. أزال شعوري بالحرج سعادة هذا اليوم من قلبي. وفجأة قيدتني الذراعان اللتان كانتا تمسكان بي. أضحت

الضحكات الودود أقرب للسخرية، والتعليقات أقرب للانتقادات. أخذت أتلوى احتجاجًا محاوِلة التملص منهما.

هتفت عمتي عندما رأت انزعاجي:

- آه، هيا يا حلوة، لا تخجلي. نحن كلنا فتيات هنا، وسنقضي الليلة معًا، أليس كذلك؟

قالت كلتاهما:

- بالتأكيد.

وفجأة وجدت نفسي فوق ركبة إحداهما، ملفوفة بمنشفة بيضاء ناعمة، وهناك ذراعان تحيطان بي. وضعت إحداهما قطعة من الحلوى في فمي، وفركت شعري سريعًا مرة أخرى، ثم مشطته بعناية مزيلة أي تشابكات، ثم لفت شعري البني الفاتح وهو لا يزال مبللًا في شرائط من القماش وثبتته بإحكام فوق رأسي.

قالت العمة الكبرى:

- لا تفكيه يا ماريان. ستكونين رائعة في الغد، بشعر جميل مرتَّب، ووجه مشرق.

وهتفت الأخرى تؤيدها:

- نعم أيتها الصغيرة المميزة، ستكونين جميلة مهندمة.

قالت أختها ناصحة:

- لا تنامي واضعة رقبتكِ أو رأسكِ على الوسادة! ولا تحاولي فك هذه الشرائط.

لكني مع كل هذه الإثارة لم ألحظ أي انزعاج بسببها بينما كنت أحاول النوم. كانت آخر أفكاري قبل أن أغط في نوم عميق هي أنني سأرتدي في الغد ثوبًا جديدًا جميلًا وسأكون طفلة مميزة.

في صباح اليوم التالي، وفي غرفة النوم حيث كانت وصيفات العروس يتدافعن لرؤية أنفسهن أمام المرآة، فكَّت عمتي الصغرى الشرائط من شعري، ومشطته برفق، ثم لفته بنعومة. بعدها كان عليَّ ارتداء ملابس داخلية وردية جديدة، وجورب أبيض، وحذاء أسود لامع. بالكاد استطعت كبح حماسي عندما ألبسوني ثوبي الجديد الرائع.

أمرتني عمتي:

- أغمضي عينيك يا ماريان.

ففعلت، وشعرت بها ترتب خصلات شعري المتناثرة بعد إلباسي الثوب، وتثبتها في مكانها. ثم وضعت يديها على كتفي بلطف وأدارتني لمواجهة إحدى المرايا الكبيرة.

- انظري يا ماريان، انظري كم تبدين جميلة!

ظهرت أمامي في المرآة طفلة استطعت تمييزها بشق الأنفس. إنها أنا! تطلعت إلى نفسي في المرآة، حدقت جيدًا إلى عيني، فوجدت فيهما نظرة فرحة جديدة عليَّ، جعلت وجهي يتألق بِشْرًا وسرورًا. شعرت بابتسامة عريضة ترتسم على شفتي، لتنافس السعادة المتوهجة في عيني. كان ذلك عندما التُقطت الصورة.

قد يكون حفل الزفاف هو أهم يوم في حياة العروس، لكنني شعرت أنه كان أهم يوم في حياتي أنا. كنت أقف أمام كل مرآة أمر بها لأتأمل صورتي في إعجاب. في نهاية اليوم عدت إلى المنزل في ثيابي الجديدة.

حسبتُ أن عليَّ إرجاعها، لكن عمتي الصغرى أكدت لي بلطف:

- إنها لكِ! احتفظي بها يا ماريان.

تطلعت إليها بسعادة متناهية. انحنت عمتي وأعطتني قبلة، وبينما كنت أستنشق رائحتها التي كانت مزيجًا من الصابون والعطر، عرفت حينها ما كنت أريده. لمدة أربع وعشرين ساعة، بدا الأمر وكأن ستارًا قد أنزل ليفصل بين عالمينا، ويتيح لي الدخول إلى عالمها. كنت أرغب في أن أكون جزءًا من هذا العالم، العالم الذي تمتلئ المنازل فيه بالضحكات، ويرتدي الأطفال فيه ملابس جميلة، ويخبرون الفتيات الصغيرات فيه بأنهن جميلات. أردت الشعور بأنني مميزة مرة أخرى. وقد مر عام كامل قبل أن أشعر بمثل هذا التميز مجددًا. كان هذا حينما قابلت الرجل الذي كان يناديني بسيدته الصغيرة.

# الفصل السابع

لعل أبي احتاج إلى خمس سنوات ونصف بعد ولادتي قبل أن يتمكن من استيعاب فكرة أنه لم يعد أعزب. لم يكن الزواج حالة اجتماعية جذابة بالنسبة إليه بكل تأكيد. علمت حين كبرتُ أن زواج أبوي قد حدث بسرعة، وأنني ولدت بعد أقل من خمسة أشهر من حدوثه. وكلما وقعت عينا أبي عليَّ كان يتذكر على ما يبدو أنني السبب في تحمله جميع المسؤوليات التي لم يرغب فيها يومًا. في كل مرة كان يتطلع فيها إلى وجهي كان يعقد حاجبيه، ويسلط عليَّ نظراته النارية. وقد تعلمت منذ سن صغيرة أن أبتعد عن طريقه بأقصى سرعة ممكنة.

حينما وصل أول أشقائي إلى الدنيا، بدا لي أن ولادة صبي منحت أبويَّ شعورًا بالرضا لم يمنحهما إياه قدومي إلى هذا العالم. كان ينحني على أخي الصغير أحمر الخدين، بل ويهش في وجهه في بعض المناسبات. ولفترة وجيزة، بدت أمي راضية كذلك. إلا أنه بمجرد أن بدأ أخي الصغير في الزحف، أعلنَتْ أمي أن هناك طفلًا آخر قادمًا في الطريق.

قد يكون اقتراب وصول فم آخر بحاجة إلى إطعامه هو ما جعل أبي يبحث عن عمل جديد، أو ربما تسبب سوء خلقه وطبعه النكد في مضايقة صاحب العمل فقرر طرده في نهاية المطاف. لكن بغض النظر عن السبب، استطاع أبي الالتحاق بمزرعة أخرى، كانت الأجور فيها أعلى والأكواخ أكبر. أعلن أبي على مائدة العشاء ذات يوم:

-    لقد حصلت على وظيفة جديدة. (ثم أطلعنا على اسم المزرعة التي سيعمل بها، واستأنف موجهًا حديثه لأمي) هذا يعني أننا سنغادر هذا الكوخ، وأن عليكِ البدء في تجهيز أغراضنا.

كان هذا هو كل ما أخبرنا به. لم تسأله أمي سوى عن مكان منزلنا الجديد.

قبل مجيئي إلى هذه الدنيا، وفي مثل هذا الموقف، كانت أمي ستستفسر عن المزيد، لكن سنوات الزواج السبع كانت قد تركت أثرها عليها، فأصبحت لا تكترث كثيرًا بأمورها الشخصية، ولا تبالي مثقال ذرة بما يحدث حولها.

كانت معاقرة زوجها للخمر، والعنف المتكرر، ووطأة الفقر، وافتقارها التام للاستقلالية -حيث يسيطر أبي على المال القليل الموجود- قد جردوها من شبابها وثقتها بمرور السنوات.

ولهذا فوجئت بها خلال الأيام القليلة التي سبقت انتقالنا، حينما أبصرت السعادة جلية على ملامحها. كانت تبذل جهدها في وجبة المساء، وتهش في وجه أبي. وسرعان ما أخبرتنا أنها ذهبت في نزهة لتفقد منزلنا الجديد، فوجدَتْه أجمل مما توقعت، كما أبلغتنا بأنها التقت جيراننا الجدد أيضًا.

كان من الواضح أن الجزء الأخير هو الذي أبقى الابتسامة على وجهها.

قالت بينما كانت تضع أمام أبي العشاء المكون من الحساء والبطاطس:

-    الجيران يبدون لطفاء للغاية.

كان رده الوحيد هو رفع شوكته والبدء في الأكل.

-    صدقًا، إنهم شديدو اللطف.

بيد أن كلماتها بدأت تفقد معناها أمام لا مبالاته. ولعلي أدركتُ حينها الوحدة التي كانت تعانيها أمي بشكل شبه يومي. كانت تظل وحدها في المنزل لساعات لا يؤنسها سوى راديو باكلايت، تملكه الشركة أيضًا. كانت أمي تتوق إلى وجود شخص بالغ تتحدث معه. في ذلك المساء سمعتُ نبرة الأمل واضحة في صوتها، الأمل في أن يصبح لديها صديقة جديدة، وفي أن تكون قادرة على التحدث مع شخص آخر غير طفليها أو زوجها النكِد.

بعد أسبوعين، وعندما انتقلنا إلى منزلنا الجديد، بدا لي أن رغبة أمي على وشك التحقق.

# الفصل الثامن

قبل أسبوع من مغادرتنا الكوخ الصغير الذي كرهته أمي من كل قلبها، ساعدتها بقدر استطاعتي على حزم ممتلكاتنا الضئيلة. عبّأنا أدوات المطبخ المعدودة في صناديق من الكرتون، التي لم تكن مناسبة لحجمها، فأطلت أجزاء منها من الصناديق. كما حشرنا الفُرُش في أكياس وسائد قديمة مبقعة، والملابس في حقيبتين متقشرتين مستعملتين.

طلبت مني أمي وضع دُماي في الصندوق الكرتوني، إلا أنني رفضت بشدة. كانت لدي مجموعة كاملة من الدمى المصنوعة من الخرق، بالإضافة إلى دميتي المفضلة بليندا ذات الشعر الأشقر، والتي جاءتني هدية من عمتي. قمت عوضًا عن ذلك بلف كل واحدة منها بعناية في قصاصات الورق أو القماش التي عثرت عليها، ووضعتها في حقيبة بنية أبيت تركها من يدي ولو للحظة.

في صباح يوم رحيلنا، وصلت سيارتان يقودهما صديقان لأبي، الأولى كانت سيارة أرجوانية في حالة سيئة، والثانية شاحنة بيضاء على القدر نفسه من السوء. ركبنا أنا وأمي وأخي الصغير السيارة، بينما صعد أبي فوق الشاحنة إلى جوار ممتلكاتنا المتهالكة. كنت لا أزال أقبض بيدي كلتيهما على حقيبة الدمى الثمينة.

في أثناء جلوسي في السيارة، رحت أتساءل عما سيبدو عليه بيتنا الجديد. أخبرتني أمي عن الزوجين اللذين قابلتهما هناك. كان لديهما طفلان صغيران ويعيشون جميعًا في المنزل الريفي المجاور لنا.

أنبأتني أن الطفلين كانا ولدًا وبنتًا، بيد أن أملي خاب بسرعة لما عرفت أنهما كانا أصغر مني بكثير، أصغر من أن أستطيع اللعب معهما.

كان الزوج ميكانيكيًّا، يعمل على صيانة جميع سيارات المزرعة، ولهذا السبب سمح له صاحبها باستئجار منزل ريفي على أرضه. لم تتحدث أمي معه سوى دقيقتين، إلا أنها أكدت لي أن زوجته كانت امرأة ودود للغاية.

وإذ راحت أمي تثرثر عن جيراننا الجدد بحيوية لم أسمعها في صوتها قط، رحت أتأمل بفضول مناظر الطبيعة المتتابعة لمدينة إسيكس. في البداية شاهدت مزارع ضخمة وحدائق غناء جميلة، وبعدها ظهرت مجموعات من المنازل الريفية لعمال المزارع، كانت حدائقها غير مشذبة، وأسوارها الخشبية مكسورة. ثم مررنا على طريق طويل اصطفت على جانبيه شجيرات الورود الملونة والأسيجة النباتية، وشاهدت الأبقار ترعى هناك بسلام. ولما رفعت عنقي لرؤية المزيد، أبطأت السيارة من سيرها، فعلمتُ أننا وصلنا.

فوق ما بدا لي حقلًا كبيرًا أكثر منه حديقة، رأيت منزلين من الطوب الأحمر، وقد طُليت أبوابهما ونوافذهما حديثًا، وفُرش أمامهما الحصى. كان المدخل متسعًا بما يكفي لركن السيارتين.

حولت بصري إلى الكوخ المجاور، فوجدت أصصًا من الزهور على العتبة الأمامية، وستائر فاتحة اللون على النوافذ، ودخانًا يخرج من المدخنة، وأرجوحة متينة مثبتة فوق العشب.

عندما فتح أبي باب منزلنا الريفي وجدتُ رائحته نظيفة ومرحبة. كان هناك موقد أسود لامع في نهاية غرفة المعيشة ذات الأرضية الحجرية. أما الجدران، فكانت مغطاة بورق حائط منقوش بالأزهار

الجميلة المتفتحة، وعندما دخلنا إلى المطبخ وجدنا حوضًا أبيض اللون يلمع من النظافة.

بدأ أبي وصديقاه في تفريغ الشاحنة، وقد انتهوا من ذلك في دقائق معدودة. ثم حملوا السريرين إلى الطابق العلوي، وكدسوا باقي أشيائنا في كومة في وسط الغرفة. وأخيرًا أنزلوا دراجة أبي وركنوها على الجدار الخارجي.

كان أخي تعبًا ونكد المزاج، فوضعته أمي في عربة الأطفال، ولحسن الحظ أغلق الصغير عينيه ونام بسرعة.

سألَتْ أمي بابتسامة مشرقة:

- أهناك من يرغب في كوب من الشاي؟

هتف أحد الرجلين دون أن يتقدم بأي عرض للمساعدة:

- شكرًا لكِ يا عزيزتي، فلنرجئ هذا للمرة القادمة.

ثم شاهدنا السيارتين تبتعدان عن المنزل. هتف أبي:

- لقد فعلتُ كل ما بوسعي. سأمرُّ الآن على الحانة وأشتري للرجلين كوبين من الجعة لأشكرهما. إنهما يريدان تقديمي إلى بعض الزبائن المعروفين هناك، بعد أن صرت من سكان المنطقة. ماريان كبيرة بما يكفي لمساعدتكِ الآن. وعلى أي حال، فإن ترتيب الأثاث والأغراض هو من عمل النساء.

قبل أن تتاح لأمي فرصة للاعتراض، صعد أبي فوق دراجته، وقادها في الاتجاه نفسه الذي سلكه صديقاه.

وضعتُ حقيبة الدمى بعناية، وألقيت نظرة خاطفة على أمي، فوجدتها تحدق بأسى إلى الاتجاه الذي اختفى فيه أبي.

تهدل كتفا أمي في يأس وتنهدت بقوة وهي تفكر في جميع المهام التي تنتظرها دون أن يكون هناك من يساعدها عدا طفلة في السابعة. تلاشت الحيوية والأمل من فوق وجهها، ولم أعد أقرأ على ملامحه سوى الهزيمة.

هتفت أمي قائلة:

- يا إلهي! بأي شيء نبدأ؟

حدقتُ إلى الغرفة بعجز ولم أستطع الإجابة. ثم هتفتُ أخيرًا دون أن أدري بأي طريقة أستطيع تنفيذ وعدي:

- سأساعدكِ يا أمي.

بمجرد أن خرجت الكلمات من فمي، سمعت صوت خطوات على الحصى، ورأيت ابتسامة خفيفة ترتسم على وجه أمي. نادى صوت يقول:

- مرحبًا بكم.

وجدنا امرأة شقراء طويلة، شعرها مرفوع في كعكة أنيقة، ترتدي حذاء عصريًا مرتفع الكعب على الرغم من أننا على بعد ميلين من المدينة.

نزلت على ركبتيها وابتسمت لي، وقالت:

- مرحبًا. أنا دورا. أعيش في البيت المجاور.

وكانت إضافة غير ضرورية؛ إذ إنه لم يكن هناك سوى منزلينا في تلك البقعة. ثم أضافت المرأة:

- لا بد أنكِ ماريان.

ابتسمت لها وأومأت برأسي بحماس. استدارت دورا نحو أمي وقالت:

- أعرف كيف يكون الأمر صعبًا في يوم الانتقال.

دون أن تشير إلى حقيقة أننا تُركنا دون مساعدة. ثم ربتت بخفة على كتفها وتابعت:

- أتوقع أنكِ بحاجة إلى استراحة قبل البدء. فلتأتِ معي إلى منزلنا لتناول كوب من الشاي. إنه جاهز بالفعل.

ألقت أمي نظرة كئيبة على الصناديق والحقائب المنتشرة على الأرض، وقبلَتْ عرض دورا بامتنان. وهكذا دفعتُ عربة الأطفال وتبعتُهما إلى الباب الأمامي للمنزل الآخر، والذي كان يقود إلى غرفة المعيشة مباشرة، مثله مثل باب منزلنا.

كان هناك ركن كبير للعب يأخذ ثلثي مساحة الغرفة تقريبًا، وداخله رأيت طفليها يلعبان بسعادة بمكعبات كبيرة ملونة، وقد تناثرت المزيد من الألعاب على مسافة قريبة منه.

علقت ضاحكة:

- إنها قطعة الأثاث الأكثر فائدة لي!

ثم توجهت بالحديث إلى أخي الرضيع، الذي استيقظ وبدا على استعداد للصياح:

- تعال إليَّ أيها الرجل الصغير.

وسرعان ما حملته، وقبل أن يتمكن من التعبير عن احتجاجه، راحت تأرجحه في الهواء، ونجحت في إخراج بضع ضحكات منه، ثم وضعته بسرعة في ركن الأطفال مع طفليها. أعطت دورا أخي سيارة خشبية فنسي أمر البكاء تمامًا، ومد يديه الصغيرتين السمينتين وأمسك بها. ابتسم إلينا جميعًا ابتسامة عريضة بفم خالٍ من الأسنان قبل أن يحول انتباهه إلى لعبته الجديدة.

قالت بحكمة:

- حسنًا، هذا سيبقيه هادئًا.

وأشارت إلى أمي كي تجلس. وفجأة ظهر أمامي طبق مملوء بالكعك المغطى بالكريمة، وضعته الجارة أمامنا على الطاولة. هتفت دورا متعجبة حينما لاحظت أنني أستطيع بالكاد تحويل عيني عنه:

- كُلي يا ماريان.

لم أحتج إلى مزيد من التشجيع، مددت يدي واخترت واحدة وردية اللون، زُينت بكرات فضية صغيرة. منحت الجارة الصغار الثلاثة البسكويت والعصير، وسكبت كوبين من الشاي الحلو الساخن لي ولأمي.

للمرة الأولى في ذلك اليوم رأيت أمي تسترخي. مرت ساعة بسرعة والمرأتان تثرثران بسعادة مع بعضهما بعضًا. قدمت الجارة المزيد من البسكويت للصغار، واستمر الأطفال الثلاثة يلعبون بمرح. أما أنا فقد سليت نفسي بتناول المزيد من الكعك خلسة، وتصفح إحدى المجلات النسائية التي وجدتها. لم أستطع وقتها القراءة إلا أنني رحت أشاهد الصور. نادرًا ما كانت تظهر وسائل تسلية كهذه في منزلنا.

حين قررنا العودة -وإن كانت على مضض- قالت دورا لأمي:

- اتركي الطفل معي، سيكون من الأسهل بكثير ترتيب الحاجيات إذا خف عبؤه عنكِ.

ووافقت أمي على هذا العرض الرائع دون أي اعتراض. لقد بدأَتْ بالفعل في تكوين صداقة جديدة وطموحٍ.

# الفصل التاسع

بعد أسبوع من انتقالنا، دعت أمي دورا إلى تناول الشاي. قال أبي غاضبًا:

- لا أعرف ما الذي تثرثر بشأنه النساء طيلة الوقت، وبخاصة وأنتما تريان بعضكما كل يوم. على كل حال، أنا ذاهب إلى الحانة بعد العمل، وسأعود على العشاء.

وبهذه الكلمات غادر ورأيت الراحة جلية على وجه أمي.

في ذلك اليوم كانت تدندن بأغنية سعيدة. أتصور أنها كانت تفكر في حياة أخرى خارج تلك الأسوار الأربعة. لا بد أنها كانت تحلم بالتسوق مع صديقتها الجديدة، وقضاء العصر في السينما مثلًا، أو تناول القهوة معًا في الصباح. في ذلك اليوم لم تسمح أمي للحقيقة بإفساد هذا الحلم، وتناست حقيقة افتقارها الكامل للمال.

في عصر ذلك اليوم الربيعي الدافئ، أرسلتني أمي للعب في الخارج. كان أخي الصغير يلعب داخل ركن أطفال مرتجل، مصنوع من الورق المقوى بالإضافة إلى حاجز حديدي. من الواضح أن أمي لم تكن تريدني أن أزعجها أنا أيضًا. كانت أمي قد جعلتني أغسل وجهي ويدي في وقت سابق، ثم ألبستني ثوبًا نظيفًا وجدته في ذلك الأسبوع في محل ملابس مستعملة. وقالت لي:

- لدينا زائرة يا ماريان. غير مسموح لكِ بالتجول أو تلويث يدكِ أو ملابسكِ.

أطعتها راضية، فرائحة خبز الزنجبيل القادمة من الفرن أسالت لعابي، وكنت أعلم تمام العلم أنني لن أذوقه لو عصيتها.

وجدت كلب الراعي الألماني العجوز، الذي كان يجيء لزيارتنا أحيانًا من المزرعة، غافيًا عند الباب الخلفي. كان الذباب يطير حول رأسه ويستقر بعضه على أنفه، ولكنه، عدا نفض جسده من آن لآخر ليهشه عنه، كان يرفض النهوض أو الاستيقاظ. أما الدجاجات القليلة التي كانت تزودنا بحاجتنا اليومية من البيض، فكانت تتقافز أمامي وتخمش الحصى بحوافرها، وأعينها الشبيهة بالخرز تنقب في الأرض عن أي طعام.

جلستُ بهدوء شديد على كرسي صغير أستمتع بدفء الشمس وأراقب طيرًا صغيرًا يتعلم درسه الأول في الطيران. لقد اكتشفت هذا العش بعد يوم واحد من انتقالنا إلى المنزل الجديد. سمعت بعض الخشخشة، فتطلعت عبر السياج، ورأيت عشًّا مصنوعًا من مجموعة من الأغصان والسيقان المتشابكة، تسكنه عدة طيور صغيرة. وبعناية أبعدت الأوراق التي كانت تخفي العش عن الأنظار، ورأيت الأم تعود فيما بعد لإطعام صغارها. ومنذ ذلك الحين بدأت أجلس كل يوم في ذلك المكان، وأراقب الأسرة الصغيرة اللطيفة، آملة أن أكون موجودة لمشاهدة هذا الحدث على وجه التحديد.

في ذلك اليوم الدافئ، شاهدت الطيور الصغيرة وهي تنفش ريشها في الهواء، كنت حريصة على الجلوس ساكنة بقدر الإمكان، كيلا أخيفها، لدرجة أنني غفلت تمامًا عن تلك العينين اللامعتين المثبتتين على فريستهما، وذلك اللسان الذي كان يلعق الشفتين المفترستين، وقد ارتعشت السفلى منهما من فرط الاستثارة واشتهاء القتل. كنت غافلة تمامًا عن الخطر الذي يتربص بنا.

لم أشعر بأي حركة، أو أسمع أدنى صوت للخطوات الرشيقة التي اقترب بها المفترس. لم أَعِ أنه موجود إلا عندما قفز؛ إذ شعرت بأنفاسه الساخنة على بشرتي.

سمعت صيحة طائر تقطع نياط القلوب، ولاح أمام عيني المرتاعتين بعض الريش المخضب بالدماء. رحت أصرخ وأصرخ، وسرعان ما رأيت أمامي قط المزرعة، يلتصق بفمه ريش أبيض ملطخ بدم أحمر قانٍ. كان فراء القط منتصبًا، وبدا عليه اشتهاء واضح للقنص والقتل. قوس القط ظهره وحملق في وجهي بشراسة. لم تظهر عليه حينها أي علامة تذكرني بقط العائلة الأليف، ذي الفراء الناعم الذي طالما أحببت تمسيده. لم يبدِ القط ندمًا عندما استدار نحو الشجيرات وهو يقبض على طير صغير بفمه.

في تلك اللحظة، كانت الأم راقدة في التراب، في فوضى مؤلمة من الريش والدماء، تتطلع إليَّ مباشرة بعين واحدة، بنظرة وجدت فيها عتابًا صريحًا على تخاذلي في إنقاذها. ثم أبعدت الأم عينها عن وجهي ببطء وحدقت إلى الفراغ. وعدت أصرخ من جديد.

هرعت أمي إليَّ مسترشدة بصوت صراخي. كان المخاط يسيل من أنفي، والدموع تنهمر من عيني وتسيل في خطوط واضحة على خديَّ. أشرت إلى الجثة الصغيرة بيد مرتعشة، وعلا صوت نحيبي. ثم هتفت من بين شهقاتي أقول:

- انظري! انظري يا أمي ماذا فعل القط.

قالت أمي:

- بربكِ يا ماريان، كفي عن هذا الضجيج، وهلمي إلى المنزل.

ثم جذبتني من ذراعي، لكني أفلت ذراعي من يدها بغضب. وعندها شاهدنا سيارة قادمة إلى الساحة. من خلال دموعي رأيت رجلًا نحيفًا ذا شعر داكن يترجل منها قادمًا نحونا.

كانت الكلمات الأولى التي سمعتها منه تقول:

- لمَ تبكي فتاة جميلة مثلك؟

كنتُ غير معتادة على الكلمات الرقيقة، وتطلعت إلى وجهه للمرة الأولى. رأيت عينين بنيتين دافئتين يلوح فيهما القلق بسبب انزعاجي. ابتسم لأمي، ثم مد يده إليَّ وقال:

- تعالي، لدي شيء سيجعلك تشعرين بتحسن على الفور.

ودون تردد وضعت يدي الصغيرة في يده. رفعني بلطف وأجلسني فوق سيارته السوداء الكبيرة.

فتح الباب، وأخرج كيسًا من حلوى دوللي الملونة من تابلوه السيارة، ووضع بعضها في يدي.

أعلن الرجل الغريب:

- كنت أعرف أنها الحلوى المفضلة لديكِ.

حدقت إليه، شاعرة بثقة فورية لا يشعر بها إلا طفل ساذج. سألت نفسي: كيف عرف هذا؟ كيف أمكن له أن يعرف على الرغم من أنه لم يرني من قبل؟ بدأت صورة الطائر النافق تتلاشى سريعًا من ذهني، سرت مع الرجل إلى مطبخ أمي تاركة يدي الخالية في يده.

جلس الغريب على أريكتنا، فتمسكت بذراعه شاعرة بالحاجة إلى الاقتراب منه أكثر وأكثر.

أخبرني بهدوء ماسحًا برفق بقايا دموعي بمنديل أبيض نظيف:

- هذا هو ما تفعله القطط يا ماريان، إنها تصيد الأضعف منها وتقتله. هذا جزء من طبيعتها ولا يمكننا تغيير ذلك أبدًا. نعم يا فتاتي، لا يمكننا أبدًا تغيير طبيعتنا.

أومأت برأسي. كنت أصغر بكثير من أن أفهم معنى ما يقوله.

وضع ذراعه بخفة على كتفي، وقربني منه، وقال بصوت هامس:

- ها هي ذي سيدتي الصغيرة المؤدبة.

# الفصل العاشر

ارتعدت وأنا أستعيد تلك الذكريات.

فكرت في الرعاية التي أوليتها لولدَيَّ وهما يكبران. لم أتمكن قط من أن أكتفي بنصحهما وتحذيرهما من التحدث إلى الغرباء. عوضًا عن ذلك، كنت أتفحص كل صديق من أصدقاء زوجي بريبة، وكل جار من جيراننا بحذر مبالغ فيه، وكلما تحركت يد للمس رأس أحد الولدين بود، يصحبها تعليق هامس لطيف على غرار: يا له من صبي مهذب! كان جسدي يتصلب ومعدتي تتشنج.

كنت أولي عناية مفرطة للدعوات التي كانت توجه لولديَّ لزيارة منازل أصدقائهما، وأسأل مرارًا عما إذا كان أبوا هذا الصديق أو ذاك سيكونان حاضرين.

هتف ابني متذمرًا بعدما نفد صبره من فرط حذري وكثرة أسئلتي: «لا تبالغي إلى هذا الحد يا أماه. صدقيني، نحن نعلم جيدًا أننا لا ينبغي لنا أخذ الحلوى من الغرباء».

في تلك الأحيان أعود وأتذكر تلك الفتاة الصغيرة الضعيفة التي كنت عليها ذات مرة، وذلك الرجل الذي كان يبحث عن طفلة محرومة من الحب، وكيف اكتسب ثقتها بوده ولطفه المصطنع، قبل أن يسيطر عليها بالترهيب والتهديد.

بأي وسيلة أخبر ابنيَّ أنني لم أكن خائفة من الغرباء في واقع الأمر؟

***

كان منزلنا الجديد أبعد مسافةً عن مدرستي إذا ما قارنته بالكوخ القديم. استغرق الأمر ما يقرب من الساعة للذهاب إلى محطة الحافلات مشيًا، لكنني لم أكن أمانع حقًّا. لقد أحببت المكان الذي كنا نعيش فيه، أحببت أنه كان نظيفًا، وأن أمي بدت فيه أكثر سعادة. بل إن أبي بدا لي أقرب إلى الرضا.

انتقلنا إلى ذلك المنزل الجديد في الربيع، وفي الأسابيع القليلة الأولى كانت الشمس مشرقة، واستطعت أن أشتم رائحة الصيف القادم في الهواء، الصيف الذي كان يعني أسابيع طويلة من الإجازة، أسابيع طويلة بلا مدرسة. بيد أنه عندما اختفت الشمس الغادرة وراء الغيوم المظلمة، وهبت الرياح عاتية عبر الحقول، إلى درجة جعلت الأشجار تتمايل وأوراقها تتساقط، بدت الطريق أطول والبيت أبعد. حينها كنت أرتجف، لا بسبب البرد وحده؛ إذ بدأ الخوف يستولي عليَّ أيضًا.

في أحد تلك الأيام الكئيبة، كان المطر يهطل على رأسي ورقبتي، وامتلأ حذائي بالماء، وحقيبتي أصبحت أثقل مع كل خطوة أخطوها. وفجأة سمعت صوت سيارة تتباطأ من خلفي.

عندما تنحيت إلى جانب الطريق، مفسحة المكان للسيارة كي تمر، سمعت صوت المحرك يتباطأ أكثر وأكثر إلى أن توقفت السيارة، وبخوف متأصل بداخلي، أدركت فجأة إلى أي مدى كان الجو مظلمًا والمنزل بعيدًا.

ثم سمعت صوتًا يهتف:

- لا يمكنني أن أدع سيدتي الصغيرة تبتل بهذه الطريقة، أليس كذلك؟

تجمدت مكاني لثانية. على الرغم من أن أحدًا لم يفسر لي السبب، فإنني لم أكن أتحدث مع الغرباء قط.

فقد قاطعتني أمي عندما سألتها وقالت:

- اسمعي الكلام يا ماريان، ولا تكثري الأسئلة.

بيد أنني كنت أعرف صاحب ذلك الصوت؛ كان صوت الرجل الذي يسكن في المنزل المجاور.

وعاد الرجل يقول:

- هيا تعالي واصعدي.

ولم أكن بحاجة إلى مزيد من الإقناع كي أهرب من زخات المطر، وسرعان ما أطعته وصعدت إلى السيارة.

ظهرت أمامي منشفة صغيرة. بدأ الرجل في فرك شعري بسرعة ثم أعاد المنشفة إلى مكانها بلطف. بعدها أخذ يدي المحمرتين من البرد بين يديه الدافئتين الكبيرتين، وقال بلطف:

- ستشعرين بالدفء قريبًا، ستصبحين مثل رغيف خبز محمص.

ثم نفخ في يدي لعدة مرات قبل أن يبدأ في فرك أصابعي بلطف.

وتبع ذلك بأن فتح تابلوه السيارة، وأخرج أنبوبًا أصفر من حلوى عرق السوس. أخبرني الجار وهو يغمز بعينه:

- إنها لكِ. أخبرني طائر صغير بأنكِ تحبين هذه الحلوى مثلما تحبين حلوى دولي الملونة.

رحت ألعق الحلوى بنهم، وغطست في مقعدي شاعرة بالدفء والراحة. كانت رحلة وصولي إلى المنزل أسرع من اللازم هذه المرة.

في اليوم التالي وعدتنا الغيوم السوداء بمزيد من المطر، ووجدت الجار ينتظرني عند بوابة المدرسة. رأيت الأطفال الآخرين يحملقون في سيارته، وشعرت بصدري ينتفخ فخرًا. لم يقتصر الأمر على وجود شخص في انتظاري، فلقد كان يقود سيارة سوداء كبيرة أيضًا.

قال الجار لأمي وهو يدخلني إلى المنزل:

- لا يمكنني تركها تموت من البرد.

هتفت بامتنان:

- هذا لطف منك. (ثم التفتت إليَّ وتابعت) قولي شكرًا يا ماريان.

فشكرته بحرارة.

وخلال جميع الأيام التالية كنت أتمنى هطول المطر، لأنني كنت متأكدة أنني سأجده ينتظر.

# الفصل الحادي عشر

بحلول الوقت الذي بلغت فيه سن السابعة، بدأت أفهم أن القذارة ليست شيئًا مقبولًا أو مرغوبًا. كانوا يطلبون مني في المدرسة باستمرار أن أمسح عنقي، وأنظف الأوساخ المتراكمة تحت أظافري، وأغسل شعري. حاولت تنظيف نفسي بنفسي، بيد أن المرآة التي يستخدمها أبي للحلاقة كانت مرتفعة بشدة، ولم أستطع رؤية نفسي فيها. كنت أعلم أن ملابسي لا تنال حقها من الغسيل، وأن شعري كان دهنيًّا يحتاج إلى عناية خاصة. وحينئذ بدأت دورا في مساعدتي.

عندما شكوت لها من أن حوض الاستحمام نادرًا ما يظهر، وأنني أواجه مشكلات في المدرسة قالت بلطف:

- والدتكِ مشغولة بشؤون أخيكِ الصغير. يمكنكِ الاستحمام هنا يا صغيرة.

وهذا هو ما بدأت في فعله، مرة كل أسبوع. أعطتني دورا صابونًا ذا رائحة جميلة، وبودرة تلك، وعندما أخبرتها أنني أبغض تغيير ملابسي في حصة الألعاب بعدما صار لباسي الداخلي رماديًّا قذرًا، اشترت لي واحدًا جديدًا.

وقد أخبرَتْ أمي عندما احتَجَّت:

- إنها مجرد هدية. ماريان تساعدني كثيرًا في العناية بالطفلين، فوجدت أنني لا بد أن أوفيها ولو بعض حقها.

أحببت الشعور بالنظافة، وفرحت لما وجدت بشرتي تفوح برائحة الزهور. علمتني دورا كيف ألف شعري بالشرائط، وأضافت:

- قومي بفكها وتمشيط شعركِ في الصباح، وستبدين جميلة ومختلفة.

ومن وقتها، بدأت أذهب إلى المدرسة كل صباح بشعر مموج، ووجه مغسول نظيف، وابتسامة آملة في أن يحبها أحدهم الآن. توقف المدرسون عن الشكوى من مظهري البائس، لكن الأطفال كانوا لا يزالون يرون ثيابي الباهتة وحذاء ويلينجتون البالي، واستمروا في تجاهلي.

حلت عطلة عيد الفصح، ووُلدت أختي، ومرة أخرى رأيت والديَّ يمطران فردًا جديدًا من الأسرة بالحب والعطف. هذه المرة كانت أمي مستنزَفة بسبب متطلبات الطفلة الجديدة، وبدا لي أنها لا تحدثني إلا لتطلب مني أن أفعل لها شيئًا. كانت هناك مناسبات نادرة أعتز بها بدت أمي فيها أقل تعبًا، كانت تبتسم فيها وتمسد شعري بأصابعها، وتقول:

- أنت فتاة جيدة يا ماريان.

وكان هذا الفُتات من الثناء كافيًا لرسم ابتسامة على شفتي.

ولكن في أغلب الأحوال، وبعد أن كنت أساعدها قدر استطاعتي، كنت أسمعها بالكاد تتمتم بكلمة شكر قبل أن تعود بسرعة لإكمال المهمة التي في يدها.

أصبحت مهمتي هي الاعتناء بأخي، وكان قد بلغ السن التي يدس فيها الصغار أصابعهم في مقابس الكهرباء، ويفرغون محتويات الخزائن غير المقفلة على الأرض، ثم يضعونها في أفواههم المرحِّبة بكل شيء.

أعلنت دورا عندما رأتني أراقبه وهو جالس في عربة الأطفال:

- أحضريه ليلعب مع طفليَّ.

- إنك أشبه بأم صغيرة. (علقت دورا عندما جلستُ بجوار ركن الأطفال، وشاهدت معها أخي الصغير وهو يلعب مع طفليها بسعادة). مكتبة سر من قرأ

كنت أزهو بمديحها، وأشرب عصير القرع البرتقالي الذي تعطيه لي، وآكل البسكويت الذي تشتريه من المتجر، ولكني طوال الوقت كنت أتنصت مترقبة صوت خطواته هو. كنت أرغب في وصوله كي أراه قبل أن أغادر المنزل.

أصبح جارانا هما الأبوان اللذان كنت أتمناهما لنفسي. ولكن على الرغم من لطف دورا معي، لم يكن في خيالي سواه كأب بديل يمكنني اللجوء إليه، وأصبحت مع الوقت فتاة أبيها، أتبعه كجرو صغير وجد شخصًا يمنحه بعض الاهتمام.

كان هو الذي لديه دائمًا وقت للإجابة عن أسئلتي الساذجة.

- لمَ ليست هناك جحور فئران في الحوائط؟ أين يعيشون إذن؟ تقول أمي إنهم سيعودون قريبًا.

كان يجيب بصبر:

- حسنًا أيتها السيدة الصغيرة، في الشتاء عندما يكون الجو باردًا جدًّا، لا يمكن للفئران العثور على الطعام، لذا تتسلل إلى منازلنا وتختبئ. وعندما نأوي إلى الفراش تخرج بحثًا عن الفتات. ولكن قبل أن نستيقظ تختفي مرة أخرى.

سألته:

- أهي في جحورها السرية إذن؟

وتخيلت عائلات من الفئران تتسلل عبر جحورها، منتظرة إيانا كي ننام كي تتمكن من الاستمتاع بوليمة منتصف الليل.

كان يجيب ضاحكًا على فضولي:

- نعم، في جحورها.

- ولمَ تغضب أمي عندما تراها؟

كانت إجابته الوحيدة:

- النساء لا يُحبِبْنَ الفئران.

في أوقات أخرى كان يلعب معي لعبة خيال الظل، فيشكل بيديه على الجدران حيوانات مختلفة كالأرانب والكلاب بل وحتى الخيول. وعندما كنت أتوسل إليه طالبة المزيد، كان يخلع منديله ذا الألوان الزاهية، والذي كان يعقده دائمًا حول رقبته، إلا في حالات نادرة كان فيها يستبدل به رباط العنق، ثم يلفه بطريقته الخاصة، ويصنع به ظلالًا للطيور على الجدران.

أسماهما بيتر وبول، وكان يجعلهما يطيران أعلى وأسفل الجدران. وقبل أن يختفيا عن الأنظار، كنت أشعر بجناح طائر يداعب خدي بلطف. في تلك الأيام، كنت أبتسم للجار بسعادة، وأشعر بوهج الفرح ينتشر بداخلي لِما يمنحني من عناية وحنان.

كنت أستطيع رؤية ورشة عمله من نافذة غرفة نومي. في بعض الأحيان كان يرقد تحت السيارات بالخارج ويصلحها هناك. كنت أنتظر ظهوره، ثم أهرع نازلة الدرج بمجرد أن أراه يبدأ العمل.

كنت أسأل:

- هل أُخرِج ستيفي يا أمي؟ (وأشير إلى أخي بحماس).

كان ردها المعتاد هو:

- نعم، يا ماريان. أريحيني منه قليلًا.

وعلى هذا كنت أمسك بيد أخي الصغيرة السمينة، وآخذه إلى الحديقة، وأنتظر على أمل أن يلاحظ الجار وجودي.

ولم أضطر قط إلى الانتظار طويلًا، وكأن الجار يستشعر وجودي قبل أن يراني، كان يميل برأسه في اتجاهي وابتسامة عريضة تضيء وجهه. كان يناديني:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ماريان، تعالي وساعديني من فضلك.

كنت أفرح باحتياجه إليَّ، أجرجر أخي ورائي إلى هناك، فأحمل له مفتاح الربط أو أعطيه أداة أو أساعده في تلميع الكروم.

لحسن الحظ، كان أخي الصغير طفلًا بشوشًا، حسن الطباع، يمكن شراؤه بسهولة بقطعة بسكويت أو حلوى.

- أيمكن أن تمسحي المقعد الخلفي يا ماريان؟

كان يطلب مني هذا في كثير من الأحيان، وكنت أصعد إلى السيارة مركزة على مهمتي، وأزحف فوق المقعد الأمامي.

- فتاة مطيعة. (كان يهمس في أذني بينما يربت بيده على مؤخرتي).

كان يخبر أمي في كل مرة يزورنا فيها ليطمئن على أحوالي:

- لديك أعجوبة صغيرة هنا.

كانت أمي تجيبه بابتسامة، متجاهلة حقيقة أنه كان يستفيد مني في الوقت الذي كان بإمكاني مساعدتها فيه.

- نعم، لقد كانت ماريان دائمًا طفلة مطيعة. لم تسبب لي أي مشكلة.

كان تقبُّلها الساذج لاهتمام الجار المبالغ فيه هو الذي قرر مصيري من البداية. لعل امرأة أذكى منها كانت لتشكك في دوافعه بسرعة، لكنه كان جارنا الطيب، الرجل الذي ساعد أبي في العثور على وظيفته، والذي منحت زوجته أمي شيئًا كانت تشتهيه دومًا؛ الصداقة التي أنهت أيام وحدتها الكئيبة. لذا، إذا كانت هناك أي بذور شك قد نبتت في صدر أمي، كما تنبت في صدور أمهات كثيرات في الماضي والمستقبل، فإنها اقتلعتها تمامًا.

وأخيرًا أصبح لديَّ شخص في حياتي يعتقد أنني مميزة، ويخبرني أنني جميلة، ويغدق عليَّ بالحلوى، ويستمتع بثرثرتي اللانهائية، وكان هذا هو كل ما يلزم لأسر قلبي الأخضر البالغ من العمر سبع سنوات فحسب.

# الفصل الثاني عشر

كثيرًا ما يمكن لأبسط الأشياء تغيير مسار حياتنا، وقد تغير مسار حياتي في اليوم الذي وجدَتْ فيه القطة البيضاء الصغيرة طريقها إلى منزلنا. بعدها تحول الخوف الذي شعرت به تجاه أبي إلى انعدام ثقة تام، وتضاءل حبي لأمي حينما أدركت مدى ضعفها وخنوعها.

كنت قد وصلت إلى السن التي يرغب الطفل فيها بحيوان أليف. رغبت في شيء يمكنني حمله واحتضانه والعناية به، شيء يمكنني أخذه إلى غرفة نومي ليؤنس وحدتي ويستمع إلى مخاوف طفولتي. فذات نهار لم أعد أجد دميتي كافية لأي من ذلك.

بيد أن أمي رفضت أن تحضر لي قطة صغيرة. حدث هذا بعدما نسيتُ كل شيء عن القط الذي هجم على الأم وفراخها. وكنت أعقل من أن أتوجه إلى أبي بالطلب نفسه. ربما كانت هناك مستعمرة كاملة من القطط في المزرعة التي يعمل بها، والتي لم يبقوا عليها إلا كي تصيد الفئران. ولكني ظللت أتأمل القطط بعينين متلهفتين. كانت القطط هي مَن أردتُ أن أتخذها صديقة، وليست الكلاب الكبيرة التي كانت تقفز عاليًا وتفزعني، وذلك على الرغم من أن القطط بدت لي وكأنها تتطلع إلى عالم البشر بمنتهى الازدراء والبرود.

رأيت القطة البيضاء الصغيرة لأول مرة عندما ذهبت أنا وأمي إلى المزرعة لشراء البيض الطازج. كانت تجلس في الظل وتنظف فراءها بمنتهى التركيز. قابلت عيناي عينيها الخضراوين اللامعتين وعرفت أنها

ليست كالقطط المتوحشة التي كانت تعيش هناك. ذهبت إليها ومسحت على فرائها بلطف، ولفرحتي لم ترفض عطفي عليها، وخرخرت بسعادة بينما رحت أملس على فرائها الحريري.

ربما كانت تعرف أنها كانت مختلفة ولهذا كانت تبحث عن مكان آخر تلد فيه قططها الصغيرة، ووجدت ضالتها في فناء منزلنا الخلفي. كان به كوخ صغير نخزن فيه الحطب، وسقيفة صغيرة مخصصة لتخزين الفحم. ولما كان الحطب يأتينا مجانًا من المزرعة، والفحم يكلفنا مالًا، أصبحت السقيفة كغُرفة اللعب الخاصة بي، والتي قررت القطة أنه المكان المناسب لتسكنه. كنت أهرِّب الطعام إليها وأثني عليها لأنها وجدت مكانًا آمنًا لها، كما صنعت لها مهادًا من الورق والزكائب.

كنت أتوسل لأمي لتعطيني الحليب، وكانت تهتف في كل مرة:

- لا تدعي والدك يراكِ. إنها تنتمي إلى المزرعة. القطة ليست أليفة يا ماريان. عليها العودة إلى هناك. إذا واصلتِ إطعامها فإنها لن تغادر.

وكنت أعترض قائلة:

- لكنها مسكينة جائعة.

وكانت أمي تتنهد وتجيب:

- وظيفتها هي اصطياد الفئران، وإذا لم تجوع فإنها ستتوقف عن الصيد.

وعلى الرغم من ذلك ظلت أمي تتظاهر أنها لا تراني عندما كنت أهرِّب بواقي الطعام إلى القطة. كنت أضع صحن الحليب أمامها وأراقب لسانها الوردي الصغير وهو يلعقه بسرور. كما أعجبتني العناية بتنظيف

نفسها، والطريقة التي كانت تتمدد بها، وأكثر من أي شيء آخر ملمس فرائها تحت يدي، وصوت خرخرتها القوي.

أسميتها سنووي، لكنها لم تعترف بهذا الاسم، ولم تجئ إليَّ قط عندما كنت أناديها به.

كررت أمي بصرامة متجاهلة حقيقة أن سنووي تنام في السقيفة الصغيرة:

- إنها قطة مزرعة.

بدأت سنووي تسمن وعلَّقت أمي:

- إنها حبلى في قطط صغيرة.

لكنها كانت تهز رأسها رفضًا كلما ترجيتها لتسمح للقطة بالدخول إلى مطبخنا والولادة في دفئه.

ولدت في منتصف الليل. وجدتها صباحًا، حيث كنت أنتظر أبي ليغادر إلى العمل، ثم أنسل من المنزل متوجهة إلى السقيفة الصغيرة. وجدت سنووي مستلقية على جانبها، وأربع قطيطات صغيرات ترضع منها، اثنتان مرقطتان، وثالثة بلون الزنجبيل، ورابعة بيضاء كالثلج. وكل يوم وعلى مدار أسبوع كنت أشاهد القطيطات الصغيرة تكبر بسرور.

رحت أتساءل: متى تفتح أعينها يا ترى؟ لم أكتشف ذلك قط. لقد تخليت عن الحذر لشدة لهفتي لرؤية الأسرة الصغيرة. كنت قد نسيت أن أبي كان يعود في أيام السبت لتناول الإفطار. لم يرني ألعب في الحديقة، ولم أكن في المنزل، ولما رأى التوتر باديًا على أمي حينما سألها إن كنت لا أزال نائمة، نهض باحثًا عني.

كنت جاثية بالقرب من القطة البيضاء أمسد على فرائها، ولم أكن أعلم أنه في طريقه إلينا إلى أن سمعت صوته وأبصرت وجهه الغاضب.

صاح:

- ما الذي تظنين أنكِ تفعلينه؟

ودون انتظار لرد، استأنف قائلًا:

- حسنًا، إنها لن تبقى هنا.

سالت الدموع على خدي وأنا أناشده كي يتركها وشأنها.

أجج هذا غضبه، فرفع يده وجذبني من الخلف ورماني بعيدًا عنه.

صاح أبي بشراسة:

- هل تملين عليَّ ما أفعله؟ أنتِ بحاجة إلى درس يا ماريان.

عاد أبي إلى المنزل، وللحظة ظننت أنني ربحت. إلا أنني عندما رأيته يعود حاملًا كيسًا في يده، أدركت ما كان يدور في خلده.

جمع القطيطات بيده الكبيرة مرة واحدة وألقى بها في الكيس وهي تموء بعجز وخوف.

هتف وهو يمسك بذراعي ويدفعني إلى طريق البِركة:

- هذا خطؤكِ يا ماريان.

عند الوصول إلى البركة، مد أبي ذراعيه إلى الأمام ثم فتح الكيس، وأرجح ذراعيه للأمام والخلف كي يفرغ ما به تمامًا.

تأرجحت القطيطات في الهواء ثم تساقطت أمام عيني في الماء، راقبتها بعينين مذهولتين، وصم أذني صياحها ومواؤها الحزين. ظل الصوت يرن في أذني لساعات بعد غرقها.

حاولت سد أذني بيدي، محاولة حجب صوت الأنين بلا طائل. فتحت فمي فخرج منه عواء يائس من شدة الذهول والحزن. انهمرت الدموع على وجهي، وأعمتني تمامًا، وسال المخاط من أنفي وأنا أصرخ مرة بعد مرة: «لا! لا!».

صاح أبي مجددًا:

- عليكِ إيقاف هذا الضجيج الآن.

وضربني ضربة قوية على ساقي. ركضت هاربة منه، وعدت إلى حيث ترقد القطة البيضاء. أردت أن أخبرها بمدى أسفي، بأنني أحببت صغارها من كل قلبي، بيد أنها عندما رأتني أقترب منها اتسعت عيناها الخضراوان قبل أن تستدير وتغادر المكان.

ومن يومها لم تزرني مرة أخرى.

تطلعت أمي إليَّ بعجز وأسى. كنت ألقي عليها القدر نفسه من اللوم. سألتُ نفسي: لماذا لم تدافع عني ولو مرة واحدة؟

في تلك الليلة عندما استلقيت على سريري والدموع تسيل بلا توقف على وجنتي، كل ما استطعت رؤيته هو وجه سنووي الصغير يحدق إلى وجهي قبل أن تختفي تمامًا عن ناظري. شعرت بشيء أقرب للكراهية لأبي في ذلك الوقت. لم يسبق لأحد أن امتدحني، أو أشعرني بالتميز قط مهما كنت مطيعة. كل ما طلبته هو إطعام القطة. فكرت في ذلك اليوم الذي شعرت فيه بالسعادة، الذي انحنيت فيه أحمل الثوب الحريري الجميل من فوق السرير وأخرجه من كيسه، ثم أقربه من وجهي، وأستنشق رائحة السعادة الصاعدة منه بتلذذ. ولكن في تلك الليلة فشل سحر هذه الذكرى في انتشالي من أحزاني. بل إنني شعرت بمزيد من الحزن عند التفكير فيها، وكأنني كنت أتوقع الآتي.

كنت لا أزال أبكي، ونمت وأنا أفكر أنه منذ الزفاف لم يخبرني أحد أنني مميزة سوى شخص واحد فقط.

في صباح اليوم التالي ذهبت بحثًا عن جارنا.

***

استمع الجار بصبر إلى حكايتي الحزينة، لكنه لم يعلق على تصرفات أبي ولم يخبرني بشعوره حيالها. وعوضًا عن ذلك ركع على ركبتيه بحيث أصبحت عيناه على مستوى ذراعي، ووضع يده بلطف على خصري، وأخبرني عن الجنيات التي تعيش بالقرب من البركة، وترعى الضفادع والبطات وبقية المخلوقات الصغيرة الضعيفة، وأكد لي أنها لن تدع القطيطات تعاني.

أوضح لي أنها ستُحمَل فوق أجنحة الجنيات إلى جنة القطط، حيث أنهار الحليب الجارية، والطعام الدائم. هناك القطط والفئران أصدقاء، والشمس مشرقة إلى الأبد.

عزتني كلماته والصور التي رسمها، ولكني لم أسامح أبي، ولم يحاول الجار أن يطلب ذلك.

لقد ربح محبتي يومها، ومهد بذلك الطريق للسيطرة عليَّ. اكتسب الجار سطوته عليَّ بالتدريج، كانت سلطة خبيثة استنزفت قوة إرادتي في نهاية المطاف، وجعلَتْ إرضاءه أهم شيء في حياتي.

بمجرد أن أدرك الجار ذلك، تأكد حينها أنني لن أتحدث أبدًا. بمجرد أن صار واثقًا من خضوعي، بدأ يتغير تجاهي. ولكني لم أكن أعرف هذا في ذلك الحين.

# الفصل الثالث عشر

سمعت الأولاد يتحدثون في المدرسة عن أشياء كثيرة؛ كعطلات نهاية الأسبوع ودراجاتهم وألعابهم والكتب التي بدؤوا في قراءتها، وأيقنت أنني لن أستطيع الحديث عن أكثر شيء أحبه، أو حتى الكتابة عنه عندما طلبت منا المعلمة كتابة مقال عما نحب فعله في أوقات فراغنا.

لم أخبرهم قط أنه عندما كنت أستطيع الإفلات من رعاية أخي أو مساعدة أمي في الأعمال الروتينية، كانت قدماي تأخذانني عبر البوابة وإلى الحقول، حيث الكنوز المخفية عن الأعين الغافلة، ولكن ليس عن عيني.

بمجرد وصولي كنت أبحث بعناية بين الأسيجة النباتية على أمل رؤية عش من البيض الصغير، أو آخر ملآن بالفراخ الصغيرة. وعندما كنت أجد أحدها، كنت أبقى هادئة قدر الإمكان كيلا تفزع الأم فلا تعود. وكنت كذلك أعقل من أن ألمس أيًا من تلك الأعشاش، لأنني لو فعلت ستهجر الأم العش، وتتضور الفراخ جوعًا، وتهلك في نهاية المطاف.

في المدرسة سمعت الأولاد يتفاخرون ببيض الطيور الذي يجمعونه. أردت أن أخبرهم أنهم بذلك يقتلون الطيور الصغيرة، لكني كنت أعلم أنني إذا فعلت سيسخرون مني، أو يجذبون شعري ويدعونني بالمقرفة؛ وهو الأسوأ بالطبع، فكتمت كلماتي في صدري، ولم أخبرهم عن هذا الأمر أو سواه.

في الأيام الحارة التي لم يكن يزعج فيها سلام الريف شيء، كنت أقطف حبات الفراولة البرية الصغيرة التي تنمو تحت سياج الأشجار، وأتمدد على ظهري وأتناولها بكسل بينما أراقب النحل والفراشات وهي تسعى لتحصيل حبوب اللقاح. وذات مرة ألهيت نفسي بمراقبة جيوش النمل وهي تكد بنشاط. كنت معجبة بعمل آلاف النملات التي تعيش في تلك المستعمرة، وأتساءل كيف يمكن لأي كائن آخر غيرها أن يبني مثل هذا المنزل الشاسع مقارنة بحجمه.

إلا أن مكاني المفضل كانْ البِركة.

بعد أيام قليلة من انتقالنا، علمني جارنا كيف أصنع شبكة من قطعة شاش وبضعة أغصان، كما علمني كيف أجمع بيض الضفادع، ومنحني وعاءً لوضعه فيه، وطلب مني مراقبته، لأنه سرعان ما سيتحول إلى شراغيف صغيرة، ستصبح بدورها ضفادع بعد أسابيع قليلة.

وأكد قائلًا:

- يمكنكِ الاحتفاظ بها في سقيفتي.

وبذلك شكلنا تحالفًا وسَّع من تلك الفجوة الهائلة الكائنة بيني وبين أبويَّ.

- راقبي الشراغيف وهي تنمو إلى أن تصبح في حجم مناسب، وحينها سنطلقها.

أضفتُ نباتات من البركة وعدة أحجار صغيرة إلى الوعاء، وخلال الأسابيع الثلاثة التالية شاهدت البيض المنقوط الأسود الصغير وهو يستطيل ويتحول إلى أشكال يسهل تمييزها.

لم تتحول تلك الكائنات الصغيرة الشبيهة بثعابين إلى شراغيف ذات ذيول إلا بعد انتهاء عطلة عيد الفصح. أردت لها أن تشعر بأنها في

منزلها وبأن لديها مساحة للنمو، فاستبدلت بالوعاء الصغير آخر أكبر منه، ووضعت المزيد من النباتات فيه.

وعندما رأينا أنها كبرت بما يكفي لتأمن التهام الأسماك، أخذناها إلى البركة. خلال أيام الصيف الدافئة الأولى، رأيتها تتحول مرة أخرى من شراغيف سوداء ملتوية إلى ضفادع صغيرة بنية خضراء، تقفز، وتسبح، وترقد على الحجارة مستدفئة بأشعة الشمس، أو تستلقي في البركة مختبئة خلف العشب الطويل. وبينما كنت أراقب تلك المخلوقات الصغيرة، رحت أتساءل: ترى أي من هذه الضفادع ساعدنا، أيها أبقيناه لدينا إلى أن كبر بما يكفي ليعتمد على نفسه؟

في البداية، وبعد غرق القطيطات، لم أتمكن من حمل نفسي على الذهاب إلى هناك. كانت صورتها في قبرها المائي جلية تمامًا في ذهني. ولكن بعد أن أخبرني جارنا عن جنة القطط، وأن القطيطات لا تريد لي أن أحزن بأي شكل، شعرت بالتحسن شيئًا فشيئًا، وذهب الأسى عني أخيرًا.

وكان ذلك شيئًا آخر لم أخبر به معلمتي. لم أحدِّث أي شخص عن الأوقات التي كان ينتظرني الجار فيها هناك.

***

عندما حلت العطلة الصيفية أخيرًا وعرفت أنني لن أذهب إلى المدرسة قبل ستة أسابيع كاملة، أصبح كل ما كنت أفكر فيه هي الأيام التي سأقضيها مع جارنا.

وكما لو أن أبي قرأ أفكاري، سرعان ما أخبرني أن عدم ذهابي إلى المدرسة لا يعني أن أعدَّ تلك الأسابيع الستة عطلة أو فرصة للراحة.

في أولى صباحات العطلة، وفي اللحظة التي رآني فيها أفتح الباب وأتخذ أولى خطواتي نحو ما ظننته الحرية وقتها، أعلن بصرامة:

- عليكِ أن تساعدي أمكِ يا ماريان. أنتِ مسؤولة عن أخيكِ. أنت كبيرة بما يكفي الآن لتقديم يد العون.

عندما شكوته إلى جارنا، نفش شعري بلطف، وأعلن أننا سنذهب إلى البركة، وسنصطحب طفليه وشقيقي معنا:

- ستكون مثل نزهةٍ. كما أننا سنرحم زوجتي وأمكِ من إزعاج الأطفال لبعض الوقت.

لم نحتج إلا عربة أطفال صغيرة، قوة كتفيه كانت كافية لنقل الأطفال الثلاثة، وكنت ألحقهم في الخلف، حاملة حقيبة ملأى عن آخرها بالمشروبات الغازية وقطع الكعك والبسكويت.

مرت أيام كنا نجلس فيها معًا، فيريح الجار رأسه على كتفي برفق، ويخبرني كم كان متعبًا.

كنت أسمع صوته يهمس:

- لا بد أنكِ متعبة مثلي يا ماريان بعد ما تقدمينه من مساعدات لأمكِ. استلقي ها هنا، وأريحي رأسكِ على حجري.

وكنت أفعل بكل سرور. في تلك الأيام الأولى كنت أنصت إلى أنغام الريف الصيفية؛ من طنين حشرات، وزقزقة طيور، ورذاذ ماء، وحفيف عشب، وأسترخي تحت لمسات يديه المهدِّئة. كان يربت على ظهري، متتبعًا كل فقرة فيه، ويمسح على رقبتي، ويتخلل بأصابعه خصلات شعري، ويداعب خدي بلطف.

كنا نجلس بالقرب من الصغار الثلاثة، بعد أن نُلبسهم أحزمة الأمان التي تبقيهم سالمين بعيدًا عن الماء، ونعطيهم من الحلوى ما يكفي لملء أفواههم طوال النزهة، وكنت أشعر بالسعادة وأنا أقرب جسدي منه كي أزداد التصاقًا به، يسكرني الشعور بالأمان والرعاية، فأروح أنهل منه بعد طول انتظار.

في أحد تلك الأيام المشمسة الدافئة، اصطحبَتْ أمي ودورا الصغار إلى المدينة، ولم يبقَ سوانا، يومها قبَّلني الجار لأول مرة. كنت أجلس وذراعاي ملتفتان حول ركبتي، ورأسي منحنٍ لأسفل، أتأمل مياه البِركة العكرة آملة في رؤية أي شيء يتحرك.

سألني:

- هل تعرفين كيف تقبِّل الجنيات يا ماريان؟

ضحكت، مثلما تفعل الفتيات الصغيرات عندما يطرح عليهن شخص بالغ سؤالًا محرجًا. ثم أجبت:

- لا.

- أغمضي عينيك وسأريكِ.

أحسست بلمسات بالغة الخفة على خدي، وعندما فتحت عيني رأيته يبتسم لي كاشفًا عن أسنانه البيضاء.

أحاط بذراعه كتفي وجذبني إليه بلطف قبل أن يستلقي على العشب. سألني:

- إذن، هل تعرفين كيف يقبِّل الكبار؟

هززت رأسي علامة النفي. تابع قائلًا:

- هل أُريكِ إذن؟

ثم مسد شعري برفق، وأمسك بذقني وقربني إليه. شعرت بعيني تطرفان، وبينما كان وجهه يقترب أكثر وأكثر من وجهي كان يصير أكبر فأكبر، كاد هذا الوجه الضخم يلتصق تمامًا بوجهي، وقد حجب عني الضوء لبضع ثوانٍ، فلم أعد أرى وجه الرجل الذي أعرفه جيدًا، بل وجه شخص غريب، شخص غريب يخيفني.

وبفمه الذي كان أكبر كثيرًا من فمي أطبق الجار على شفتي، ثم شدني إليه بمزيد من القوة، مثبتًا إياي في مكاني تمامًا، ثم دفعني للخلف، ومال عليَّ ضاغطًا على جسدي الصغير بعنف غير معهود منه. أخذت ألهث بقوة، وخرجت أنفاسي في شهقات قصيرة مذعورة. كنت مُثبَّتة تحته تمامًا، لكني لم أتوقف عن محاولة رفسه بساقي، واستمررت أكافح كي أتحرر من قبضتيه القويتين. تملكني الرعب في تلك اللحظة، رعب لم يستولِ عليَّ وأنا بصحبته من قبل.

وفجأة أطلق الجار سراحي، لا بسبب خوفي فحسب، بل لما رآه مني من نفور كذلك. جلس الجار منتصبًا بعدما مسح فمه بظهر يده.

تجمعت الدموع في عيني وسالت على خدي، فلما رآها مسحها عن وجهي بهدوء، وسألني بصوت خافت:

- ألم يعجبكِ ذلك يا ماريان؟ هذا يعني أنكِ مميزة للغاية بالنسبة إليَّ. ألا تريدين أن تكوني مميزة؟

كانت رقة يده التي تمسِّد رأسي، والدفء المريح المنبعث منه، ونغمة صوته المألوفة كلها أسباب كافية وقتها لتهدئتي، وفجأة أصبح هذا هو كل ما يهم.

أجبته:

- بلى.

ولكن كلينا كان يعلم أنني أجبت عن سؤاله الثاني.

في ذلك اليوم قطعنا شوطًا صغيرًا آخر، اتُخذت الخطوة الأولى، خطوة غيرت الصداقة التي بيننا إلى شيء آخر، شيء أشد قتامة بكثير. ولما استكنت إلى دفء يديه، وصوته المهدئ المطبب، تغلبَتْ عليَّ رغبتي في أن يعتني بي أحد، لكني لم أكن أدرك إلى أي مدى سيصير القادم مظلمًا.

# الفصل الرابع عشر

لطالما وجدتُ الكلمات المكتوبة صعبة الفهم، ولعل مرجع هذا لنشأتي في عائلة لا تشجع على القراءة، ولا تمتلك كتبًا في المنزل. ولكن في سنتي السابعة عندما أرتنا المعلمة رسمة الأرنب بيتر في قصص بياتريكس بوتر، وقرأت علينا مقتطفات من مغامراته، صرت أسيرة لها. لقد افتتنت بتلك الرسوم التي كشفت لي عن عالم سحري كامل فيه مخلوقات ذات فرو وريش، ترتدي ملابس فيكتورية، وتسكن مملكة حيوانات خيالية. ولأول مرة بدأت أركز على كل كلمة في القصة، وأستمع إلى مغامرات عائلة بيتر بفم مشدوهٍ. لأول مرة لم تكن الكلمات تطفو في الهواء أمامي بلا معنى.

عندما قرأت علينا المزيد من هذه الكتب، رأيت بعين خيالي صورًا لضفادع تلعب وترقص، وبط وسناجِب وطيور تتبادل الحديث والضحك. لقد وجدت كل حيوان كنت أبحث عنه في الحقول في كتب بياتريكس بوتر. ولعل القراءة وقتها كانت صعبة عليَّ، ولكن في لحظات السلام التي كنت أقتنصها خلال يومي، كنت أترك لخيالي العنان.

اخترعت حكايتي الخاصة عن عائلة أخرى من ذوات الفراء، فئران تقضي فصل الشتاء في جحر بحائط منزلنا، وتقضي الصيف في حقول الذرة الذهبية، مبتعدة بذلك عن حكاية بيتر الأصلية التي كانت تعيش الفئران فيها في جذع شجرة تنوب ضخمة.

كما أعطيتهم أسماء مختلفة، فبدلًا من موبسي وفلوبسي وكوتون تيل وبيتر أصبحوا ميلي ومايسي وسكويكر وجيم. رسمت صورًا لهم في خيالي وألبستهم ملابس عصرية، واخترعت قصصًا عن حياتهم، فأرسلت الصغار إلى المدرسة، والأب للعمل، أما الأم فكانت تبقى في البيت دائمًا وتخبز الكعك الطازج الشهي.

حاولت قص حكاياتي تلك على أمي، لكني لم أسمع منها سوى كلمات مثل «قوارض» و «فخاخ»، وقررت في نهاية المطاف أن أقصها على دُماي.

كنت أصف دماي أمامي، والتي كان أغلبها مصنوعًا من الخِرق، بالإضافة إلى دميتي البلاستيكية بيليندا. ثم أجلس وأسكب شايًا وهميًّا في فناجيل من بتلات الورد، وأقدم كعكًا متخيَّلًا على أطباق من الأحجار الصغيرة. ثم أقص على الدمى حكاياتي الخرافية، وأنا أحوك أوشحة وملابس للدمى من خيوط الصوف التي كنت ألفها على بكرة من القطن.

إلى أن عرفتُ جارنا، لم أكن أثق سوى بتلك الدمى. ولما اكتمل نسيج هذه القصص في ذهني سرعان ما بدأ الجار يشارك دماي الاستماع إليها، ونحن جالسان إلى جوار البركة.

كان يسمع تلك القصص باهتمام ظاهر، ويشيد بها، ويشجعني، ويؤكد لي أن عليَّ تدوينها على الورق عندما أكبر، فكنت أبحث في ثنايا ذهني عن المزيد منها، كي أقدمه إلى معجبي الوحيد.

في المزرعة التي عمل أبي فيها، كان هناك كوخ قديم متداعٍ تُخزَّن فيه معدات المزرعة، وتبني الطيور أعشاشها بين عوارضه الخشبية. إنه المكان الذي كان يؤوي العائلة التي فلحت أرض المزرعة عندما كانت مجرد حيازة صغيرة. سألتُ أولًا عن هذا المزارع، وعما كان يعمله أبي

وجارنا في المزرعة بالضبط، ثم انطلقت مخيلتي تنسج القصص حول الحياة هناك في الماضي، قبل أن أُولد بسنوات عديدة.

تطوعتُ هناك لجمع البيض، وبمجرد وصولي إلى المزرعة، كنت أمرُّ أولًا على الكوخ المظلم، وأبحث هناك عن أي علامة تخص الطريقة التي عاش بها ساكنوه في الماضي.

وجدت داخل الكوخ بقعة صفراء داكنة، مشوبة بالخطوط الرمادية والسوداء، والتي كانت تبدأ من منتصف الجدار وتمتد حتى العوارض الخشبية. كنت أعلم أن هذا هو موضع موقد الطهي القديم الذي كان يعمل بالحطب. وكثيرًا ما كنت أتصور الأسرة وهي تطهو وجباتها عليه، وبمجرد الانتهاء تفتح الجزء العلوي من الموقد لتدفئة الغرفة.

في كل مرة دخلت فيها إلى ذلك الكوخ، كنت أنسج المزيد والمزيد من الحكايات عن كل شيء يخص هذه الأسرة، ثم أحفظها بين أغلفة كتاب غير موجود سوى في مخيلتي.

في كتاب خيالي كانت هناك امرأة ذات شعر داكن، وولدان في مثل عمري، ورجل يعود إلى المنزل كل ليلة. تصورتهم يجلسون بسعادة ويتناولون وجبتهم المسائية، ووهج مصباح الزيت الدافئ ينير الغرفة.

أخبرني جارنا أن الحياة كانت صعبة في ذلك الوقت، وأن العمال لم تكن لديهم أيام للراحة سوى أيام السبت ويوم عيد الميلاد.

بعدما أخبرني بذلك، تحولَتْ العائلة التي اخترعتها إلى الكدحِ والعمل ستة أيام في الأسبوع، ولكن في أيام الآحاد كانوا جميعًا يرتدونَ أفضل ملابسهم ويذهبون إلى الكنيسة في عربة تجرها الخيول.

لم ألحظ قط كم كان الوقت يمر وأنا مستغرقة في أحلامي عن ذلك العصر البعيد إلى أن أعود إلى المنزل وتوبخني أمي على تأخري. كان

جارنا هو الشخص الوحيد الذي شاركته هذه القصص، ولكن لم أعلم كيف تأتَّى له تخزينها بهذه الدقة في ذاكرته، بحيث تكون جاهزة للاستخدام في أي وقت. استغرق الأمر حتى بعد نهاية الإجازات لكي يستغل هذه المعلومات أحسن استغلال. على مدى الأشهر التالية لانتقالنا، عمل على إتقان دوره كجار مثالي.

في كل مرة كان يزور الجار البلدة فيها ليقضي حاجة من حاجاته، كانَ يسأل أمي:

- هل تريدين أي شيء من هناك؟

وكانت أمي تجيبه دائمًا بابتسامة شاكرة.

كانت تردد دائمًا:

- يا له من رجل طيب! كم هي محظوظة امرأته!

وكلما كانت هناك حاجة لأمي تريد من الجار الطيب قضاءها، كان يدعوني للذهاب معه.

وكان يضيف:

- أحضري ستيفي ليرافقنا. امنحي أمكِ بعض الراحة.

وبالطبع لم تعترض أمي قط.

كان اقتراح الجار المتكرر عندما نصل إلى المنطقة المشجرة هو:

- دعينا نتوقف هنا قليلًا.

وبعدها كانت ذراعاه تلتفان حولي ثم يبدأ في تقبيلي. كان يسأل:

- هل تحبين ذلك؟ (ويربت على ظهري بلطف).

في البداية وجدت أنني أحب ذلك فعلًا. بيد أن طبيعة قبلاته بدأت في التغير بالتدريج. لم تعد هناك قبلات ناعمة. لم أعد أشعر برموشه تحتك بخدي برفق. وعوضًا عن كل ذلك، كان الجار يهتف بحماس:

- دعيني أريكِ كيف يقبل الكبار بعضهم بعضًا.

ويومًا بعد يوم كان يتأكد لي أنني لا أحب الطريقة التي يقبل بها الكبار بعضهم.

كنت أشعر بلسانه ضخمًا لزجًا، وكان هذا يخيفني حقًّا. كنت أسأل نفسي: ماذا سيحدث إذا انزلق لسانه إلى حلقي، فسدَّه واختنقتُ؟ أهناك طريقة تمكنني من التنفس إذا حدث ذلك؟ كما أن جسدي كان يتشنج عندما تتحرك يداه إلى ساقي. كنت أريدهما أن يمسدا ظهري برفق كالمعتاد، لكنهما توقفتا عن اللمسات الحنون.

كان الجار يمسد أجزاء أخرى من جسدي لم أكن أريد له أن يقترب منها. كنت ألصق ساقي ببعضهما بأكبر قدر ممكن من الإحكام، لكن أصابعه المصممة كانت تتمكن دائمًا من إيجاد طريقها.

كان يسأل في كل مرة:

- هل تحبين هذا يا ماريان؟

وكنت أخشى أن أضايقه إن قلت «لا». كنت إذا تأخرت في الرد على الجار بالإيجاب، تبدت على وجهه نظرة مفعمة بخيبة الأمل. ورغبة في إرضائه، كنت أفعل ما يطلبه، فألف ذراعي حول رقبته وأهمس نعم، ثم أمنحه قبلة على خده.

وكانت هذه هي خطوته الثانية.

# الفصل الخامس عشر

بطريقة ما لم يعد يكفيني سماع الكلمات التي كنت أتلهف طوال الوقت لسماعها، تلك الكلمات التي أخبرتني مرة بعد أخرى أنني مميزة. في مرحلة معينة لم تعد تكفي كلمات الجار الحنون لإيقاف القلق الذي بدأ ينهش روحي. تمنيت لو كان هناك شخص يمكنني أن أسأله إذا كان ما نفعله صحيحًا، شخص يمكنه أن يوقف الجار عما يفعله، لأنني كنت أعرف أنني لن أستطيع إيقافه دون أن يغضب ويتوقف عن محبتي.

سألت نفسي بيأس: ولكن مَن؟ كان المأزق الذي وقعت فيه هو أنني لم أكن لأحتمل فقدان صداقته. أجل، كنت لا أزال وقتها أعتقد أنه صديقي.

لكنني فهمت غريزيًا أن هذا ليس بالشيء الذي يمكن الحديث عنه. ومن ذا الذي يمكنني الذهاب إليه على أي حال؟ كان ما قررت فعله عوضًا عن ذلك هو تجنبه.

كانت الطفلة الساذجة بداخلي تتوهم أن تلك الكلمات التي ظل لفترة طويلة يهمسها في أذني كانت حقيقية؛ أنني كنت مميزة بالنسبة إليه، وأنه كان يشتاق إليَّ عندما لا يراني، وأنني كنت سيدته الصغيرة. ولما كنت أؤمن بذلك، فقد رأيت أن حرمانه من صحبتي سيجعله يفتقدني، وأنه سيرغب في أن يطلب ودي، ويرغب في إسعادي، ويتوقف عن إجباري على فعل أشياء لا أريد أن أفعلها.

لكنني كنت في الثامنة من عمري لا أكثر، ولم أفهم وقتها أن حيلتي تلك كانت عديمة الجدوى مع رجل في منتصف الثلاثينيات من عمره. صدمني أنه لم يبدُ منزعجًا من غيابي ولو قليلًا. كنت أتوقع منه أن يطرق بابنا ويسألني عن حالي، أو ما إذا كنت أود المساعدة في تلميع سيارته، أو تنزيه كلبيه، أو إحضار أخي للعب مع طفليه، لكنه لم يفعل أيًّا من كل تلك الأمور. كنت أراقبه من نافذة غرفتي، وهو يعمل أسفل سيارة أو أخرى. وبعد ما بدا لي أشهر -وكانا في الحقيقة أسبوعين- انهارت مقاومتي تمامًا، فخرجت من المنزل واقتربت منه وجلة متوترة.

تنحنحت على أمل أن ينظر إليَّ بابتسامته المعهودة. ولكن للمرة الأولى، لم يرد تحيتي بابتسامته الواسعة المألوفة. كان يتصرف كما لو كان غير مكترث لوجودي، أو على غير علم به. وقفت هناك للحظة يؤلمني تجاهله بشدة، ثم سألته بصوت ضعيف عما إذا كان هناك أي شيء يمكنني القيام به للمساعدة.

رفع رأسه ببطء، وعلت ابتسامة خفيفة شفتيه، ونظر إليَّ طويلًا، ثم أجاب رافضًا:

- لا يا ماريان، لا أعتقد هذا. ما زلتِ فتاة صغيرة. كنت أظن أنكِ مختلفة، لكنكِ لستِ كذلك. لا أريد مساعدة من الفتيات الصغيرات. هيا، اركضي والعبي شأن الصغيرات من أمثالكِ.

شعرت ببرودة تجتاح معدتي، ورحت أرتجف. كل أفكاري وحيلي وما كنت أحاول تحقيقه بدأ يتطاير من ذهني، أقف أمامه متشنجة من الخوف، يروعني احتمال أنه قد يعني ما يقوله فعلًا. إن لم يعد صديقي، فمن الذي سيبقى لي؟

استجمعت شتات نفسي، وأجبت:

- أنا لست كأي فتاة صغيرة. (أحنيت رأسي، وبدأت أحرك قدمي متململة).

سأل الجار:

- حسنًا، إذا لم تكوني فتاة صغيرة، من أنتِ إذن؟ (لم تكن لديَّ إجابة واضحة فأبقيت رأسي منخفضًا).

عاد يقول:

- حسنًا، هل أنت سيدتي الصغيرة إذن؟

أجبته:

- نعم. (وابتسم الجار للانتصار الذي حققه بهذه السهولة).

كان هذا حاجزًا آخر تم تخطيه، خطوة جديدة تم اتخاذها.

سمعت ذات مرة ممثلة مشهورة تعلن في مقابلة أن علينا تجربة البؤس كي نستطيع تقدير الأوقات التي نحظى فيها بالسعادة. بيد أني أظن أنها أخطأَتْ في وصف ذلك الشعور. نحن لا نعرف مدى تعاستنا إلى أن نختبر الشعور المعاكس. إننا لا نتوق إلى المحبة إلى أن نختبر ذلك الشعور فعليًّا. كنت في الثامنة من عمري، لكني كنت أعلم أنني لا أريد أن أخسر العطف والمودة اللذين حباني بهما ذلك الشخص لأول مرة في حياتي.

لم أكن أفهم ما يحدث حقًّا. لم أتبين أنه بكلماته الرقيقة وملاطفته كان يسقي بذور اعتمادي عليه، ويغذي حاجتي إلى صداقته.

بيد أنه لم يتخذ الخطوة الكبرى حتى ذلك اليوم الذي التقيت فيه بالرجل ذي الساقين المبتورتين.

# الفصل السادس عشر

لم يمر عليَّ أكثر من أسبوع قبل أن تعاودني مشاعر الحيرة والقلق. لقد توقفنا في الغابة من جديد، وأُجبِرت على فعل أشياء لا أريدها من جديد. هذه المرة حُرمت من كل ما كنت أحبه؛ اللمسات الحنون والعناق اللطيف. لقد استبدل بها الجار معاملة خشنة فظة. كان يقبض على رأسي بقوة ويجذبني إلى صدره بعنف، لم تسمع أذني حينها الكلمات الهامسة الناعمة، لم تسمعا سوى نخر قوي يصعد من فيه وجسده يتيبس فوق جسدي. بعدها كنت أشم رائحة حامضة في الهواء، فأكتم أنفاسي في تقزز.

هتف الجار ذات مرة وهو يراقبني من كثب:

- ارفعي يدكِ عن فمكِ يا ماريان، واقتربي مني يا صغيرة.

رفعت يدي لأنفذ ما يطلبه والرائحة المنفرة تملأ أنفي. كان يضحك من تقززي الواضح، وللمرة الأولى منذ التقيت به بدأت أشعر أنه لم يعد يضحك معي، بل عليَّ فقط.

خانتني الدموع وغشت عينيَّ، ثم بدأت تتساقط فوق وجنتي. حولت وجهي بعيدًا عن وجهه لكنني كنت لا أزال أشعر بالسخونة المنبعثة من جسده الجالس بجواري في السيارة، وأسمع لهاثه الخشن، وأشم رائحة العطر الذي يضعه بعد الحلاقة.

جاءني صوته يقول:

- حسبكِ يا سيدتي الصغيرة! لا تكوني كالفتيات الصغيرات السانجات. انظري إليَّ، هيا.

وضع أصابعه تحت ذقني، وأدار وجهي نحوه، ثم رفعه إلى أن التقت نظراتنا. سألني:

- هل سبق لكِ أن رأيتِ أخاك الصغير دون ملابس يا ماريان؟

همستُ:

- نعم.

فخلع ملابسه وأراني عُريه وهو يقول:

- إذن فانظري كفتاة كبيرة إلى الكبار وهم دون ملابس.

كنت أعلم تمام العلم أنني لا أحب أيًّا من هذا. لم أكن فتاة كبيرة، ولم أكن أريد أن أفعل ما يفعله الكبار، لكني لم أجد كلمات تعبر عن شعوري.

رأى دلائل الارتباك على وجهي وفي لمح البصر عاد ليصبح صديقي، الرجل الذي يهتم لأمري. ربت على رأسي، ومسد شعري معيدًا خصلاته المبعثرة إلى مكانها، وأخرج من تابلوه السيارة قطعة من الحلوى ووضعها في فمي.

في مساء ذلك اليوم جاء الجار إلى منزلنا، وبادر أمي قائلًا:

- إنني في طريقي إلى المدينة لرؤية أحد الأصدقاء. ما رأيكِ لو أحضرتُ لنا جميعًا بعض السمك لتناوله على العشاء؟

وعندما اعترضَتْ رافضة أن يدفع ثمنه أوقفها ضاحكًا:

- لا تشغلي بالك بهذا الشأن، فقد تلقيت مكافأة عصر هذا اليوم، وأريد الاحتفاء بهذه المناسبة. سأجلب ما يكفينا جميعًا. يمكنكِ إحضار الأطفال إلى منزلي، وسنتناول جميعًا طعامنا هناك.

ابتسمت أمي، وفكرَتْ في الأمسية التي تنتظرها، والتي لن يتعين عليها فيها إعداد اليخنة أو غسل الصحون، وبالطبع قبلت عرضه السخي بامتنان.

استأنف الجار كلامه يقول:

- سأجلب ما يكفي لزوجكِ كذلك، كي يجد عشاءه ساخنًا عندما يعود. وبما أنكِ لن تضطري إلى إعداد العشاء اليوم، يمكنكِ الاسترخاء وقضاء الأمسية في منزلنا مع دورا. سأقابل ذلك الصديق وأقضي معه نصف ساعة على الأكثر. وبالمناسبة، أحتاج إلى اصطحاب ماريان معي لمساعدتي في حمل الأغراض، فهل لديكِ مانع؟

هتفتُ ساعتها بسرعة ودون تفكير:

- أنا لا أريد الذهاب.

سألتني أمي غاضبة:

- ما الذي حدث لكِ يا ماريان؟ فلتتأسفي حالًا على ما بدر منكِ من وقاحة.

رحت أحدث نفسي وأقول: لمَ لا تخمن أمي السبب؟ لمَ لا تستطيع استشفاف السبب الكامن وراء رغبته في اصطحابي معه؟ لعلها لا تهتم أصلًا! كنت أحاول استجماع شتات فكري، والإتيان بعذر مناسب يعفوني من الذهاب. لكن في قرارة نفسي كنت أعلم أن احتجاجاتي لا

جدوى منها. كل ما كنت سأجنيه هي بضع ضربات على ساقي وإرسالي إلى الفراش دون عشاء.

تنهدت باستياء، ونهضت من على مقعدي دون أن أقول جوابًا.

علق قائلًا:

- ربما هي متوعكة قليلًا. (ونظر إليَّ باهتمام، ثم تحول إلى أمي واستطرد) اسمعي كلام أمكِ يا ماريان، ستفيدكِ النزهة في السيارة، وستجعلكِ أفضل حالًا، ألست محقًّا في كلامي؟

أمَّنت أمي على كلامه وقالت:

- بلى، بالطبع!

ورمتني بنظرة لا تخلو من العدائية، ثم عادت تتطلع إليه بابتسامة امتنان جلية.

مد جارنا يده وأقفل أصابعه الغليظة على يدي وخرج بي من المنزل.

اقشعر بدني من الخوف. بالتأكيد سيكون هناك نوع من العقاب، أو بعض اللوم والتقريع على الأقل، ولعلِّي أتلقى صفعة أو اثنتين، فقد كنت وقحة وحاولت لفت الانتباه إلى اهتمامه الزائد بي. لكني كنت لا أزال أجهل طبيعة الرجل التي كان عليها حقًّا. لم يكن ليفعل قط ما يفعله أبي عندما يغضبه شيء. لم يكن لينفجر في نوبة غضب عارمة، تتبعها لكمات وضربات عمياء. كان هذا في نظره خشونة وبربرية، والأمر نفسه ينطبق على الصيحات المهددة والشتائم البذيئة.

لا! لقد كانت قسوته خفية، وكنتُ على وشك تلقي درسي الأول فيها؛ درس لم أدرك في تلك الليلة أنني كنت أتلقاه أصلًا. كان منهجه في السيطرة عليَّ يتألف من مقادير متساوية من التلاعب والترهيب. وبمجرد تأكده من إحداث جرح عميق، كان يبدأ في تضميده بالثناء

والتبرير. كان يؤكد أنه يفعل هذا أو ذاك لمصلحتي. بمجرد جرحه لي، كان هو الوحيد الذي يستطيع أن يجعل جراحي تلتئم.

في الطريق إلى المدينة، انعطف الجار بالسيارة نحو شارع مظلم لم أره من قبل، وركنها أمام صف من المنازل المهجورة المبنية بالطوب الأحمر. كانت مزق من الستائر تتطاير فوق الإطارات الخشبية للنوافذ والأبواب المكسورة، وتظهر من خلفها هياكل السلالم والجدران الداخلية المتداعية.

سقط قلبي بين قدمي، وسألت نفسي في فزع: «إلى أين أحضرني؟ ماذا سيفعل بي؟!».

عندما تبدّى له خوفي، أحاطني بذراعه، وأسفر ثغره عن تلك الابتسامة الدافئة التي كنت أحبها وأثق بها دائمًا، فلما رأيتها بدأت الراحة تتسلل إلى نفسي.

بادرني قائلًا:

- إنكِ بالطبع تعلمين أنني أتذكر كل قصصكِ يا ماريان، خصوصًا قصص العائلة التي كانت تعيش في كوخ المزرعة القديم.

باغتني المآل الذي آلت إليه المحادثة، فألقيت عليه نظرة متسائلة.

- هيا، اخرجي؛ هناك شيء أرغب في أن أُريكِ إياه.

وعلى الرغم من شكوكي، أطعته وتبعته عبر أحد الأبواب. كان يقودني إلى المتجر الذي أقيم ذات يوم على ناصية الطريق، أو بالأحرى أطلال ذلك المتجر.

وقف هناك يتطلع حوله في ذلك المكان الفارغ. أخبرني أن جدته كانت تعيش في أحد هذه المنازل عندما كان صبيًّا، وأنه كثيرًا ما كان

يلعب أمام منزلها، في المكان نفسه الذي أوقف فيه السيارة. أشار إلى الرفوف الفارغة وهتف:

- انظري حولكِ.

ثم بدأ يصف ما كان يبدو عليه المتجر. كانت أرففه ملآنة بعلب الحلوى وعبوات الشاي والأغذية المعلبة والبيض الطازج والأدوات المنزلية. كان صاحب المتجر يقف خلف طاولته المرتفعة قرابة الاثنتي عشرة ساعة كل يوم، يغلف البضائع في أكياس ورقية، ويبيع السجائر للفقراء بالواحدة، ويبيع بالأجل للنساء اللواتي ينتظرن وصول رواتب أزواجهن الأسبوعية. في أثناء حديثه، رحت أتخيل كيف كان المتجر يبدو في الماضي، وهو ممتلئ بالبضاعة.

وبالقرب من المكان الذي كان يضع فيه صاحب المتجر صندوق النقود، أشار الجار وهتف:

- انظري إلى هذا المسمار! على هذا المسمار كان يعلق الرجل دفتره بعد تدوين كل مليم كان يدين له الناس به. كان على الكثيرين العيش على الكفاف آنذاك.

مثلما كانت فُرش الفنانين ترسم لنا صورًا واضحة للأزمنة الغابرة، كانت كلماته بدورها ترسم بدقة ملامح الحياة في ذلك الشارع قبل اندلاع الحرب. رأيت مجموعات من الصبية الأشقياء بركبهم المخدوشة يلعبون الحجلة والكريكيت، ويتدحرجون على الرخام الملون، ويجمعون بطاقات سجائر جون بلاير[1]. كنت مأخوذة بحكاياته، ورحت أنصت إليه وهو يقص عليَّ كيف كان هؤلاء الأولاد يحصلون على بعض القروش

(1) بطاقات السجائر هي بطاقات تجارية تصدرها الشركات المصنعة للتبغ لتقوية أغلفة علب السجائر والإعلان عن بعض المنتجات. (المترجمة)

لقاء قضاء بعض المشاوير لشخص أغنى وأكبر. بعدها كانوا يقصدون المتجر ممسكين بقروشهم القليلة اللامعة، فيُخيَّرون بين شراء تفاحة بصوص التوفي، أو علبة من العلك ذي اللون الوردي، أو قطعة من الحلوى الصلبة ذات اللونين الأسود والأبيض.

وعلَّق مبتسمًا:

- لطالما أحببت تلك الحلوى الصلبة. (حاولت أن أتخيله طفلًا في ذلك الوقت، لكنني لم أستطع).

حدثني عن الوضع عند اندلاع الحرب، كيف أن فِتْيةً مراهقين، لم تنبت في ذقونهم إلا شعرات معدودة، أصغر حتى من أن يسمح لهم بالتصويت، أُجبروا على الترحيل للقتال من أجل الملك والوطن. روى لي كيف ودعت النساء أبناءهن وأزواجهن وانتظرن أخبارهن بلهفة وخوف، ووصف مشاعر اليأس التي كانت تعم الأجواء كلما شوهد صبي يحمل برقية ويبحث عن بيت بعينه، فوصوله في أغلب الأحيان كان يعني وفاة أحد المقاتلين في الحرب. أخبرني عن الطائرات قاذفة القنابل التي كانت تحوم في الليل، لتسقط حمولتها على إيست إند وإسيكس، وكيف اندلعت معركة بريطانيا في السماء فوق رؤوسهم.

ثم وصف لي جارنا الحفل الذي أقيم في الشارع للاحتفال بانتهاء الحرب، وكيف انتظر الشارع رجوع رجاله بفارغ الصبر.

تابع قائلًا:

- نعم، كان الشارع في السابق كمجتمعٍ متكامل، ولكنهم الآن يهدمونه كي يفسحوا المجال لشقق المجلس الجديدة.

وعندئذ توقف ونظر إلى ساعته، وعرفتُ أن روايته قد انتهت.

- حسنًا، يمكنكِ إلقاء نظرة على الغرف والمتجر. سأذهب لرؤية رفيقي في الشارع المجاور وبعدها سأعود إليكِ.

ورحل الجار قبل أن أبدي اعتراضي. وبعدها بدقائق وقع أمران في وقت واحد، جعلا الشعر ينتصب على مؤخرة عنقي. على الجانب الآخر من المنضدة رأيت بابًا لم ألحظه من قبل. انفتح الباب ببطء، وانسل منه ضوء خافت ألقى بظلال على الأرض. وفي الوقت نفسه سمعت صوت احتكاك لم أميزه. أصبحت الظلال أوضح أمام عيني، ثم تحرَّكتْ أمامي، وشاهدت هيئة لجسم ما، جسم أصغر مني.

كان الضوء خلفه فلم أستطع في البداية تحديد ما هو. لكنه بعدئذ تبدى واضحًا في المتجر. استطعت أن أرى أن له رأسًا وكتفين. كان رجلًا لكنه لم يكد يبلغ خصري حتى، فلقد كان رجلًا بلا ساقين.

كان عبارة عن جذع فحسب، يرتدي سترة عسكرية قديمة، ويرقد فوق حصيرة سميكة، ويحمل في كل يد قالب طوب. وبقالبي الطوب كان يدفع نفسه للأمام. فتتحرك الحصيرة مع حركته. كان هذا هو صوت الاحتكاك الغريب الذي سمعته في البداية.

كان شعره الرمادي الدهني مسدلًا على كتفيه، في حين كان فمه شبه محجوب بسبب شاربه الأصفر السميك ولحيته غير المشذبة.

اركضي! هكذا صحت داخل رأسي. إلا أن الخوف أبقاني جامدة في مكاني، أحدق بارتياع إلى مخلوق قادم من الحكاية الخرافية المروعة، مخلوق خرج من صفحات كتاب ما، وأُلقِيَ به في عالم لا يعرفه، وسألت نفسي أيمكن أن يتلاشى من الوجود إن تم التوقف عن قراءة حكايته في ذلك الكتاب. كانت عيناه الرماديتان محمرتَي الجفنين، يتجلى فيهما

الغضب والخوف. كانتا تتطلعان إلى عالم كان صاحبهما يعلم تمام العلم أنه لا ينتمي إليه.

كنت أقف أمام وحش! ألم تهددني أمي بمثل هذه الوحوش كلما تصرفت بشقاوة؟ لم أرَ تشوهه مأساويًّا في تلك اللحظة، فلقد كنت أصغر سنًّا من أن أستطيع استيعاب معنى الشفقة. عندما نظر كلانا إلى عيني الآخر، غلبني الاشمئزاز، ولشدة ارتياعي كدت أتهاوى بعد أن صارت ركبتاي غير قادرتين على حملي. رحت أنتفض وقد انتصبت الشعيرات على ذراعي.

اركضي! حثني صوتي الداخلي مجددًا، بيد أن عقلي كان مشلولًا من الخوف، خوف كان أكبر من تفكيري.

فتح الرجل فمه ليكشف عن لسان أحمر لامع وأسنان سوداء حادة، وصدر عنه نخر مريع لا يشبه أي صوت سمعته من قبل. وصرختُ صرخة واحدة طويلة مدوية.

عند سماعه ذلك الصوت حدقت عيناه إلى جسدي وبرزت عضلات ذراعيه تكاد تمزق القماش البالي لسترته بينما كان يقبض بشراسة على قالبي الطوب. ظننت لوهلة أنه سيقترب مني، لكنه عوضًا عن ذلك استدار دافعًا جسده بقوة، وعاد من الباب الذي دخل منه، تاركًا وراءه رائحة عفن حامضية ظلت تفوح في الهواء. عندها فحسب استعدت القدرة على الحركة. كادت قدماي أن تتعثرا أكثر من مرة وأنا أهرول خارجة من الباب، وانطلقت أعدو باكية باتجاه الشارع المهجور.

وعندها أمسكت بي ذراعان قويتان وسمعت صوتًا يهمس في أذني:

- اهدئي يا سيدتي الصغيرة.

وشعرت بيد تربت على شعري بلطف. رحت أنتحب وأصيح:

- البعبع! البعبع كان هنا.

قال جارنا:

- أنتِ بخير الآن. لن يحدث شيء لكِ، فأنا هنا معكِ.

كانت ذراعاي ملتفتين بإحكام حول عنقه، ورأسي مستلقيًا على كتفه؛ لقد أنقذني!

شغل جارنا محرك السيارة، وتوجه إلى مطعم السمك والبطاطس المقلية. في طريق العودة، وضعت اللفافات الورقية التي كانت تحمل طعامنا بين يدي محاولة تدفئة أصابعي، تلك الأصابع التي كانت متجمدة من البرد في ليلة صيفية دافئة.

لم أسأله لمَ تركني هناك. لم يخطر لي هذا السؤال إلا في وقت لاحق، وحينها سمعت القصة المأساوية للرجل مبتور الساقين. في السنة الأخيرة من الحرب، كان شابًّا في الثامنة عشرة من عمره، وقد تلقى أوراق استدعائه إلى الخدمة. وبعد شهرين فقط عاد إلى منزله على نقالة. إثر انفجار لغم أرضي، نُقل الشاب إلى المستشفى الميداني، وهناك بُترت ساقاه على يد أطباء ملطخين بالدماء، يحاولون العمل تحت ضوء شحيح ودون تخدير تقريبًا. لعدم قدرته على مواجهة من كانوا ينظرون إليه بشفقة أو اشمئزاز، اختبأ الشاب مبتور الساقين في البيوت المهدمة المظلمة. لم يعرف أحد مكان عائلته، وبعدما قام الفريق المكلف بالهدم بتحويل الشارع الذي رأيناه إلى كومة من الركام، لم يره أحد مجددًا.

وقتها لم أكن أعلم من كان الوحش الحقيقي الذي رأيته، وبقيت أصدق هذه القصة حتى مرحلة المراهقة. وطوال ذلك الصيف الذي كنت فيه في الثامنة من عمري، كان جارنا هو بطلي الهمام.

# الفصل السابع عشر

كان الجار ينصب فخاخه الصغيرة طوال السنة الأولى، ثم ينتظر بصبر الصياد البارع سقوط فريسته. استطاع أن يكسب ثقتي، وأوهمني أنه يحافظ على سلامتي، وأجج احتياجي إلى عطفه واهتمامه.

ما زلت أتذكر اليوم الذي أحكم فيه سيطرته عليَّ.

كنا قد بدأنا العمل بالتوقيت الشتوي، فتقلصت ساعات النهار. في ذلك الوقت بدأت أشعة الشمس تضعف وتشحب وتفقد دفأها، كما تكاثرت الغيوم، وصارت تنذر يوميًّا بهطول المطر. اشتدت الرياح الباردة، وصارت تخترق النسيج الرقيق لمعطفي. وطوال طريقي إلى المنزل كان ورق الشجر الميت على الأرصفة والطرقات يطير في دوامات من قوة الريح.

في كل مرة كنت أغادر المدرسة فلا أجد من يودعني، أو يتمنى لي عطلة نهاية أسبوع سعيدة، أو حتى يقول: «أراكِ غدًا»، كنت أبحث عن جارنا، وأتمنى أن يكون في انتظاري. لكن الأيام مرت دون أن أعثر على أي أثر له.

مر شهر على بداية الشتاء قبل أن يظهر أخيرًا. في ذلك اليوم وبمجرد خروجي من بوابة المدرسة في اتجاه موقف الحافلات سمعت صوت سيارة وهي تتباطأ، سيارة أعرف صوتها جيدًا، وسرعان ما تناهى إلى سمعي صوته المألوف، يناديني من نافذة السيارة شبه المغلقة.

وقفت ساكنة للحظة، متسائلة عن كنه ذلك الشخص الذي يناديني؛ أهو صديقي الذي خفف وحدتي وأشعرني بالتميز والذي لم أعد أراه إلا قليلًا؟ أم الشخص الذي كان يقود بنا إلى الغابة، ويجبرني على فعل أشياء تشعرني بالاشمئزاز بينما أسمع لهاثه الخشن في أذني. لم أكن راغبة في القيام بأي من تلك الأشياء المقرفة، التي لم تعجبني يومًا، ولم أفهم لها معنى.

هتف الجار يقول:

- أهلًا يا ماريان، أترغبين في توصيلة؟

حينما أبصرت ابتسامته الدافئة عرفت أن صديقي الطيب هو الذي حضر لتوصيلي. أضاءت وجهي ابتسامة عريضة، وأومأتُ بالموافقة، وهرولت إلى سيارته بأقصى سرعة. ألقيت حقيبتي على المقعد الخلفي، وقفزت بجانبه على مقعد الراكب.

سألني الجار بلطف:

- كيف حال سيدتي الصغيرة؟

وضغط على ركبتي ضغطة خفيفة. ثم طلب مني أن أفتح تابلوه السيارة وأتناول ما شئت من الحلوى. رحت بجشع أملأ فمي بحلوى عرق السوس التي وجدتها بالداخل، وبدأت أسترخي وأنا أستمتع بمذاقها.

أوقف الجار سيارته في منتصف الطريق إلى المنزل، ولكنه لم يتحول إلى طريق الغابة هذه المرة.

لقد أوقف جارنا المحرك ثم التفت إليَّ وسألني:

- إلى أي درجة تجيدين القراءة يا ماريان؟

فاجأني سؤاله كثيرًا، ورحت أتطلع إليه عاجزة عن الفهم.

قال بنبرة متململة قليلًا:

- بربكِ يا ماريان، إنه ليس سؤالًا صعبًا، أليس كذلك؟ بالتأكيد تعرفين كم تجيدينها في هذه المرحلة.

أجبت بصوت خافت محبَط وأنا أخفض عيني:

- لا أجيدها كثيرًا، ولا أستطيع تهجئة الكلمات الطويلة أيضًا.

ضحك ساخرًا مما قلته، وأخرج صحيفة كانت مطوية في جيب الباب، ثم أشار إلى صورة امرأة شقراء تظهر في مكان بارز على الصفحة الأولى.

- ألقِي نظرة جيدة على هذه الصورة يا ماريان. هل ترين كم هي جميلة؟

أجبت بتردد:

- نعم. (دون أن أكون متأكدة فعلًا من السبب الذي حثه على أن يريني إياها).

- حسنًا، لن يساعدها جمالها في الغد عندما يضعون الحبل حول عنقها، ويشنقونها حتى الموت.

هززت رأسي غير مصدقة ما كان يقوله، وعلى الرغم من أنني لم أكن أفهم معنى كلمة «شنق»، فإنني كنت أفهم تمامًا معنى كلمة «موت». الموت يعني أن يذهب الشخص بلا عودة، وألا يراه أحد مرة أخرى.

- إنكِ لا تصدقينني، أليس كذلك؟ لكن الصحف لا تكذب. ألا تعرفين هذا؟

همست:

- بلى.

شيء في نبرة صوته جمَّد الدم في عروقي في ذلك اليوم. لم أرغب في النظر إلى الصحيفة مجددًا، أو سماع كلمة «موت». كل ما أردته هو العودة إلى المنزل، لكنه بدا غافلًا تمامًا عن اضطرابي وقلقي.

سأل:

- حسنًا، هل يمكنكِ قراءة المكتوب عنها؟ (ودفع الجريدة بخشونة بين يدي).

لم يقتصر الأمر على ضعفي في القراءة، فأنا لم أكن من الأطفال الذين يقرؤون الصحف، ولم أجرب هذا قط. الصحف التي كانت تدخل منزلنا كانت تبقى مفتوحة على الصفحات الرياضية، وبما أنها كانت خالية من أي صور جميلة يمكن التطلع إليها، فإنها لم تلفت انتباهي قط. بيد أنني في تلك اللحظة كنت أعلم أنه يتوقع مني أن أفعل هذا الذي طلبه مني، ورغبة في إرضائه حملقت في الكلمات، فوجدتها أصغر حجمًا بكثير من الكلمات المطبوعة في كتبي المدرسية، ولم أستطع فك شفرة أي كلمة منها. أخذ يهز الصحيفة أمامي بإحباط متزايد.

ثم غرس إصبعه تحت كلمة مطبوعة بخط كبير فوق الصورة، وهتف:

- حسنًا، هل يمكنك قراءة هذه الكلمة على الأقل؟ إنه اسم فتاة.

قلت بتردد:

- روث.

- نعم، هذا هو اسمها؛ روث إليس. والآن أخبريني، ماذا يقولون عنها؟

هززت رأسي في حيرة. كنت أعلم أنه اختبار من نوع ما، لكنني لم أدرِ ما الذي كان الجار يتوقعه مني.

صاح بنفاد صبر:

- هيا يا ماريان! يمكنكِ قراءة بعض الكلمات على الأقل. على سبيل المثال، ماذا يقول هذا الشخص؟

ثم أشار بإصبعه بالقرب من منتصف المقالة، ثم وضعه تحت كلمة جديدة، وهتف:

- يمكنكِ قراءة هذه الكلمة بالتأكيد.

همست مرتبكة:

- ش ن ق؛ شَنْقَ. (ارتجف صوتي من الرهبة والذل).

- نعم، شَنْقَ يا ماريان. هل تعرفينَ معنى هذه الكلمة؟

أجبت:

- لا.

شعرت بثقل في معدتي ورغبة في التقيؤ، وغشيت البرودة جسدي. بطريقة ما كنت أعلم أن هذه الكلمة سيئة، بل شديدة السوء.

تطلعت فيه مشدوهة. كنت أشعر بغضبه ونفاد صبره يزداد ويتعاظم، بيد أنني لم أفهم ما الذي أخطأت فيه. أردت أن أستعلم منه عما ارتكبته، إلا أن الغصة الكبيرة في حلقي كانت تمنعني. كل ما استطعت فعله هو التحديق إليه بفم فاغر وقلة حيلة.

سمعت صوتًا كالشخير يخرج من فم الجار بعد أن طال انتظاره وعيل صبره، وبسرعة البرق، وقبل أن أتمكن من الحركة، مد يده وأطبق أصابعه على عنقي. شدد أصابعه حوله، وإن لم يضغط كثيرًا بما يكفي لترك كدمات إنما بما يكفي لإثارة رعبي. ظللت أتلوى يمينًا ويسارًا محاولة التحرر من قبضته، إلى أن حررني فجأة.

وعندئذ شرح الجار لي معنى كلمة «شنق». أخبرني أنهم سيحضرون حبلًا، وسيعقدونه حول عنق المرأة المليحة، ثم سيغطون وجهها الجميل، كيلا تستطيع رؤية ما سيحدث. إلا أنها تعلم تمام العلم أنها ستقف على خشبة الإعدام التي ستنفتح من تحتها. سينهشها الخوف، وستأكلها الوحدة، ومن خلف غطاء وجهها سيُسمع نحيبها وصراخها، لكن لن يساعدها أحد. سيكون الغد هو آخر يوم لها على وجه الأرض، وسيكون رحيلها مؤلمًا حقًّا. فعندما ستنفتح الخشبة سيظل جسدها معلقًا، وسيضيق الحبل إلى أن يخرج الدم من عينيها الجاحظتين ويمتزج بدموعها. لن يتوقف صراخها إلا عند خروج آخر أنفاسها، وعندئذ سيسيل بولها وبرازها على ساقيها، وحتى بعد موتها ستبقى ساقاها ترفسان وجسدها يهتز ويهتز.

واستأنف الجار كلامه يقول:

- وعندما يقطعون الحبل يا ماريان، سيخلعون عنها غطاء رأسها في النهاية. هل تعرفين كيف ستبدو هذه المرأة الجميلة عندئذ؟

لم أستطع الرد عليه. كانت الصورة التي رسمها حية للغاية. أجابته دموعي المنهمرة من عيني، وشهقاتي المتلاحقة.

- سيغدو وجهها أزرق، ولسانها نازفًا ومتورمًا بسبب عضها المتكرر له. لن تبدو جميلة بأي صورة يا ماريان. وهل تعرفين السبب في هذا؟ أتعرفين لِمَ يفعلون بها هذه الفعلة الشنيعة؟

عندما رأى أنني لم أكن قادرة على النطق بأي وسيلة، أجاب عن سؤالي بنفسه:

- السبب هو أنها فعلت شيئًا سيئًا للغاية (وكرر ساخرًا) نعم، شيء شديد السوء.

ثم أخبرني عن ذلك الشيء السيئ. تحدث ببطء، كلمة بكلمة:

- هذه المرأة حكت شيئًا لم يتوجب عليها أن تحكيه. لقد أخبرت الناس أنها كانت بصحبة رجل في سيارة، وقصت عليهم ما فعلاه فيها. ولهذا السبب جاءت الشرطة وقبضت عليها في منتصف الليل.

انحبست أنفاسي وأخذت أشهق طلبًا للهواء. بدأت يداي وساقاي ورأسي في الارتجاف معًا. كنت على وشك التقيؤ. أردت البكاء، أردت الصراخ متوسلة إلى الجار كي يكف عن هذا الكلام الشنيع، لكن كل ما أمكنني فعله هو اللهاث ومحاولة التنفس، بينما استمر هو يصف هيئتها بلا رحمة بصوت هادئ متزن.

عندما صمت الجار أخيرًا، أصبحت صورة المرأة المعلقة من طرف الحبل مطبوعة في رأسي، وصوت صيحاتها اليائسة يرن في أذني بلا توقف. رأيتها تتدلى من الحبل كدمية مكسورة، بجسد هامد، وساقين رخوتين، ورقبة ملتوية، وزاد اهتزاز جسدي مع ازدياد هلعي.

وعندها عاد صديقي اللطيف مجددًا، صديقي الذي أخبرني أنني سأظل في أمان ما دمت معه. أحاطني بذراعه ومسَّد شعري بيده، ثم أدارني نحوه وقربني من مقعده، وقال بنعومة:

- لا تقلقي يا ماريان. لن أدع أي شخص يفعل شيئًا كهذا بكِ. لن يمس أحد سيدتي الصغيرة.

في تلك الليلة أخرجت فستاني الحريري الذي ارتديته في زفاف عمتي، واحتضنته بين ذراعي، وألصقته بصدري، ودفنت وجهي بين طياته الناعمة المبللة بدموعي، وحاولت استنشاق أي أثر متبقٍ من عطره.

وبينما كنت أحاول أن أستبدل بتلك الصور الرهيبة في رأسي صور ذلك اليوم السعيد الذي لبست فيه فستاني، رحت أفكر في منزل عمتي بتوق شديد. كنت أرغب في العودة بعجلة الزمن، وأتمنى أن يضعوني مجددًا في ذلك الحوض المملوء بالماء الدافئ والصابون، فأشعر بالنظافة، وأمحو كلماته المؤذية من ذاكرتي؛ تلك الكلمات التي أظهرت لفتاة في الثامنة من عمرها لمحة صغيرة عن عالم الكبار البغيض.

لكن الرائحة كانت قد تلاشت، ومعها تلاشى السحر، لم يبق لها أي أثر. لم يزد ما كنت أحمله بين يدي على فستان قديم، فستان يخص فتاة صغيرة أخرى قيل لها ذات مرة إنها مميزة. في ذلك الوقت كانت كلمة «مميزة» تعني شيئًا لطيفًا.

ما لم أكن أعرفه في تلك الليلة بينما كنت أتقلب في فراشي وأفكر في السيدة الجميلة التي ستموت في صباح اليوم التالي، أن الصحيفة التي أراني إياها كانت قديمة. لقد ماتت روث إليس قبل ثلاثة أشهر من ذلك اليوم الذي أخبرني فيه الجار بقصتها.

# الفصل الثامن عشر

خطرت لي ذكرى أخرى من حيث لا أدري؛ ذكرى حانة هواؤها مفعم بالدخان الكثيف، عوارضها من خشب البلوط، ومقاعدها من الخشب الداكن وقد فُرشت بالوسائد المخملية الحمراء. في هذه الحانة جلست مجموعة من النسوة يثرثرن بأصوات صاخبة ويدخن السجائر. كانت سيقانهن الممتلئة ظاهرة من تحت تنانيرهن الضيقة القصيرة التي تصل إلى أعلى الفخذ، وأحذيتهن ذات كعوب عالية، وشعورهن مصففة بعناية، وعطورهن مغرية، وأحمر شفاههن مثير ولامع، وأعينهن متألقة بالمرح، وأيديهن ذات الأظافر البراقة تتمايل في الهواء بدلال. تتابعت كؤوس الخمر ذات الأسماء الغريبة، والتي كانت مزينة بالمظلّات الورقية وحبات الكرز المُسكَّرة، وراحت النسوة يتجرعنها بمجرد أن صبها النادل ووضعها أمامهن. كن عازمات على قضاء ليلة سعيدة بكل وسيلة ممكنة.

لقد انتقلت بذهني من الطفولة إلى المراهقة إذن. كنت في التاسعة عشرة من عمري تحديدًا، وكان قد مر على زواجي ثلاثة أشهر. ليلتها دعتني مجموعة من النسوة الأكبر سنًّا مني للانضمام إليهن في حفل لتوديع سنوات العزوبية. كانت إحداهن ستتزوج في اليوم التالي، ودعتنا للاحتفال بآخر ليلة لها كامرأة عزباء. لم تكن أي امرأة منهن تعرف أي شيء عن ماضي حياتي الأليم. بيد أنهن جميعًا كن يعرفن قصتي الملفقة. كنت أخبر الناس أنني غادرت منزل أبي لأننا كنا نعيش في

الريف، وكنت بحاجة إلى أن أعيش في منطقة أقرب لعملي، وأنني نشأت طفلة سعيدة. وكنت أؤكد أنني أزور إخوتي كثيرًا، سواء أشقائي الثلاثة، أو شقيقتي الوحيدة.

في وقت سابق من ذلك المساء، حرصت على ارتداء ملابس أنيقة؛ السترة البيضاء التي ارتديتها في حفل زفافي، وتنورة رمادية قصيرة، وبلوزة زاهية الألوان. كما مشَّطت شعري الأشقر المموج بعناية، ولونت شفتي بالوردي الفاتح، ووضعت طبقتين من الماسكارا السوداء على رموشي. بمجرد أن أصبحت جاهزة، وقفت أمام المرآة أتأمل المرأة التي تقف أمامي، امرأة يصل طولها بالكاد إلى 150 سنتيمترًا، ولم يزد طولها مذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها على سنتيمتر واحد. انتعلتُ أطول أحذيتي كعبًا، وخرجت من الغرفة.

سلَّى زوجي نفسه بمتابعتي وأنا أهيء نفسي لتلك الليلة. أكد لي أنني أبدو رائعة، وأوصلني إلى الحانة التي سأقابل فيها الفتيات. بعد مرور ساعة، بدأت أتململ في مقعدي وقد خضبت حمرة الخجل وجهي بينما كن يتبادلن قصص فقدانهن للعذرية. بعد عدة كؤوس من المشروبات، كانت أعينهن تتسع، وشهقاتهن تعلو، متظاهرات بالصدمة. خرجت من أفواههن عبارات مثل: «لا!»، و «أحقًّا؟»، و «هذا مستحيل!»، والتي كانت تتبعها ضحكات ماجنة، ما شجع كل واحدة منهن على أن تجعل حكايتها أكثر فحشًا وبذاءة. حاولت كل امرأة التفوق على الأخرى في رواية تفاصيل أكثر مجونًا عن تجاربها الحميمية في سن المراهقة.

ارتفعت الأيدي في الهواء، وصارت الوجوه أشد احمرارًا، والأصوات أكثر ارتفاعًا وحدَّة. طلبن جولة أخرى من المشروبات، وجلبتها واحدة منهن تسير متمايلة من السُّكر. علا رنين ضحكاتهن الصاخبة بينما كن يتحدثن عن صِبية عديمي الخبرة بوجوه يعلوها الحرج، يجلسون

معهن على المقعد الخلفي بسيارة ما، ويمارسون معهن الحب. ورحن بعدها يتنهدن غائمات الأعين، ويبتسمن بحنين لذكرى الحب الأول. ثم علت صيحاتهن العابثة عند اعتراف إحداهن بخجل أن ذكرى ذلك اليوم بالنسبة إليها مشوشة إلى حد ما، لأنها مارست الحب لأول مرة في شقة شخص غريب بعد استهلاك كميات كبيرة من الكحول، ولأن هذا لم يأخذ وقتًا طويلًا.

كنت أمسك بكوب البراندي المخلوط بالكوكاكولا بيدين مبللتين بالعرق، متمنية ألا تسألني واحدة منهن عن شيء.

لكن إحجامي عن المشاركة في ليلة الذكريات هذه هو ما شجعهن أكثر على سؤالي والإلحاح عليَّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قالت إحداهن:

- بربكِ يا ماريان، قصي علينا كل شيء.

وقالت أخرى:

- نعم. ألم تستمعي إلى اعترافاتنا جميعًا؟ فلتخبرينا عن مرَّتكِ الأولى، لا تخجلي! هيا! هيا!

تأملت تلك الوجوه المنتظرة، وسألت نفسي كيف بحق الله أستطيع إخبارهن أن ذكرياتي مختلفة كليًّا عن كل ما قيل، وأنه لم يكن هناك صبي بيدين مرتعشتين يحاول خلع ملابسي في ارتباك، ويمارس معي الحب لثوانٍ معدودة وهو يتأمل وجهي المراهق المورد، ثم يتركني متعجبة من الجلبة المثارة بشأن الجنس بينما الأمر لا يستحق كل هذا الاهتمام والتهويل. لم تكن ذكرى قبلتي الأولى لطيفة كذلك، فلم يكن هناك فتى أحبه يحاول تقبيلي بلطف وارتباك. من قبلني وأنا ما زلت

في الثامنة من عمري كان رجلًا بالغًا، وقد فعلها بخشونة وعنف وأنا متجمدة في مكاني من الفزع والذهول.

كانت ذكرياتي عن محاولات غصب وإجبار خشنة، عن قلب طفلة يخفق بسرعة مثل جناحي فراشة محاصرة، عن وزن ثقيل منكب فوقي، عن نخرات ولهاث، ورائحة نتنة تشبه رائحة الأسماك المتعفنة، عن شعوري بالإثم والعار والوجع الشديد.

تأملت وجوه أولئك النسوة اللاتي كن ينتظرن إجابتي بلهفة، وتذكرت يوم فقدت عذريتي وأنا طفلة هزيلة في الثامنة من عمري. في ذلك اليوم غادرتني البراءة. لم أعد طفلة لا روحًا ولا جسدًا. اختفى عالم الطفولة من حياتي إلى الأبد.

في ذلك اليوم انتهى عالمي، العالم الذي كان فيه ذهني زاخرًا بالقصص والحكايات لطفلة واسعة الخيال. ذهن طفلة مليء بكتب تزينها الصور، صور أنا فقط مَن أستطيع رؤيتها، صور ضفادع راقصة، وفئران مرحة، وأرانب قافزة، وأطفال من عصور أخرى. وفي ذلك اليوم تمزقت الكتب، وتحولت الصور إلى غبار تذروه الرياح، ولحقت المخيلة الواسعة بطفولتي إلى السماء.

أجبتهن بهدوء:

- لقد كان زوجي. كان هو أول رجل يمارس الحب معي.

وكنت أقول الحقيقة بالطبع. ما لم أخبرهن به هي ذكرياتي عن المرة الأولى التي أُجبرت فيها على أسوأ فعلة ممكنة.

عندما أقرأ قصصًا مروعة عن الاعتداء على الأطفال، غالبًا ما أحاول تحديد الطفل الذي عانى أكثر من غيره. أهو من يهاجمه شخص غريب، فيجره عبر الطريق، ويلقي به في سيارة ما، ثم يعتدي عليه؟ كانوا

يجدون مثل هذا الطفل في ملابسه الملطخة بالدماء، غير قادر على الكلام، إذ انعقد لسانه من الذهول والصدمة، والناس يحيطون به ولا يكفون عن إلقاء الأسئلة، رغبة منهم في العثور على الحقيقة، ومعرفة ما حدث بالتفصيل.

أشعر بتعاطف شديد تجاه هؤلاء الأطفال كلما قرأت خبرًا جديدًا. يمكنني تخيُّل وجوهًا شاحبة صغيرة تعكس ملامحها الفزع والذهول والعار. كان المعتاد هو أن يكون هؤلاء الأطفال أصغر سنًّا من أن يتمكنوا من وصف ما حدث لهم بالكلمات. ولهذا كانوا بمجرد شفائهم من آثار الاعتداء، يُمنحون دمى بلاستيكية كوسيلة للتواصل. كانوا يجلسون في غرف يسجل فيها كل شيء بالصوت والصورة باستخدام كاميرات غير مرئية، وفي وجود طبيب نفسي واختصاصي اجتماعي يراقبان ما يفعله كل طفل بالدمية وطريقة لعبه بها؛ كانت أصابعهم الصغيرة تلوي الأطراف البلاستيكية في أوضاع بذيئة، مظهرين مرة بعد مرة ما كان يفعله الرجال الأشرار.

مع مرور السنوات وتحول هؤلاء الأطفال إلى مراهقين، كانت الأعين تستمر في مراقبتهم بحثًا عن علامات تدل على أي ضرر طويل الأمد. وحين يقرأ هؤلاء المراهقون في الصحف مقالات تتحدث عن الأطفال المستغلين، وأن الحرمان والإساءة في الصغر هي سبب تحول مثل هؤلاء الأطفال إلى مجرمين عتاة، ما الذي كانوا يشعرون به يا ترى؟

أكل هذا يُعد أسوأ من أن يخونني صديق موثوق به، واضطراري إلى أن أحمل عبء سر ثقيل للغاية على كاهلي مذ كنت طفلة غريرة؟ أهذا أسوأ من أن أكون متلهفة على إخبار الجميع، ووضع حد وإيقاف هذه المهزلة، لكنني أُجبَر على العيش كل يوم مرعوبة مما قد يحدث إن

أخبرت أحدًا؟ لم أتمكن قط من معرفة الإجابة عن هذا السؤال، لكن هذا هو ما أعرفه: الطفولة يمكن أن تموت مرة واحدة فقط.

كان اليوم الذي فقدت فيه طفولتي قد بدأ دافئًا، واعدًا إيانا بقضاء وقت لطيف تحت أشعة الشمس.

في صباح ذلك اليوم الخريفي أيقظتني أشعة الشمس الذهبية. طرفت بعيني عدة مرات قبل أن أستوعب ما يحدث، ويفتر وجهي عن ابتسامة رضا عريضة. رأيت من نافذتي أن الغيوم الرمادية الكئيبة التي احتلت السماء طوال الأسابيع الماضية، وأبقتني حبيسة المنزل قد اختفت، وأن السماء صارت زرقاء صافية. وأصبحت في كامل يقظتي حينها.

رفعت غطاء السرير من فوقي، وغادرت فراشي، وتوجهت إلى النافذة على أطراف أصابعي، بأكبر قدر ممكن من الخفة، كيلا تصر ألواح الأرضية من تحتي، فأوقظ أمي.

كان ذلك اليوم هو صباح السبت، وقد غادر أبي إلى المزرعة بالفعل. ولرغبة أمي في منح نفسها بضع ساعات إضافية من الراحة قبل أن يستيقظ أطفالها ويطالبون باهتمامها الكامل، عادت إلى فراشها لتنام.

تطلعت من النافذة فوجدت السماء الصافية الخالية من الغيوم، وقرص الشمس مشرقًا. كان الندى قد حوَّل العشب إلى سجادة خضراء لامعة تزينها نباتات الهندباء الصفراء، وقد نسجت العنكبوت شباكها بين الشجيرات فبدت تشبه قطعة من الدانتيل الرقيق تلمع وتتلألأ تحت الشمس.

أخذت أرجوحة الجيران تتأرجح برفق مع النسيم اللطيف كما لو أن هناك يدًا خفية تدفعها. ألصقت وجهي بالنافذة وشاهدت من بين

الستائر قِط المزرعة العجوز يتسلل من تحت الشجيرات ويتمدد تحت الشمس الدافئة بكسل.

ومن على بُعد كنت أرى ضبابًا خفيفًا لا يزال يغلف الحقول. سيكون هذا يومًا حارًّا.

قررت أنني لن أفوِّت على نفسي هذا اليوم الرائع، وارتديت ملابسي على عجل.

في الغرفة الصغيرة المجاورة لي، سمعت أخي يدق قضبان مهده مطالبًا بالانتباه بعدما سمع حركاتي، إلا أنني تجاهلته، ونزلت الدرج بهدوء، وفتحت الباب الأمامي، ووقفت أمتع عيني بهذا الصباح الخريفي المشمس.

خرجت إلى الحديقة حافية القدمين، وشعرت ببرودة العشب تحت قدمي، ثم فردت ذراعي ورحت أدور حول نفسي بخفة ومرح. وبعد عدة دقائق، عدت إلى المنزل على مضض كي أبدأ مهامي المنزلية.

كانت الحفاضات القماشية ترقد في دلو خاص بها بانتظار غسلها، حاولت كتم أنفاسي وأنا أمسح الغرفة كيلا تصلني رائحتها النتنة. تطلعت حولي فوجدت طبقة من الغبار والشحوم قد استقرت على جميع الأسطح، أطباق عشاء الليلة السابقة مكدسة في الحوض القذر. حسنًا، كانت مهمة غسل الصحون في إمكاني على كل حال. تنهدت وأنا أملأ الوعاء بالماء الساخن، ثم التقطت قطعة خيش كنا نستعملها للتنظيف، وبدأت في فرك الصحون. تركت لأمي الطناجر لعدم قدرتي على غسلها بسبب ثقل وزنها.

ولكن لم يكن هناك شيء قادر على إفساد سعادتي في هذا اليوم، ولا حتى عندما هبطت أمي الدرج بشعر مشعث، وآثار النوم لا تزال جلية

على وجهها. كانت أمي تحمل أختي على ذراع وتجر أخي بالذراع الأخرى. سلمتني أخي كي أغير له ملابسه وأطعمه، فأنجزت المهمة بأسرع وقت ممكن. وعندئذ استأذنتها كي أصطحبه للخارج. جلستْ أمي تحتسي الشاي وتدخن سيجارة. ثم بدأت في إطعام أختي الرضيعة.

وبينما كنت أجلس على عتبة الباب أراقب ستيفي وهو يلعب بمرح في الحديقة، سمعت وقع أقدام على الحصى، ضيقت عيني بسبب وهج الشمس، ولما حدقت أمامي جيدًا رأيت الجار يقترب. كان الكلبان اللذان حصل عليهما في الآونة الأخيرة يتقافزان حول قدميه؛ كلب ترير أبيض قصير الشعر، وآخر هجين أسود وذهبي اللون لا يكف عن النباح. وفي إثر الرجل وكلبيه كان ابنه وابنته الصغيران يسيران خلفه بخطوات متعثرة.

صاح أخي:

- كلب جميل!

ومد ذراعيه ليربت على كلب الترير والابتسامة تضيء وجهه البريء. كافأه الكلب بلعق وجهه المتورد مزيلًا فتات الإفطار المتبقي من فوقه. لم أهتم بالكلبين أو الطفلين، وانتظرت في مكاني بصمت كي أعرف ما الذي كان الجار يريده.

بعد دقيقة سمعت الجار يقول:

- رأيت أن علينا الذهاب جميعًا في نزهة اليوم. من الحماقة أن نضيع على أنفسنا يومًا جميلًا كهذا. لا أحد يعرف متى سيجيء يوم مثله مرة أخرى. ابتسمتُ مؤيدة ما كان يقوله. أسعدني اقتراحه أيما سعادة. كانت النزهة تعني الاستمتاع بالطعام اللذيذ دون الاضطرار إلى غسل الأطباق.

نادى الجار أمي وحياها بصوت مبتهج. في تلك اللحظة كانت أمي تشرب فنجانها الثالث من الشاي. أخبرها الجار أن زوجته دورا طلبت منه أن يريحها قليلًا من صخب الطفلين.

واستأنف قائلًا:

- يمكن أن تجلب ماريان ستيفي معها، ويمكنكِ أنتِ الذهاب إلى منزلنا. دورا لن تفعل شيئًا اليوم. يمكنكما قضاء وقت لطيف معًا.

لم تحتج أمي إلى مزيد من الإقناع بعد سماع هذه الكلمات. سيزيح هذا عنها عبء إطعام فمين، وستحظى كذلك بالحرية لتناول الشاي والثرثرة، دون مشاغبة من الصغار وطلباتهم التي لا تنقطع. وحتى إن بقيت أختي الصغيرة مستيقظة، فإنه كان يكفيها تناول زجاجة حليب أو امتصاص دمية مغموسة في المربى، وتركها فوق بطانية بالقرب.

بعد مضي ساعتين، وصل جارنا بصحبة طفليه وكلبيه، حاملًا سلة ملآنة بالطعام والمشروبات الغازية. أخذنا عربة الأطفال السوداء القديمة لنضع فيها الصغار الثلاثة عندما يتعبون من المشي أو اللعب، وبدأت أدفعها أمامي، وانطلقنا جميعًا إلى الممر.

وصلنا إلى الطريق المؤدي إلى البركة بعد قليل. أسير وقدمي تسحق ورق الشجر الذابل، الذي كان قبل بضعة أشهر فحسب يغطي الأغصان بلون أخضر نضِر. في ذلك اليوم، أخبرني صوت تكسر الورق اليابس أنه حتى لو استيقظت الحشرات بسبب دفء اليوم، وحامت حول رؤوسنا، متوهمة أن الصيف قد حل، فإن الشتاء في الواقع كان قاب قوسين أو أدنى.

نحيت ذكريات النهارات القصيرة والليالي الباردة جانبًا، وأبعدت عن خاطري كل الصور التي كنت أرقد فيها مع الجار في سيارته المتوقفة أو البيوت المهجورة. اليوم كان مكافأتي أخيرًا. إنني أتنزه في مكاني المفضل مع صديقي المفضل. وكما لو أنه قرأ أفكاري، ابتسم لي، تلك الابتسامة الدافئة العريضة التي تجعل التجاعيد الرفيعة تظهر في زاويتي عينيه، الابتسامة التي اعتقدت وقتها أنها مخصصة لي وحدي. غمرتني موجة عارمة من السعادة، وابتسمت من جديد.

بمجرد وصولنا إلى البركة، خاطب الجار الصغار الثلاثة قائلًا:

- دعونا نبحث عن جحور الأرانب.

لم يفهم الصغار ما يقصده تحديدًا، فتطلعوا إليه بهدوء. اقتاد الجار الصغار بعيدًا من موقع النزهة المختار، ووجد لهم جحر أرنب صغير، وأجلسهم أمامه. أوضح الجار لهم أن الأرانب ذات الفراء الأبيض الناعم والذيول البيضاء المستديرة، تعيش مع عائلاتها في هذه الجحور، مثلما تعيش لدينا في الأقفاص، وأن الصغار إذا كانوا محظوظين سيرون الأرانب تدخل أو تخرج من هذا الجحر، لكن فقط إن ظلوا هادئين ولم يتحركوا.

تابع يؤكد لهم أنه في أثناء قيامهم بذلك سيُعِد معي الطعام والشراب. كان عليَّ أن أخمن حينها أنها كانت مجرد ذريعة لإبعاد أعين الصغار الثلاثة عنا. كان يمكن لكلبيه أن يطاردا أي أرنب ويخرجاه من جحره قبل أن تتاح له الفرصة لهز أذنيه. لكن دفء اليوم خدعني، وجعلني أرى في فكرته وجاهة. ولما رأى الملل ظاهرًا على وجوه الصغار الثلاثة، وعدم رغبتهم الواضحة في متابعة التطلع إلى حفرة صغيرة في الأرض، أشار إلى سلة الطعام بمرح، وهتف قائلًا:

- هل تعرفون ماذا لدي في هذه الحقيبة؟

في انسجام تام تحركت ثلاثة رؤوس يمنة ويسرة علامة النفي.

- في هذه الحقيبة آيس كريم!

افترت الثغور الثلاثة عن ابتسامات عريضة.

تابع بصرامة:

- لكنكم لن تحصلوا عليه إلا إذا لزمتم أماكنكم وانتظرتم خروج الأرانب من مكامنها.

ثم منح كل صغير منهم قطعة من الحلوى.

بعدها جذبني الجار من كوعي، وقال:

- تعالي يا ماريان، دعينا نجهز كل شيء.

عند شعوري بيده تمسك بي بهذه الخشونة، بدأ دفء اليوم يتبخر.

في ذلك اليوم، عندما دفعني الجار على العشب، لم تكن هناك قبلات خفيفة، أو دروس جديدة في الكيفية التي يقبل بها الكبار بعضهم بعضًا. هذه المرة أخبرني أن الدرس هو «المعاشرة»، وسألني إذا كنت أعرف معنى هذه الكلمة.

وتابع لما هززت رأسي نفيًا:

- ألا تعرفين؟ حسنًا، لقد حان الوقت لأعلمكِ إياها عمليًّا.

وضع الجار ذراعه فوق صدري، مانعًا إياي من الحركة. شعرت بألم في ظهري بسبب الحجارة الصغيرة المنتشرة على العشب، وخشونة ذلك العشب تحت جسدي وهو يجردني غصبًا من ملابسي. علمني الجار يومها معنى كلمة «معاشرة». في الواقع، لقد تعلمت في ذلك اليوم كيف يمكن لشخص أن يقتل شخصًا آخر بأشنع الطرق وأحطها. وضع الجار

يده على فمي مسكتًا بذلك احتجاجاتي وصرخاتي، وإن لم يستطع إسكات الوجع الذي كان يمزق جسدي. بقيت جامدة في مكاني أتطلع إلى السماء الزرقاء بعينين كالزجاج. سمعته بعد هنيهة يطلب مني أن أنظف نفسي. عدت إلى الواقع، واقتلعت حزمة من العشب وحاولت تنظيف نفسي بلا طائل. أعدت ارتداء ملابسي بيدين مرتعدتين.

سأل الجار:

- هل أعجبكِ هذا؟ هذا يعني أنك لم تعودي فتاة صغيرة.

لم تكن لدي كلمات يمكن أن أجيبه بها. ولما رأى وجهي ملطخًا بدموع طفولتي التي ولَّت بلا رجعة، احتضنني بين ذراعيه، ثم همس:

- هذا هو ما يفعله الرجال، وهم لا يفعلونه إلا مع الفتيات المميزات بالنسبة إليهم.

وسرعان ما نادى الجار الأطفال كي يتركوا جحر الأرنب ويقبلوا إليه، وأخرج الآيس كريم الموعود من علبة بيضاء مخصصة لحفظ الطعام، ووضعه على أطباق من الميلامين، ثم منحهم إياها. كان الآيس كريم قد ذاب بالفعل، بيد أن الأطفال لم يمانعوا. أحاط الجار كتفي بذراعه مرة أخرى، وشعرت بثقلها، إلا أن الشجاعة لم تواتني بما يكفي لإزاحتها بعيدًا.

راح الجار يربت مرارًا على ظهري، ويدعوني سيدته الصغيرة، ويطعمني بيده. أمرني بلطف:

- كلي.

فتحت فمي وابتلعت شيئًا لا أذكره الآن، لكنه كان مرًّا كالحنظل. عند عودتنا إلى المنزل في وقت لاحق، كان الأطفال ينامون في العربة وهو الذي يدفعهم، وسرت أنا خلف الجميع، ومع كل خطوة كنت أخطوها، كان كل مكان من جسدي يؤلمني.

سألتْ أمي:

- حسنًا، هل استمتعتم بنزهتكم اللطيفة؟

وجدت أنها تجاهلت تمامًا صوتي الرتيب الخالي من حماسه المعتاد وأنا أحدثها.

أجبتها باختصار:

- نعم.

ثم خرجت من الباب الخلفي إلى حيث المرحاض الخارجي. خلعت ملابسي الداخلية، وغمرتها في الماء، ثم رحت أفرك آثار الدم والوسخ عن جسدي بأكبر قدر ممكن من القوة. ثم عصرت ملابسي الداخلية كي أجففها بأكبر قدر ممكن، وبعدها ارتديتها مرة أخرى.

في تلك الليلة بينما كنت مستلقية على السرير وعيناي مغلقتان، أبصرت بعين خيالي صورة امرأة معلقة من حبل حول رقبتها، تتأرجح إلى الأمام والخلف. بيد أن شعرها لم يكن أشقر، ووجهها لم يكن جميلًا. كان شعرها بنيًّا، ووجهها هو الوجه نفسه الذي كنت أطالعه في المرآة كل يوم.

سألت نفسي: لمَ لَم تستطع أمي تخمين ما حدث؟ جعلت هذه الفكرة الغضب يسري في جسدي وينافس الخوف المزروع فيه. جلست، وعقدت ذراعي، ورحت أهتز للأمام والخلف، وأضرب رأسي بالحائط، وأقرص وأخمش بأصابعي المنطقة الحساسة أسفل ذراعي. كان الألم الناتج عن تلك القرصات يخفف غضبي، غضب جامح أحال عالمي أسود حالكًا، لا يعيش فيه إلا المجرمون القساة. رحت أضغط وأقرص دون أن أبالي قيد أنملة بالكدمات التي ستظهر على ذراعي في الصباح. كانت كدمات صغيرة لها شكل بصمات أصابع طفلة شديدة النحول.

# الفصل التاسع عشر

كثيرًا ما تساءلت عما كان الحال سيؤول إليه إن لم يدخل ديف إلى حياتنا، لكنه فعل، ومنذ اللحظة التي قابلته أمي فيها تغيرت الأحوال في منزلنا تغيرًا واضحًا. أصبحت أمي مشتتة الانتباه معظم الوقت، ولم تمنحني حتى فتات الاهتمام الذي كانت تتصدق عليَّ به في الماضي. لقد بدأتُ أجد مبررًا لتقلباتها المزاجية وطباع أبي الحادة. أخيرًا.

قبل ظهور ديف ظلت الحياة لعدة أشهر هادئة نوعًا ما. كنا نجني بعض المال الإضافي، وكان لوجود صديقة في الجوار أثر واضح على أمي، حيث جعلها أكثر رضا وقناعة. وعلى الرغم من أنها كانت لا تقوم بالكثير من الأعمال المنزلية، فإنها استمرت في تقديم وجبات ساخنة لذيذة لنا على نحو منتظم. لم يفكر أبواي في شراء أثاث جديد أو حتى فراش، لكنهما اشتريا أكبر تلفاز أبيض وأسود في السوق. كنا نضعه بالقرب من المدفأة، وعادة ما كان يتم ضبطه على المحطة الرياضية، وبدا أن هذا أغرى أبي بالمكوث معنا، ما قلل بالتبعية زياراته إلى الحانة.

لقد أجاد جارنا اختيار توقيت خطوته النهائية، ربما دون أن يدري هذا حتى. وفي جميع الأحوال لم يكن تأثير هذه الخطوة ليختلف لو كان قد خطط لها ودبرها بعناية.

كانت هدنة السلام في منزلنا تقترب من نهايتها.

ما لاحظته في البداية كانت ثورات أبي الجامحة.

لقد اعتدتُ منذ الثالثة من عمري مواجهة نيران غضبه المشتعلة. كانت تتأجج مع أي استفزاز بسيط، كما لو أن هناك شيئًا مظلمًا بداخله يغذي هذه النيران ويذكيها، شيئًا يخرج عن نطاق سيطرته. ولكن مع مرور الأسابيع ومع غياب أي علامات تذكر عليها، اعتدت غيابها.

بيد أنها فجأة، ودون أن أفهم السبب، عادت على نحو أسوأ من ذي قبل، ومعها عاد خوفي منه. كنت أشعر بالغضب المكتوم في الطريقة التي يحرك بها كتفيه، والطريقة التي يسير بها، بل وحتى الطريقة التي يأكل بها. كانت تعابير وجهه عدوانية، ونبرات صوته مخيفة. حاولت تجنب أبي قدر ما استطعت، وقد أصبح هذا أسهل بعد أن بدأ في قضاء معظم أمسياته في الحانة من جديد. عندما كنت أستلقي على فراشي في الليل، كنت أسمع خطواته المتعثرة على الحصى، ثم الباب وهو يفتح، وصيحاته الشرسة، يتبعها صفقُه للباب، وصرير الدرج تحت قدميه، ثم صوت شخيره المرتفع.

في ذلك الوقت أردت أن تنتبه أمي لدلالات اكتئابي، فتسألني عما ألمَّ بي. لكنني وجدتها مشغولة البال بأشياء أخرى، ففشلتْ في ملاحظة حالي، وتركتني أحمل عبء قلبي الثقيل وحدي.

حاولت قدر المستطاع أن أتجنب البقاء بمفردي مع جارنا. تعذرت مرارًا بحاجتي إلى العودة سريعًا إلى المنزل كي أساعد أمي في العناية بالطفلين، ولكن في كل مرة كنت أتخلص فيها من مأزق كنت أتورط في آخر.

توسلت إلى أمي ألا تذهب للتسوق مع دورا يوم السبت، بما أن جارنا لم يكن يعمل في ذلك اليوم، لكن مناشداتي لم تلق إلا آذانًا صماء.

هتفت أمي بفارغ الصبر عندما اعترضتُ على البقاء لمراعاة جميع الأطفال، بما أن دورا ستترك طفليها معي هي الأخرى:

- بربكِ يا ماريان، لا تكوني أنانية. أنتِ تعرفين أنه اليوم الوحيد الذي يمكننا الخروج فيه، وسيبقى طفلا دورا معكِ لوقت قصير، فقط إلى أن يأتي أبوهما لأخذهما.

كنت أعرف هذا، وهذا بالضبط هو ما كنت أحاول تجنب حدوثه.

في جميع أحوال الطقس في أيام السبت، كنت أحاول إبقاء الصغار داخل المنزل رغبة في حماية نفسي، لكنهم بالطبع لم يمتثلوا لطلبي. وما إن تلحق أمي وصديقتها بالحافلة المتوجهة إلى المدينة، كان الباب الخلفي ينفتح وأجد الجار في الغرفة معي. كنت أسمعه يهتف بابتسامة ظافرة:

- لقد انتهيتُ من العمل باكرًا اليوم.

وبمجرد أن يرَى الصغار الباب مفتوحًا، كانوا ينطلقون من فورهم إلى أرجوحة منزل الجيران. كنت أعلم أنني سأسمع كلمة «معاشرة» مرة أخرى. كان الجار يصيح في الصغار مؤكدًا:

- عليكم البقاء في الحديقة.

ثم يغلق الباب الأمامي. كان يفضل أن نفعلها على الأرض خلف الأريكة المتهالكة. كان السبب الذي يخبرني به هو أن هذا المكان يوارينا عن الأنظار، قبل أن يشدني غصبًا لأرقد وإياه على المشمع البارد. لكنني أخمن أن انزعاجي الشديد من ذلك المكان هو السبب الحقيقي، فلقد كان يزيد من استمتاعه بالأمر.

لطالما أخبرتني أمي أنني لا أستطيع إخفاء أي شيء عنها، فنظرة واحدة إلى وجهي كانت تعلِمها بكل شيء ترغب في معرفته. وبطريقة

ما توهمتُ أن تضاؤل مقدار الوقت الذي كانت تقضيه معي كان بسببي. لقد افترضتُ أنها اكتشفتْ أنني أفعل شيئًا شائنًا.

غير أني كنت لا أزال راغبة في أن تقر أمي بتلك العلَّة في حياتي. ألم تلحظ اكتئابي؟ ألم تنتبه إلى زوال ضحكاتي، وعبوس وجهي؟

أردتها أن تسألني عما كنت أفعله عندما أذهب في النزهات إلى الحقل أو البركة بصحبة الجار. ألم تره يتتبعني في كل خطوة أخطوها؟ ألم تجد أي خطأ في كل تلك المرات التي دعاني فيها إلى ورشته؟

كنت أبدأ:

- يا أمي...

وكانت تقاطعني:

- ليس الآن يا ماريان.

فتموت بداخلي بذور الشجاعة الصغيرة التي كانت تحثني على الاعتراف بكل شيء.

في كل مرة كان جارنا يقابلني في الحقول أو ينتظرني أمام المدرسة، كان يجبرني على فعل الشيء الذي لم أكن راغبة في القيام به. كان شعوري بالذنب يتعاظم، وأصمت صاغرة من جديد. ذات مرة بادرني بقوله إنني إن لم أكن أشعر بأنني مذنبة مثله تمامًا، فلمَ لا أحاول دفع يده بعيدًا، أو الركض إلى أمي لإخبارها بما حدث من البداية؟ وأضاف مؤكدًا:

- إنكِ تعلمين يا ماريان أن الناس سيلومونكِ مثلما سيلومونني. تذكري ما حدث لتلك المرأة الجميلة روث إليس.

فــي كل مــرة كان يســمعني فيهــا هــذه الكلمــات، كان الخــوف يســتحيل فــي حلقي إلــى غصة بحجم قبضــة يدي الصغيــرة، فتختنق الكلمــات، وتأخــذ الرعدة بجســديَ.

وعندئذ كان يحيطني بذراعيه، ويملس على شعري، ويهدئ من روعي، ويهمس بالكلمات الناعمة الحنون إلى أن أسكن تمامًا. بيد أنه في الليل، بعدما تنطفئ الأنوار، كنت أرقد مستيقظة في الظلام، وتتابع ذكريات ما فعله بي في ذهني، وتعود مشاعر الخوف والوحدة من جديد. وحينما كان التعب يجبر عيني على الانغلاق في آخر الليل، كانت الكوابيس تغزو نومي؛ دُمى مكسورة بأعناق مائلة، تتأرجح للأمام والخلف من حبل طويل، وأفواه ضخمة تهدد بخنقي، ورجال يرتدون عباءات حمراء يصيحون في وجهي ويقولون إنني فاسقة ويجب أن أموت.

كان شعوري بالعار هو الذي أبقى فمي مغلقًا، ورأيتُ أنه إذا سألتني أمي عما ألمَّ بي، فهذا يعني أنها تريد أن تعرف، ففكرت في طريقة صامتة أخبِّرها بها. قصصت صور النساء من المجلات، ورسمت دوائر حمراء فاقعة حول أجزاء أجسادهن الحساسة، ثم وضعت تلك الصور في أماكن كان لا بد أن تُلاحظ فيها. فقد ألصقتها فوق الصور الموجودة بالصحف التي في المنزل، كي أبرزها وأظهرها تمامًا لأي عين تقع عليها. لم أفكر فيما قد يحدث إن رآها أبي، أو انتبهت إليها دورا عندما تزورنا. كل ما أردته وقتها هو أن أخبر الناس بما كان يحدث لي.

إلا أن أحدًا لم يعلِّق!

وازدادت معاناتي يومًا بعد يوم. فمن جهة لم يَعُد لدى أمي أي وقت لي، ومن جهة أخرى لم أجد طفلًا واحدًا يعترف بوجودي في المدرسة. كما أن نوبات غضب أبي بدأت تزداد وقتها، ويزيد معها ارتياعي. كان

جارنا هو الصديق الوحيد المتاح أمامي، أو بالأحرى كان هو الشخص الوحيد الذي توهمت أنه صديقي الحقيقي.

في ذلك الوقت لم ألحظ السبب الذي جعل وقت أمي ضيقًا لهذه الدرجة، فلم تعد تعيرني انتباهًا. لم يكن هذا بسبب أي شيء فعلتُه كما توهمتُ، بل بسبب ظهور شخص آخر في حياتها. في ذلك الوقت كنتُ متدثرة بعباءة اليأس السوداء، فلم ألحظ ما كان يدور من حولي.

عندما قابلتُ ديف للمرة الأولى لم يكن لدي أي فكرة عن الخراب الذي كان سيسببه وجوده في منزلنا. لقد كان أحد المديرين في المزرعة التي كان يعمل فيها أبي. كان رجلًا طويل القامة في أواخر الثلاثينيات من عمره، ذا شعر أحمر ومنكبين عريضين وعينين خضراوين لامعتين، وفم تعلوه ابتسامة عريضة دائمة. مهذبًا، مهيب الطلعة، من النوع الذي تقع في غرامه النساء، أو على الأقل كان كذلك بالنسبة إلى أمي، التي كانت متزوجة برجل لا يبالي بها في كثير أو قليل.

في اليوم الذي دخل فيه بيتنا لم أشغل نفسي بالتفكير به. كان مجرد أحد الكبار الذين يزوروننا، ويسألونني عن حالي، ويبدون بعض الاهتمام لجوابي. كان قد أوصل أبي إلى المنزل بعد العمل، فدعاه أبي لتناول فنجان من الشاي. ما لاحظته وقتها هو أنه كان يتحدث على نحو مختلف عن أي شخص آخر أعرفه، فدون أن يرفع صوته، بدا هذا الصوت للسامع أعلى من صوت أبي، وأكثر ثقة منه بكثير. بدا صوت ديف وكأنه يملأ الغرفة وهو يشكر أمي على كرم ضيافتها، ويشيد بكعكاتها اللذيذة. وفي النهاية صافح الرجل أبي وغادر بهدوء.

قال أبي بمجرد مغادرة ديف:

- أليس رجلًا صالحًا؟! أؤكد لكم، ليس به ذرة من الغرور أو الادعاء، هذا عدا أخلاقه الحميدة. إنه بكل تأكيد لا يشبه بقية الأوغاد خريجي كلية الزراعة، أولئك الذين يتوهمون أنهم يعرفون عن الزراعة أكثر مما نعرف جميعًا.
- نعم، لقد بدا لطيفًا جدًّا فعلًا. (كان هذا هو كل ما قالته أمي في ذلك اليوم).

وخلال تعاقب الأسابيع التالية بدأت أرى ديف كثيرًا. كنت أجلس بهدوء في ركن قصي بالمنزل، وأُلبس دماي ما كنت أصنعه لها من أردية صغيرة، وأتنصت على أحاديث الكبار. وبدأت أعرف المزيد عنه تدريجيًّا؛ لقد انتقل مؤخرًا إلى المنطقة، وكان متزوجًا وأبًا لفتاتين صغيرتين تذهبان إلى المدرسة نفسها التي أذهب إليها. كنت أعرف طفلتيه، ليس لأنهما كانتا تتحدثان معي، ولكن لأني أحيانًا كنت أراه بصحبة زوجته الجميلة داكنة الشعر، ينتظران البنتين عند بوابة المدرسة.

بدأ ديف في ارتياد الحانة نفسها التي يذهب أبي إليها، وعند العودة كان يثبت دراجة أبي فوق سيارته، ويصطحبه إلى المنزل. وبعدها لاحظت أنه بدأ يتردد علينا في أوقات يعلم أن أبي يكون فيها خارج المنزل. وبسبب مشكلاتي وأحزاني الخاصة، لم أرَ في هذا شيئًا غريبًا، على الأقل في البداية.

بل إنني لم ألحظ وقتها العناية التي بدأت أمي توليها لمظهرها، إذ بدأت تضع المكياج بعناية، وتغسل شعرها وتمشطه جيدًا، بل وبدأت في تنظيف غرفة المعيشة وترتيبها. لم يعنِ ذلك أن تنظيف الأواني والمقالي قد أثر كثيرًا على الفوضى التي كنا نعيش فيها، ولكن على

الأقل أصبحت الأسطح نظيفة، ولم تعد هناك حفاضات قذرة تتراكم في الدلو القابع بجوار الحوض.

مع تواتر زياراته، خلصتُ إلى أنني لا أحب ديف. لم تعجبني الطريقة التي يتغير بها صوت أمي في وجوده، وتلويحها بشعرها يمنة ويسرة في دلال، وعلو صوت ضحكاتها عند التحدث إليه. كما لم تعجبني الطريقة التي كان ينظر بها إليها. بدا الأمر كما لو أن كل كلمة كانت تتفوه بها تحمل أهمية كبرى بالنسبة إليه. ودون أن أعي السبب، بدأت ألوم ديف على نوبات غضب أبي المتكررة.

كنت أسائل نفسي: لمَ كان يجيء في الوقت الذي كان أبي غائبًا فيه، ويفسد عليَّ الوقت البسيط الذي كنت أقضيه مع أمي؟ سألت نفسي عندما بدأت عادة مجيئه إلينا مساء كل سبت، الليلة التي كان أبي يغادر فيها دائمًا للمشاركة في سباق الكلاب. قبل أن يبدأ ديف زياراته تلك، كنت أستمتع بهذه الأوقات، فبمجرد أن ينام أخواي الصغيران، كنت أجلس أنا وأمي جنبًا إلى جنب على الأريكة، نشاهد في صمت فيلمًا قديمًا على شاشة التلفاز.

لكن وجود ديف أوقف هذه العادة اللطيفة كلية. بمجرد مغادرة أبي، كانت أمي تصعد إلى الطابق العلوي، وتعود بعد نصف ساعة مرتدية فستانًا مختلفًا، وعلى الرغم من أنها في العادة كانت تعقد شعرها على شكل كعكة في مؤخرة رأسها، فإنها في ذلك اليوم كانت تمشطه وتتركه مرسلًا، وتزين وجهها بالمكياج الثقيل. كنت أراقبها وهي تتطلع من النافذة، وعندما أرى الابتسامة تعلو وجهها، وتحيلها إلى امرأة أصغر سنًّا وأقل قلقًا، كنت أعرف أن ديف وصل.

كانت تهتف بلهفة ساعتها وتقول:

- لقد حان الوقت للذهاب إلى الفراش يا ماريان.

دون أي تبرير من جانبها لاضطراري إلى الذهاب إلى النوم قبل ساعة من موعدي المعتاد. كنت أحملق في وجهه المبتسم دائمًا بحنق واستياء، قبل أن أصعد إلى غرفتي بخطوات غاضبة محبطة.

أدركت تدريجيًّا أنني لم أكن الوحيدة التي تستاء من حضور ديف المتكرر. لقد تغير رأي أبي الإيجابي عنه في البداية وأصبح يكنُّ له كراهية تامة.

بدأ أبي يسألني تدريجيًّا:

- هل كان ديف هنا؟

ولأنني لم أرغب في أن يكشف كذبتي، وكنت في الوقت نفسه أفهم أنني إن أجبت بنعم ستقع أمي في مشكلة، كنت أغمغم بأنني أنام مبكرًا ولا أعلم إن كان يأتي أم لا. كان يرميني بنظرة مكذِّبة كلما سمع مني مثل هذا الرد. وذات مرة رأيته يتفحص الحصى المفروش أمام مدخل منزلنا، كي يستبين ما إذا كانت عليه آثار للزيت قد خلفتها سيارة ديف.

سمعته يصرخ في وجه أمي في أكثر من مناسبة:

- إذا أمسكت بهذا اللقيط الخائن هنا مرة أخرى فإني سأقتله.

وقد أملتُ أن يمسك أبي بديف، لا لأني صدقت تهديداته، بل لأني اعتقدت أن هذا قد يجعل ديف يختفي من حياتنا. وهذا هو ما كنت أريده.

لكن لسوء حظي، عندما ظهر ديف في المساء الذي كان أبي فيه في المنزل، فإنه عوضًا عن الشجار الذي توقعته، قدم له أبي كوبًا من الشاي بابتسامة ودود. لم أكن أعرف معنى كلمة «جبان» في ذلك الوقت.

# الفصل العشرون

حملت أمي مرة أخرى. لم يكن باستطاعتها مداراة ذلك؛ كان أبي يعرف الفرق بين زيادة الوزن والبطن المنتفخ بالحمل.

لاحظ ذلك ذات مساء. كان قد جلس لتناول عشائه وكانت منحنية على الطاولة تملأ طبقه بالبطاطس، ما جعل فستانها يلتصق بجسدها بإحكام. رفع أبي عينيه وحدق مباشرة إلى بطنها.

وما لبث وجهه أن احمر بشدة، واتقدت عيناه بالغضب وهو يتطلع إليها غير مصدق ما يراه.

وأخيرًا صاح:

- أيتها العاهرة الملعونة! إنه ابنه، أليس كذلك؟

وضرب بقبضته على الطاولة. عند سماع الحقد في صوته، أخذتني رعدة، وأصبح جسدي في برودة الثلج.

امتقع وجه أمي، وارتعدت شفتاها وهي تحاول إجبار نفسها على قول «لا».

- لا تكذبي عليَّ أيتها العاهرة! انظري إليَّ.

تساقطت الدموع من عيني أمي، وصاحت:

- لا! لا يا بيرت! إنه ابنك.

حاولتْ الركض إلى الباب، لكنه كان أسرع منها. ارتد كرسيه إلى الخلف في لحظة، وتهاوت الصحون على الأرض عندما نهض من على الطاولة، وفي لمح البرق أمسك أبي بشعرها وشده حتى علت صيحتها.

ثم انهمرت لكماته على وجهها، كان للصوت الذي تحدثه أثر رهيب عليَّ. أخذت أنتفض ولا أدري ما الذي أستطيع أن أفعله. ارتفعت يدا أمي لحماية وجهها من لكماته وحاولت الانحناء، إلا أن قبضة يده على شعرها أبقتها واقفة منتصبة بينما أخذ يمطر رأسها وذراعيها باللكمات.

وبدأ الصغيران يصرخان في فزع.

ألقى أبي بأمي على الأرض، وانحنى فوقها، واستمر في لكمها وركلها، وهي عاجزة عن حماية نفسها بأي سبيل، كل ما استطاعت فعله هو التكور على نفسها وحماية بطنها بيديها. علا نشيج أمي واستمرت تتوسل إلى أبي كي يتوقف.

انكسر شيء بداخلي حينذاك. أدركت أن عليَّ الخروج من ذلك المنزل، والابتعاد عن تلك المعركة الوحشية التي تدور أمامي، عن ذلك الشيء الذي لا يجب إجبار الأطفال على رؤيته أو سماعه. منحني اليأس والرغبة في الابتعاد ما يكفي من القوة لرفع أخي من فوق كرسيه المرتفع، على الرغم من أنه كان طفلًا سمينًا حقًّا. ثم رفعته مرة أخرى إلى عربة الأطفال، وحملت أختي من فوق كرسيها ووضعتها إلى جواره.

فتحت الباب، ودفعت عربة الأطفال إلى الخارج. لم ألجأ للمكان الوحيد الذي كان بإمكاني الحصول على المساعدة منه؛ أي منزل الجيران، بل انطلقت إلى الطريق الرئيسي متجاهلة صراخ الصغيرين، وواصلت دفع قدمي إلى الأمام واحدة تلو الأخرى بكل عزم وتصميم.

لم يكن بوسعي فعل أي شيء، ولم يكن هناك ما يمكن أن يوقف أبي عما يفعله. كل ما أردته هو الابتعاد عنهما قدر الإمكان، الفرار إلى مكان لا أستطيع فيه سماع الصراخ والعويل والنحيب. أملت حينها أن يأتي أي شخص ويأخذني من هنا، ويوصلني إلى منزل نظيف، فيه أُمٌّ تستمع لي، وأب يهش في وجهي، منزل لا يقبل زيارات من ديف أو الجار. كم كانت حياتي ستصبح مختلفة لو حدث شيء كهذا!

بدأت قطرات مطر صغيرة تتساقط على وجهي، وكأنها تبصق عليَّ هازئة بأحلامي الساذجة، ولكني واصلت السير، وواصلت قطرات المطر هطولها على وجهي واختلطت بدموعي.

وفجأة سمعت أبي ينادي باسمي. التفت ورائي فرأيته فوق دراجته على بعد بضعة أمتار من خلفي. لقد جاء بحثًا عنا.

هتف أبي قائلًا:

- عودي إلى المنزل يا ماريان.

هذه المرة كان يتحدث بهدوء كما لو أن غضبه قد استنزف كل طاقته في نهاية المطاف. وأضاف دون داعٍ:

- وخذي الطفلين معكِ.

بينما كان يتحدث لاحظت أن وجهه كان مثل وجهي، مبللًا بالمطر والدموع، وللحظة أردت أن أمد ذراعي وأربت عليه. ثم تطلعت إلى يديه؛ يدي المزارع الكبيرتين اللتين تمسكان بالمقود، اليدين اللتين كثيرًا ما رأيتهما تمطران أمي باللكمات. وحينها تلاشت الشفقة وحل محلها شيء أقرب إلى الكراهية.

تطلعت إلى أبي بعينين تقدحان شررًا. ودون أن أتفوه بحرف، أدرت عربة الأطفال، ودفعتها مرة أخرى باتجاه المنزل.

كان الصغيران يتطلعان إليَّ بتضرع، بوجهين مبللين بالدموع، يعلوهما الارتباك والرعب، وشعرت بموجة أخرى من الغضب تعصف بي. سألت نفسي: كيف يمكن لأبي أن يفعل هذا بهما؟ لماذا يأتون بالأطفال إذا كانوا لا يبالون أصلًا بوجودهم؟ ارتأيتُ أنهم لا يأبهون إلا بأنفسهم، وغمر الحزن قلبي. بقي الغضب يعتمل بداخلي إلى أن وصلت إلى منزلنا ورأيت أمي الملقاة على الأرض بلا حول ولا قوة.

ركضت إلى المنزل المجاور بأسرع ما أمكنني، وما إن سمعتْ دورا صرخاتي حتى فتحت الباب. أمسكتُ بذراعها وتوسلت إليها وأنا أشهق أن تأتي معي. ومن خلفها استطعت أن أرى وجه الجار ينظر إليَّ، لكنني تجاهلته للمرة الأولى. كانت صديقة أمي هي دورا، وهي التي كنت أحتاج إلى مساعدتها في تلك اللحظة.

صاحت دورا عندما رأت أمي لا تزال ملقاة على الأرض مهدودة القوى:

- ماذا فعل والدكِ بها هذه المرة؟

لكنني كنت عاجزة عن فعل أي شيء أو قول أي شيء، فوقفت إلى جوارها عاجزة. ساعدت دورا أمي لتجلس على الأريكة، وأجبرتها على شرب الشاي الساخن الحلو، وأخرجت حوض الاستحمام الصفيح. وملأت وعاءين بالماء، ووضعتهما فوق الموقد، وبينما كنا ننتظر الماء ليسخن، أطعمنا الطفلين المرتاعين ووضعناهما في الفراش.

بمجرد أن امتلأ الحوض بالماء الدافئ، جردتْ دورا أمي من ملابسها وساعدتها على الاستلقاء فيه. وقبل أن تغادر، أعطتني دورا تعليمات بشأن ما يجب أن أقوم به. شعرت وقتها أنني صرت الآن الشخص البالغ

الذي يمكنه بطريقة أو بأخرى المساعدة في حل المشكلات التي يسببها أبي.

أردت أن أهرب من الغرفة، أردت ألا أنظر إلى جسد أمي المشوه بالكدمات في الحمام، لكن حبي لها تغلب على كراهيتي، وأمسكت بقماشة التنظيف وضغطت برفق على كدماتها بينما كانت تحتضن بطنها وتبكي بلا توقف.

لم يَعُد أبي إلا بعد ثلاثة أيام، بذقن غير حليق، يفوح بروائح العرق والبيرة، ولكن الغضب الذي بدا أنه يسيطر عليه في معظم الأحيان كان قد ولى. بل لقد بدا مهزومًا في الواقع. بكت أمي مجددًا عندما رأته، سالت الدموع الثخينة على خديها. ودون أن يتفوه بكلمة ذهب إليها ووضع يده على كتفها، فغطّتْ يده بيدها.

لم يجئ ديف إلى منزلنا مرة أخرى. في بعض الأحيان، كانت سيارته تمر أمامي على الطريق، وذات مرة رأيته يقود جرارًا. وكثيرًا ما كان يلوح لي ولكنني لم أكن أعيره أي اهتمام. توقفت أمي عن النظر من النافذة. أما هذه الابتسامة، تلك التي كانت تضيء محياها قبل وقت قصير، وتحولها إلى امرأة أصغر سنًّا وأقل قلقًا، فقد اختفت ولم يظهر لها أثر مرة أخرى.

# الفصل الحادي والعشرون

بدا أن كائنًا دخيلًا قد استعمر جسد أمي، والذي لم يكتفِ بنفخ بطنها فحسب، بل شن حربًا ضروسًا على بقية أجزاء جسدها، كما لو أنه كان يريد معاقبتها. لقد انسحبت الدماء من وجهها، وصار شعرها المموج أشبه بخيوط متدلية، وانتفخ كاحلاها، وتكالبت الآلام على جسدها وظهرها. والأسوأ من كل ذلك كان الغثيان، الذي لم يكتف بزيارتها في الصباح، وجعلها تقيء معظم ساعات اليوم. لم يتوقف أي من هذا أو يقل بعد مرور الأسابيع الثلاثة عشر الأولى، بل استمرت جميع الأعراض إلى اليوم الذي أنجبت فيه.

وفيما راح الحمل يستنزف قوى الحياة من أمي، فإنه راح يغير من طباع أبي. لقد بدا أصغر حجمًا، وأشد تعبًا. صارت كتفاه متهدلتين من الهزيمة، بعدما كانتا مرفوعتين باستمرار. لم أسمعه يعبر عن شكوكه بخصوص الطفل سوى مرة. كانت أمي يومها جالسة وقد وضعت وسادة خلف ظهرها، وشحب وجهها من التعب.

- لا يهم كم مرة تنكرين، فأنا ما زلت لا أصدق أنني أبو الطفل. إنكِ لم تبدي على هذه الحال من قبل.

ثم تنهد وتابع قائلًا:

- أتذكرين تلك الرقصة التي التقينا خلالها للمرة الأولى؟ لقد كنتِ أجمل فتاة هناك. الآن لم أعد أرى سوى بطنكِ المنتفخ.

كان الحزن الطاغي على كلماته هو ما جعله أشد إيلامًا.

وسمعت أمي تهمس:

- ربما كان عليك أن تخبرني. لمَ لم تخبرني أنك وجدتني جميلة؟

- صحيح، ربما توجب عليَّ ذلك، لكني تزوجتكِ في نهاية المطاف، ألم أفعل؟

ثم نهض واتجه نحو الباب، وكنت أعلم أنه في طريقه إلى الحانة.

في ذلك الصيف الذي كنا ننتظر فيه مغادرة «الدخيل» جسد أمي، كان الجو حارًّا للغاية، ولعله كان أحد أشد فصول الصيف حرارة في حياتي. جعلت الحرارة وجه أمي ينضح بالعرق، والأنفاس تخرج من صدرها لهاثًا. وكان للصيف أثره على أخي وأختي كذلك، فجعلهما كثيرَي الشكوى والتبرم، وهذا بدوره أجبرني على البقاء في المنزل لمدد أطول للعناية بالطفلين. عندما وصلت أمي إلى شهرها السادس، قررت أن توقف نزهات يوم السبت مع دورا، لأنها تصيبها بإرهاق لا قبل لها به في هذه الحالة. ولكل هذه الأسباب تمكنتُ لعدة أسابيع من التملص من الجار.

وُلد الطفل في سبتمبر. هذه المرة ولدت أمي في المستشفى المحلي. أوصلها أبي إلى هناك عندما بدأت آلامها، ثم تركها هناك ورفض زيارتها.

أخذتني دورا من يدي إلى غرفة أمي، وعندما تطلعت بداخل المهد الموضوع بجوار سريريها، اختفت كل مشاعر الاستياء تجاه هذا الطفل غير المرغوب فيه. لم أرَ ساعتها دخيلًا، بل أخًا جديدًا، متناهي البراءة والصغر. وكل ما أردته حينذاك هو أن أحمله.

همست أمي عندما أخبرتها برغبتي:

- لا يمكنكِ حمله الآن، انتظري حتى يكبر قليلًا.

كنت قد سمعت أمي تقول لدورا في أكثر من مناسبة:

- أتوسل إليك يا رب أن يأتي الطفل بني الشعر.

لكن بحسب ما رأيته فإنه لم يكن كذلك، كان الزغب الذي يغطي رأسه بلون النحاس.

سألني أبي عندما عدت:

- هل رأيتِ اللقيط الصغير إذن؟

ولم أدرِ كيف أرد عليه. كنت أعلم أن «لقيط» كلمة سيئة لا يلصقها أحد بطفل، لكنني لم أكن أعلم معناها الدقيق. لم يلحظ أبي شيئًا من ارتباكي، وسألني سؤالًا آخر:

- ما لون شعره؟

أجبت «أحمر»، ولم يطرح عليَّ أبي سؤالًا آخر.

عادت أمي مع الرضيع بعد بضعة أيام. وهتف أبي:

- سمي اللقيط بما تشائين، لكنه لن يحمل اسم عائلتي.

أسمته أمي جاك. كان طفلًا لطيفًا، ونادرًا ما كان يبكي، وكأنه شعر بالحاجة إلى أن يبقى هادئًا بقدر الإمكان عندما يكون أبي في المنزل. في المناسبات النادرة التي كان أبي يسمع بكاءه فيها كان يتمتم:

- ألا فلتخرس أيها اللقيط الصغير!

وكنت أراقب أمي وهي تحمله من فورها، وتهرب به من الغرفة.

وضعوا مهد جاك في غرفة نومي، وكنت أنام على صوت أنفاسه الخافتة، وأستيقظ في كثير من الأحيان على صوت أقدام أمي وهي تتسلل إليه في الساعات الأولى من الصباح لإرضاعه قبل طلوع الشمس.

لم يزد تبريرها على:

- لا أريد إزعاج والدكِ.

لكنني كنت أعلم السبب؛ لقد كان أبي لا يطيق النظر إليه. كنت أراه يتجنب النظر إلى جاك كلما كانت تطعمه أمي. كما لاحظت أنه كان يرضع من الزجاجة، على العكس من أخي وأختي. كنت أعلم أن أبي لا يحب هذا الفرد المنضم حديثًا إلى العائلة، ولكني لم أكن أعلم إلى أي مدى حتى ذلك اليوم الذي غادرتْ أمي لقضاء بعض الحاجات، وتركته في عهدتي لأراقبه وهو راقد في مهده. في ذلك اليوم عاد أبي إلى المنزل في وقت أبكر من المتوقع. وسمعت قدميه تصعدان الدرج، ثم تناهى إلى سمعي ضجيج لم أستطع تمييزه قادم من غرفة نومي، كان أشبه بالاهتزاز في الواقع، وتلاه صوت بكاء أخي.

صعدتُ الدرج ركضًا، فوجدت أبي يهز المهد بحقد وعنف. كان الطفل يبكي وقد احمر وجهه وتشنج من فرط الرعب.

كان أبي يصيح فيه:

- اخـرس، اخـرس، وإلا أصبـح وجهـك الجميـل أزرق كعينيك اللعينتيـن.

توسلت إليه:

- لا يا أبي! اتركه وشأنه يا أبي!

التفت أبي إليَّ، ووجدت نظرة حرج مفاجِئة ترتسم على محياه.

- أنتِ أصغر من أن تفهمي كل هذا يا ماريان.

لقد كان محقًّا. لقد كنت كذلك بالفعل.

أخرجت الطفل من مهده وكان قد بدأ يعوي، وحملته على كتفي، وحدقت إلى أبي بحنق، ثم هتفت:

- إنه مجرد طفل رضيع!

حول أبي نظرته بعيدًا عني، ثم استدار وغادر الغرفة. ولكنه بدا بعد ذلك متقبلًا لوجود جاك على الأقل، وإن لم يكن سعيدًا به.

لم يتغير موقفه تجاه جاك إلا بعد حديث سريع مع أمي. إثر هذا الحديث تحول أبي من رجل يتحمل وجوده بالكاد إلى أب يدلل طفله ويُجلسه على ركبتيه بكل عناية ومحبة.

يومها قالت بابتسامة تحمل شيئًا من الحنين:

- إنه صورة منك عندما كنت صغيرًا.

- ماذا؟ لا تكوني حمقاء! لم يكن لدي شعر أحمر قط!

قالت:

- هذا صحيح، لكن جدك كان شعره أحمر قبل أن يفقده ويصبح أصلع.

في ذلك اليوم سمعته ينطق كلمة نادرًا ما كنت أسمعها تخرج من فيه: «آسف».

يومها اعترفت له أمي أنها كانت سعيدة بمحاولات ديف للتودد إليها، لكن الأمر لم يتجاوز المغازلة والتودد بأي شكل. وقد بدا أبي راضيًا بذلك التفسير. وبعد بضعة أشهر حملت أمي مرة أخرى.

# الفصل الثاني والعشرون

عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الأعوام الستة التي قضيتها، من سن السابعة إلى سن الثالثة عشرة، تأتيني معظم الذكريات مرتبكة مشوشة، لا تخلو مرة من الأذى والحيرة.

أصبح جارنا صديقي ومعذِّبي. وعامًا إثر عام، لم يعد بحاجة إلى التظاهر بأنني «مميزة» بالنسبة إليه. أما عن الحنان الذي أسر قلبي وأنا في السابعة من عمري، فلم يعد يقدم لي منه إلا النذر اليسير. توقف مع الوقت عن مناداتي بسيدته الصغيرة. أصبحتُ مجرد ماريان. إلا أنه بمجرد أن يشعر بالحاجة إلى استعادة سيطرته عليَّ، أو يستشعر أنني أحاول الإفلات من قبضته، كان يعود من جديد إلى اللمسات اللطيفة والكلمات الرقيقة. ولكنها لم تكن تعود إلا بعد أن يجعلني أفعل تلك الأشياء التي أنفر منها.

لم تعد هناك لثمات ناعمة أيضًا. لم تعد هناك سوى طفلة نحيفة تستلقي حيثما يأمرها الجار أن تستلقي؛ على أرضية المطبخ، أو المقعد الخلفي لسيارته، أو في الحقول أحيانًا، وتفعل ما يأمرها به الجار أن تفعل.

وذات يوم حلَّت دورتي الشهرية، وبدأ ثدياي في النمو.

كانت ضحكاته تتعالى وقتها:

- يا لهما من برعمين لطيفين!

وكنت أرتد إلى الوراء بعيدًا عنه، غاضبة من تصرفه، ومحرجة في الوقت نفسه من التغيرات التي يمر بها جسدي.

كنت أتطلع إلى الوجه الذي كان يهش لي في زمن آخر، فأراه جامدًا، بشفتين ملتويتين في ضحكة ساخرة، وأتوق إلى تلك الأيام الأولى التي أشعرني فيها الجار بالأمان والرعاية. قلت لنفسي أن الخطأ خطئي، ظننت أن هناك شيئًا فعلته وجعله يتغير، وظللت أسأل نفسي مرارًا عن كنه ذلك الشيء. مرت عليه أوقات كانت الشكوك تغلبه ويهيَّأ إليه أنني أتحرر فيها من سيطرته. في تلك الحالات كان صوته يعود يهمس بالكلمات المطمئنة، ويداه تعودان تربتان عليَّ وتخففان عني.

على مدى تلك السنوات نما خوفي؛ خوفي من غضبه، وخوفي من أن أعود وحيدة مرة أخرى.

فجأة بدا لي أن طفليه، اللذين كان يطلق عليهما «الصغيرين»، قد أصبحا أكبر قليلًا، ما جعلهما يتنافسان على طلب المزيد من وقته ومحبته. لاحظتُ أن ابنته هي من تغيرت أولًا. إن الرضيعة المكتنزة التي رأيتها للمرة الأولى في ركن الأطفال أصبحت بنتًا صغيرة جميلة في الرابعة من عمرها، بشعر أسود كثيف مموج، وعينين بنيتين واسعتين.

كنت أسمعها تقول «احملني يا بابا! ارفعني للأعلى!»، ثم ترفع ذراعيها الصغيرتين إليه. كان ينحني وعلى وجهه تلك الابتسامة المشرقة التي توهمتُ أنها كانت مخصصة لي فحسب، ثم يرفعها عاليًا، ويحملها على كتفيه، ويتنقل بها في أرجاء الحديقة، وهي تضحك، وتقهقه، وتطلق صيحات الفرح.

كان يناديها بفتاة أبيها، وكنت أراقبهما من نافذة غرفتي، شاعرة بطعنات تدمي قلبي كلما أخذ يمرح ويستمتع بوقته مع عائلته.

كان يضع ابنه وابنته على الأرجوحة، ويدفعهما برفق للأمام والخلف، ويأخذهما في نزهات في السيارة، بينما أبقى أنا في المنزل لرعاية أشقائي الثلاثة. كنت أراه يعود محملًا بالهدايا، وأراقب طفليه يمزقان ورق التغليف بحماس، فتجد الابنة دمية باربي الجميلة ذات الشعر الأشقر، والابن سيارات السباق الملونة الجديدة. كانت خدودهما تنتفخ بفعل قطع الحلوى التي يلتهمانها كل يوم، فيما كانت العصارة المتساقطة من المصاصات المثلَّجة تلطخ ملابسهما.

في بعض الأحيان كنت أراقبه وهو يقف إلى جوار دورا، ويضع ذراعه حول خصرها. وكما لو كان يتمتع بحاسة سادسة، كان يشعر بنظراتي المصوبة إليه، فيرفع رأسه، وتلتقي عيناه بعيني، وعندها كان يلوي فمه في ابتسامة ساخرة، ويهز كتفيه باستهانة، وينظر إلى الناحية الأخرى، ويتبع ذلك بأن يضع يده على ظهرها، ويبدأ في التربيت عليه لإثارة حنقي.

كان الجار وزوجته يطلبان مني أن أجالس الطفلين في بعض المناسبات كعيد ميلاد دورا، أو ذكرى زواجهما، أو حتى دون سبب غير تدليلها كما كان يؤكد لي ساخرًا. كان يضع ذراعه حول كتفيها، ويمعن النظر في عيني، ويسألني:

- سأخرج مع دورا هذه الليلة، فهل لديكِ أي شيء عليكِ فعله يا ماريان؟

كان يعلم تمام العلم أنني لن أكون مشغولة بشيء، وما أن أجيب بالنفي، كان يهتف:

- هل يمكنكِ العناية بالطفلين إذن؟

وكانت دورا تضيف قبل أن تتاح لي الفرصة لأنطق بكلمة واحدة:

- آه، شكرًا يا ماريان. لا أعرف ماذا كنا سنفعل دونكِ يا صغيرتي! لا تقلقي، يمكنكِ تناول ما تشائين من الطعام، ومشاهدة ما ترغبين من برامج التلفاز.

وبعد هذا كانت تخبرني بالوقت الذي عليَّ أن أجيء فيه، وكان هذا الوقت دائمًا ما يسبق مغادرة الجار وزوجته للمنزل.

في تلك الليالي كنت أراقب دورا وهي تتبرج بالمساحيق الملونة، وتضع عطرها المميز، وترتدي تنورتها الضيقة. كما أنها كان لديها دبوس شعر تحتفظ به للمناسبات، وكانت في يوم السهرة تخرجه بعناية، وتثبته فوق قمة رأسها بحرص. كانت دورا في الواقع امرأة حسنة المظهر أنيقة الملبس، وكانت تعلم هذا تمام العلم. في كل مرة كانت دورا تخرج فيها للسهر مع زوجها، كانت تسألني:

- كيف أبدو يا ماريان؟

وفي كل مرة كنت أتمتم بصوت خفيض:

- جميلة جدًّا.

ثم أشاهد الرجل الذي أجبرني على معاشرته وهو يقبل زوجته على عنقها، ويأخذها من ذراعها، ويخرج بها من المنزل، ويفتح لها باب السيارة كالأميرات.

# الفصل الثالث والعشرون

كانت هناك مناسبات صحبني فيها الجار في النزهات التي كان يذهب فيها مع طفليه، إلا أن نزهة واحدة فقط من تلك النزهات هي التي بقيت محفورة في ذاكرتي.

في ذلك اليوم، اصطحبنا الجار -أنا وأخي الأكبر- إلى شاطئ البحر، تاركًا دورا وأمي في جلسة نسائية بمنزل الجيران.

كان يومًا حارًّا قائظًا، دون نسمة هواء واحدة، وقد اشتدت حرارة الشمس، وارتفعت الرطوبة. كان ذلك اليوم -كما أعلن- هو اليوم المناسب للذهاب إلى شاطئ البحر.

كانت مقاعد السيارة الجلدية شديدة السخونة، فبدأ الصغار يتململون من الحر، أما أنا، فكنت أشعر ببؤس شديد. كان الجار قد طلب أن يحضر كل واحد منا ثوبًا للسباحة، لكن ثوبي كان قديمًا، وقد صغر مقاسه عليَّ بعد أن نما جسمي وكبر حجمي. كان الثوب ملتصقًا تمامًا بنهديَّ الصغيرين، وبالطبع لم أكن أريد أن يرى الناس تفاصيل جسدي حينما يتبلل، خصوصًا وأن الشعر كان قد بدأ في النمو على جسدي، وكنت أخشى أن يظهر بعضه من ثوب السباحة، فيلاحظه الناس ويهزؤون بي. يضاف إلى هذه المخاوف حقيقة أن الجار أصبح يعاملني وكأنني لا أحمل أي أهمية لديه.

في ذلك اليوم كانت ابنته -وليست أنا- هي التي تجلس في المقعد الأمامي. لقد أجبرني الجار على الركوب مع الصبيين في الخلف.

سألت نفسي يومها ما الذي فعلته وجعله يتغير معي؟ وأخذت أراقب يده وهي تربت على رأس الفتاة ذات الأربع السنوات، وأسمعها تصيح بمرح الأطفال كلما ناداها بصوته المنخفض بأميرته الصغيرة. شعرت تدريجيًّا بوخز غريب ينتشر على مؤخرة عنقي.

في زمن آخر، كان هذا الجار الجالس أمامي يشعرني بالتميز، فيطلب مني أن أجلس إلى جواره، ويستمع إلى ثرثرتي وحكاياتي التي لا تنتهي، ويمشط شعري بأصابع شديدة الحنان واللطف، ويناديني طوال الوقت بسيدته الصغيرة. أما في ذلك اليوم، كانت ابنته هي التي تجلس حيث كنت أجلس، وتستحوذ على كامل انتباهه.

أخذت أتململ في جلستي متجهمة، شاعرة بالبؤس والتعاسة، ثم رفعت بصري، ورأيت انعكاس عينيه في مرآة القيادة. كان الجار ينظر إليَّ بسخرية واستخفاف، وعلمت لحظتها أنه قرأ في عيني كل أفكاري القلقة البائسة، تلك الأفكار التي حاولت كتمانها بداخلي لئلا يطَّلع مخلوق عليها.

أشحت ببصري في اتجاه آخر، بعيدًا عن عينيه، وقررت لبقية الرحلة التي استغرقت ساعة كاملة أن أريح وجهي المتوهج من الحر على النافذة الباردة، وأخذت أتظاهر باهتمامي بمعالم الطريق. كنت أعلم أنه يسخر مني بصمت، إلا أنني لم أكن أفهم السبب.

أخذ الصبيان الصغيران يشدان ذراعي بحماس بمجرد ظهور البحر، وما إن توقفت سيارته، حتى قفزا من السيارة قفزًا.

خلعنا جميعًا أحذيتنا، وسرنا فرحين على الرمال باتجاه المياه الصافية المتلألئة. ولوهلة نسيت مخاوفي الصغيرة المزعجة، وأخذت تتبعثر مع شعوري بدفء الرمال تحت قدمي، ورذاذ الأمواج على ساقي.

وجدنا حميرًا على الشاطئ، وأعلنت اللافتة أن الجولة فوق الحمار بستة بنسات. أخرج الجار بعض المال من جيبه وسرعان ما صعدنا فوق ظهورها ونحن نهتف ونصيح.

ثم اشترى لنا أقماعًا ضخمة من البوظة، وقد لطخت هذه البوظة وجوهنا، وتقطرت من بين أصابعنا الصغيرة تحت صهد الشمس.

ثم رأيت عازف الأرغن المتجول يعزف على آلته الموسيقية المحمولة، والتي كانت مدعومة بحزام جلدي ثقيل معلق حول عنقه. كان يعزف لحنًا معروفًا فملأ الجو نغمات مبهجة.

شعرت بيد الجار تشد على كوعي. ثم سمعته يهتف: «انظري»، مشيرًا إلى القرد الصغير الجالس على كتف العازف. تجمع حولنا حشد صغير جذبته أنغام الموسيقى وحركات المخلوق الصغير اللطيف، الذي كان يجمع العملات المعدنية لمالكه في فنجان يهزه أمام الجمهور.

كان القرد يرتدي بذلة ملونة بالأحمر والأصفر. كانت ألوانًا مبهجة لا تعبر عن حال هذا السجين الصغير المحزون.

في لحظة ما التقت أعيننا، فرأيت في أعماقهما مزيجًا من اليأس والهزيمة، تمامًا كما كنت أتوقع!

لم ير الناس ما كنت أراه، وراحوا يشيرون بأصابعهم إليه، ويملؤون كوبه بالعملات المعدنية ويتضاحكون. لم أكن أعلم إن كان أي منهم قد تأمل حال القرد جليًا، وسأل نفسه: لو كان القرد بهذه السعادة، فلمَ يربطه سيده بسلسلة حول عنقه تشده إليه؟

شدد جارنا أصابعه على كوعي، وأخذ يفرك بإبهامه باطن ذراعي الناعم بلطف. ثم همس مستفهمًا:

- ما الخطأ يا سيدتي الصغيرة؟

أجبته:

- لا شيء.

كنت بصورة ما أدرك أنه يعرف الإجابة حتى وإن لم أكن أعرفها أنا نفسي.

وهنا أعلن:

- من الأفضل أن تركبي بجواري عندما نعود. هذا سيشعركِ بالتحسن.

والشيء المحزن هو أنه كان محقًّا.

***

مرت السنوات دون تغيير يُذكَر في حياتي.

كان عمر جاك لا يزال بضعة أشهر فحسب عندما أخبرنا أبي أن ديف غادر المنطقة. كل ما قاله يومها لم يزد على:

- لقد حصل على وظيفة جديدة في مكان ما بالشمال.

كانت تلك المرة هي آخر مرة سمعت فيها اسم ديف يُذكَر في منزلنا. بعدها بدأ أبي يتقبل وجود جاك كفرد من عائلتنا، بل وسمعته ذات مرة يناديه بفخر: «يا ولدي».

قَلَّت مرات ذهاب أبي إلى الحانة، ما قلل بالتبعية من نوبات سكره، وهذا جعل أمي تبدو أكثر سعادة في نظري. لكنني بقيت متهيبة من تلك الأوقات التي كانت الحانة تغريه فيها بالذهاب ومعاقرة الخمر. حينها كنت أسمع من جديد زئيره الغاضب وصرخات أمي المستغيثة، ونحيبها البائس، وبقية ما كانت ثوراته المخمورة تستتبعه.

العجيب هو أنني عندما أخبرت أمي أخيرًا بمقدار الخوف والغضب الذي كان يعتمل بداخلي بسبب طباعه النكِدة وثورات غضبه الجامحة، حاولَت تبرير كل ذلك.

علقت أمي على كلامي تقول:

- آه يا ماريان! لا تقسي عليه يا بنتي. كانت طفولته سيئة بما يكفي لإفساد حياة أي شخص.

قلت في إنكار:

- ما هذا الذي تقولينه يا أمي؟! أما أخواته فهن لطيفات رقيقات، وأما جدتي فهي تتصرف كما لو كان رجلًا منزَّهًا عن الخطأ! هذا طبعًا بغض النظر عن أنها تتعالى علينا، وترانا بلا شأن أو قيمة.

تنهدت أمي إثر سماع هذه الكلمات، وأخبرتني أن الأمور لم تكن دائمًا كما كنت أتوهم. ثم شرحت لي بضعة تفاصيل من طفولة أبي، وكيف كانت سنواته الأولى.

قالت أمي:

- إن أمه، جدتك العجوز اللطيفة، بكل زخرفها وتعاليها، وأناقة لباسها وألفاظها، لم تكن دائمًا على هذه الحال. كان هناك وقت يا ماريان، كانت جدتكِ فيه مضغة الأفواه في البلدة. حدث ذلك عندما كانت لا تزال فتاة شابة، بعد أن حملت سِفاحًا في طفل، دون أي إشارة لزواج مرتقب في الأفق. هذا الطفل هو والدكِ يا ماريان. كانت جدتكِ في تلك المرحلة من عمرها شديدة الجرأة، فلم تغادر البلدة مثلما كانت تفعل بقية الفتيات المحترمات في تلك الفترة حينما يكتشف الناس حملهن غير الشرعي. لم تكن

على شاكلتهن، بل راحت تتجول في البلدة بوقاحة، عارضة لكل عين بطنها المنتفخ بحملها.

اتسعت عيناي عندما سمعت هذه المعلومة للمرة الأولى. كانت أمي معتادة على معاملتي كطفلة صغيرة، لا فتاة ناضجة يمكنها أن تخبرها بمعلومات مهمة، فما بالك بفضائح كهذه؟! ولكن في هذه المناسبة النادرة بدت أكثر استعدادًا للتحدث معي وكأنني فتاة ناضجة.

سألتها:

- وماذا حدث بعد ذلك يا أمي؟

كنت أحاول جاهدة إخفاء الحماس في صوتي، ومدى توقي لمعرفة هذه المعلومات الجديدة عليَّ.

أجابتني أمي:

- لم يحدث الكثير، لكن ما فاجأ البلدة وقتها هو أن والدتها وافقت على بقاء الطفل. دار حديث وقتها عن أنه كان ابن أحد أثرياء البلدة، وأنه منحهما المال للتكتم على الخبر، ولكن حتى يومنا هذا لا يعرف والدك إن كانت هذه هي الحقيقة. على أي حال، بمجرد أن ولدت جدتكِ أباكِ، غادرتْ المنزل، وتركته لجدته. كانت هذه الجدة هي التي تعتني به في ذلك الوقت، وكانت تقسو عليه دائمًا، وتنفس عن غضبها وعارها عن طريق معاقبته على كل صغيرة وكبيرة. لقد آمنت بالتأكيد بمقولة «العصا لمن عصا!». كانت تظل تضربه إلى أن يتلون جسده بالكدمات الزرقاء والسوداء، وكثيرًا ما كانت تفعل ذلك دون أي سبب.

توقفت أمي بعد ذلك هنيهة، وعرفتُ أن صورة أبي، وهو بعد طفل صغير يعاني بسبب نوبات غضب جدته، كانت هي الماثلة في ذهنها بينما تقص بقية القصة عليَّ:

- على أي حال، بقي أبوكِ مع تلك المرأة العجوز الشريرة إلى أن تزوجتْ والدته في النهاية. بيد أن الضرر كان قد حدث بالفعل. لم يغفر أبوكِ لأمه أنها تركته وحيدًا مع جدته، وسمحت بحدوث ذلك كله. ودعيني أخبركِ بشيء واحد في صالح أبيكِ يا ماريان؛ عندما أخبرته أنني حامل فيكِ قرر أن يتزوجني على الفور. لم يعجب ذلك والدته بالطبع، لكنه وقف بجانبي متحديًا إياها في ذلك الوقت.

وعلى الرغم من أن أمي كانت ترغب من وراء تلك القصة أن أجد عذرًا يبرر عصبية أبي وغلاظته وعنفه، فإنني لم أستطع فعل هذا قط. لم أتمكن مطلقًا من أن أمحو من ذهني صورة أمي وهي ملقاة على الأرض، بوجه متورم وفم نازف، وهي صورة متكررة بكثرة للأسف. فكرت حينها أنه إذا كان أبي قد خبر مشاعر الألم والخوف في صغره بالفعل، فكان عليه أن يفهم معنى إلحاق الأذى نفسه بشخص آخر.

وعلى الرغم من فشل هذا الحديث في أن يجعلني أرى أبي بعين محايدة، فإنه أكد الشيء الوحيد الذي كنت أشتبه به دائمًا؛ وهو أنني لم أكُن طفلة مرغوبة يومًا.

لعل أمي كانت سعيدة في البداية عندما علمت بحملها وأخبرت أبي فوافق على الزواج بها، بيد أن هذه السعادة الحالمة لم تدم لأكثر من هنيهة من الوقت. لقد ذهبت سعادة أمي أدراج الرياح بمجرد أن وجدت

نفسها متزوجة برجل يلومها -هي ومَن في أحشائها- على هذا القيد الذي أبقاه حبيس زواج لم يختره.

وقد وعيت حينها أنه بمجرد إدراك أمي لدور الحانة في حياة أبي، وفهمها أن تلك الحانة أقدر منها على جذبه مهما فعلتْ، راحت بدورها تلومني على وحدتها وبؤسها.

بعد اكتشاف هذه الحقائق، حاولتُ أن أنظر إلى أبي نظرة مختلفة. حاولت أن أتخيله ولدًا صغيرًا خائفًا يُلام على سلوك والدته السيئ، ويعاقَب بالضرب والتعذيب، لكن كل ما رأيته وقتها هو رجل في منتصف العمر يحكم منزله بالخوف.

لعل هذا الحديث لم يحثني على النظر إلى أبي بعين العطف والشفقة، ولكنه أدى غرضًا آخر في واقع الأمر؛ لقد أكد لي أن ما أفعله أنا وجارنا كان خطأً. ألم تكد جدتي تُطرَد من البلدة عندما تبين أنها ضاجعت رجلًا دون أن تتزوجه؟ وحتى مع تغير الأفكار تجاه أمر شائن كهذا بعد مرور أربعين عامًا، فإن الحديث عنه لا يزال متكتمًا، يدور في همسات خفيضة، بنبرات آسفة، لما يتسم به في أعين الناس من بذاءة وخزي.

وعندئذ حاولت أن أخبره أنني لم أعد أرغب في القيام بهذه الأفعال.

وكان رده يومها أن ضحك، وأخذ وجهي بين يديه وأجبرني على النظر إليه:

- والآن يا ماريان، هل تريدين حقًّا أن أعثر على فتاة أخرى غيركِ؟ (ثم تابع ساخرًا) إنكِ تعرفين معنى هذا، أليس كذلك؟

بلى، كنت أعرف معنى هذا جيدًا. كان هذا يعنى أنني سأغدو وحيدة.

لقد مرت سنوات عديدة على ذلك اليوم، ولا أستطيع الآن تخيل ما كان يعنيه التحرر منه وقتها، حتى ولو قليلًا.

كان الجار يعلم أنه ربح الجولة، ولكنه رغب في توصيل رسالة مهمة لي، رسالة توضح من كان المسيطر في هذه العلاقة.

تابع الجار يقول:

- على أي حال لا أعتقد أنكِ كنت عذراء في المرة الأولى؛ الفتاة العذراء تنزف كثيرًا إذا لم تكن قد فعلتها من قبل، لكنكِ لم تنزفي كثيرًا يا ماريان، ألست محقًّا في كلامي؟

في تلك السن، لم أكن أعرف معنى كلمة «عذراء»، ولكن من نغمة حديثه استشفيت أن عليَّ أن أكون كذلك، وأنه أمر شديد الأهمية. حولت عيني عن عينيه، وتمتمت قائلة إنني ربما نزفت قليلًا.

ورفع صوته يقول:

- لا يا ماريان، أعتقد أنكِ كنت تعبثين مع الأولاد بالفعل قبل أن تعرفيني.

ملأت الدموع عيني، ورحت أهز رأسي في إنكار شديد.

وعندئذ أخبرني الجار أنه يصدقني، وأخذ يمسح دموعي بحنان. ثم أحاطني بذراعيه، فشعرت من جديد بالوهج الدافئ الذي تشعله بداخلي العناية والاهتمام، وهج استمر معي طوال اليوم، لأن الجار لم يجعلني أقوم بأي من تلك الأشياء التي لم تعجبني، واكتفى بتوصيلي إلى المنزل بكل بساطة.

في المرة التالية التي حاولت فيها رفضه، لم أسمع صوته المنزعج يرتفع ويجبرني على الخضوع. يومها غادرت الابتسامة عينيه، وعبَّرت الطريقة الباردة التي كان ينطق بها كلماته عن مدى غضبه.

قال الجار:

- لا تكوني فتاة صغيرة سخيفة.

كورت قبضتي واستدعيت شجاعتي وأعلنت:

- سأخبر الناس بأمرك.

اشتعلت نار الغضب في عينيه، وتصلَّب فكه، وما كان منه إلا أن أمسك بكتفيَّ، لا ليربت عليهما مثل كل مرة، بل ليهزهما بقوة وعنف، هددني مثلما هددته.

قال بصوت يشبه الفحيح:

- هل نسيتِ تلك المرأة الجميلة التي أريتكِ صورتها؟ هل نسيتِ ما حدث لها؟ كان هذا هو الشيء الذي جعلهم يشنقونها. كم مرة يجب عليَّ أن أخبركِ أنكِ في أمان ما دمتِ معي، وأنني لن أدع أي شيء يحدث لكِ! أهذه هي الطريقة التي تردين بها جميلي يا ماريان؟!

لم أستطع قط أن أستجمع أفكاري بخصوص حقيقة أنه هو الذي بدأ تلك الأفعال، فكيف كان يتأتى لي أن أعبِّر عنها بكلمات إذن؟ وهكذا أطبقت فمي وصمتُّ تمامًا. كان صمتي نابعًا من يأسي وعجزي وقلة حيلتي. ابتعدت عنه وألصقت نفسي بباب السيارة، متكئة برأسي على الزجاج. اقترب الجار مني، ووضع ذراعيه حولي. بيد أنه في تلك المرة لم تكن هناك كلمات لطيفة، أو لمسات حنون، بل تعليمات قاسية تهمس في أذني. وجدت نفسي جالسة فوقه، ودموعي ترطب كتفه، بينما تتكور قبضتيه إلى جانبه. واعتدى الجار عليَّ من جديد. لم أكن راغبة في تلطيخ ملابسي أو ترك رائحته المقززة على جسدي. أخذ الجار يراقبني وأنا أحاول بكل السبل تنظيف نفسي.

قال الجار بعدما انتهى:

- هذا هو ما يفعله الرجال بالفتيات اللاتي يعجبونهم يا ماريان، وهم يفعلون هذا وقتما شاؤوا. إنكِ لا ترغبين في أن أتوقف عن حبكِ، أو عن أن أكون صديقكِ، ألست محقًّا في كلامي؟

همست:

- بلى، إنك محق.

كنت مرعوبة من فكرة فقدان حمايته، وكنت أكثر رعبًا من عالم يراني فيه الجار كما يراني بقية الناس؛ فتاة بلا قيمة، لا تستحق الحب.

وحين كانت تأتي أيام الدارسة، كنت أخرج من البوابة، فأسمع نفير سيارته، ثم صوته وهو يناديني. في تلك المرحلة، لم أعد أعثر على أي حلوى في تابلوه السيارة. كان يجبرني على أن أتمدد على مقعد السيارة الخلفي الطويل، طفلة في لباسها المدرسي وجوربها الأبيض النظيف، ثم يتبعني هو ويعتدي على براءتي.

ثم حلَّت عطلة صيفية جديدة. في تلك العطلة تبين لي أن نزهاتنا إلى البركة كانت قد فقدت سحرها تمامًا. لم أعد أبحث عن بيض الضفادع، منتظرة ميلاد ضفادعي الصغيرة اللطيفة، مثلما كنت أفعل في السابق، وكذلك لم تعد مخيِّلتي تجود بأي قصص جديدة عن المخلوقات الصغيرة الرائعة وحياتها العجيبة. ما عنته الأيام المشمسة الدافئة هو استلقائي على ظهري، وجارنا يرفع ثوبي، ويعتدي عليَّ بسرعة وخشونة، ملقيًا نظراته هنا وهناك للتأكد من خلو المكان من أي أعين قد تراقبنا، في الوقت نفسه الذي كان فيه إخوتي وطفلاه يلعبون على بعد أمتار قليلة فحسب!

أما في الأيام التي كانت الشمس تختبئ فيها خلف الغيوم، كان الجار يطلب من أمي مساعدتي إياه في الورشة، حيث أناوله العِدد والأدوات.

وفي كل مرة قبل أن تمنح أمي الجار موافقتها، كانت تمزح معه وتسأله بابتسامة صغيرة:

- ألا تريد مني أن أساعدك؟ أؤكد لك أنني أستطيع.

دائمًا ما كانت أمي تجيبه بأنني يمكنني الذهاب ولكن لمدة قصيرة فحسب، كما لو أنها كانت تصدر تهديدًا.

وبمجرد أن يدخلني إلى الورشة، كانت روائح الزيوت والشحوم تستقبلني، وتزكم أنفي، وتشعرني بالغثيان. وكان الجار اللطيف يثبِّتني على الحائط، ويفعل بي ما يريد. كان في الواقع يسمي هذه اللقاءات بأوقاتنا الجميلة السريعة!

ومرت الشهور في إثر الشهور. في نومي كنت أرى وجهه وأسمع صوته ثم أستيقظ على ذكرى ما أجبرني على فعله. في تلك الأوقات كل ما كنت أريده هو أن تتغير حياتي، أن يتوقف عما يفعله بي، لكن الشعور بالعجز أثقل أطرافي، وأبطأ عمل عقلي.

وقد أثر هذا بشدة على أدائي المدرسي. لم تكن هذه الصور المزعجة تطاردني في أحلامي فحسب، بل تقتحم ساعات يقظتي كذلك. كل هذا جعلني أعجز تمامًا عن التركيز، وأفشل في فهم دروسي. كان ذهني يشرد معظم الوقت، ولاحظ المعلمون ذلك بالطبع، ما زاد من حنقهم عليَّ.

- هل استمعتِ إلى أي كلمة قلتها يا ماريان؟

كان هذا سؤالًا معتادًا من المعلمين على الرغم من تأكدهم من إجابته. فإن رددت بالإيجاب على أحدهم، وأكدت أنني كنت منتبهة لما يقال، كان المعلم يطرح عليَّ سؤالًا سريعًا، لا أتمكن من إجابته، وهو المتوقَّع طبعًا.

كنت أسمع زمجرة معلمة الفصل، ونقر أصابعها على المكتب علامة على نفاد صبرها، وضحكات زملائي الخافتة وهي تهزأ بي، فيصطبغ خدي بالحمرة القانية، وأحني رأسي في مذلة. كنت أحاول إبعاد ذهني عن كل شيء والتركيز على دروسي، إلا أنني مهما أحاول التركيز، كان ذهني يعود ويشرد في أفكاره.

«هل سيكون الجار في انتظاري عندما يرن جرس الانصراف؟». كنت أسأل نفسي كل يوم. كنت في الماضي أنتظر رؤيته وأشعر بالتميز لأنه جاء من أجلي، لكن كل هذا قد اختلف تمامًا، وحل محل الانتظار الشغوف خوف شديد، وهلع حقيقي من أن تتجه سيارته إلى الغابة.

أصبح أداء الواجبات المنزلية أصعب فأصعب. لم يقتصر الأمر على عدم استماعي للدروس بسبب شرودي، بل كان إخوتي وأختي الأصغر يطالبون بالمزيد من اهتمامي كذلك.

إلا أن تغييرين كانا على وشك الحدوث؛ الأول كان إعلان أمي أنها حامل من جديد، قبل بضعة أشهر من عيد ميلادي الثالث عشر. أما الثاني فكان انقطاع عادتي الشهرية.

# الفصل الرابع والعشرون

أغمضتُ عيني، أطبقتهما بقوة مثلما كنت أفعل وأنا بنت صغيرة، وكثيرًا ما كنت أفعل. كانت هذه هي حيلتي لكتم دموعي وعزل نفسي عن عالم الكبار.

كنت أعلم أنني وصلت إلى الوقت الذي يتعين عليَّ فيه ترتيب أحداث قصتي، لكنني كنت لا أزال أحاول إبعاد هذه الصور المريعة عن ذهني بشتى السبل.

حدث أن وصلتني رسالة في صباح أحد الأيام. إنها تلك الرسالة التي فتحتها وأنا جالسة أمام طاولة القهوة، تلك الرسالة التي أيقظت جميع الذكريات البعيدة والمدفونة. لقد خبأتها منذ أمد بعيد بين ثنايا عقلي، لكنها بدأت الآن تخرج من مخبئها واحدة تلو الأخرى، وتحتل مركز أفكاري.

عندما وصل البريد كنت أجلس إلى مائدة الفطور. كنت أحمل شريحة من الخبز المحمص في يدي، بعد أن وضعت كوبًا من القهوة الطازجة في مكان قريب. كان زوجي قد غادر إلى العمل واصطحب ولدي إلى المدرسة في طريقه، وكنت أستمتع بالهدوء والسلام الذي خلفوه وراءهم.

في ذلك اليوم سمعت صوت الخشخشة الصادر عن وضع خطابات جديدة عبر فتحة البريد في الباب، ثم سقوط هذه الخطابات على البساط الصغير المفروش أمام الباب. وهكذا وصلتني أهم رسالة في حياتي.

لحظتها ظننت أنها مجرد فاتورة أخرى، أو رسالة دعاية مزعجة، لكن الفضول جعلني أذهب إلى الردهة، وأحضر الرسالة.

ما وجدته كان مجرد مغلف أبيض عادي، كُتب اسمي عليه بخط لم أميزه.

مرَّرت أصابعي ببطء على المغلف المغلق، وفتحته، ثم مددت يدي فأخرجت منه ورقتين كبيرتين. والآن أسأل نفسي: إن كنت على علم بمحتويات تلك الرسالة، أكنتُ فتحتها بمثل هذه البساطة؟ لو كنت أعلم ما بها، أكنت سأمزق المغلف بهذه السرعة لأطلع عليه، أم أني كنت سأتركها مغلقة إلى الأبد وأذعن لنفسي الجبانة؟ إنني في واقع الأمر لا أدري ما الذي كنت سأفعله، لكن ما أتذكره هي الطريقة التي فتحتها بها. لقد فتحتها دون ذرة من تعجل، ووضعتها أمامي بهدوء، ثم قرأت العبارة الأولى.

كانت العبارة مكونة من ثلاث كلمات فحسب، ثلاث كلمات قفزت من الصفحة وتركتني أترنح حرفيًّا من الصدمة: «أعتقد أنكِ أمي».

هل كان لدي هاجس بأن يحدث شيء كهذا ذات يوم؟ أكنت في قرارة نفسي أتمنى حدوثه على الرغم من كل شيء؟

ربما، من يدري؟ بيد أنني في جميع الأحوال كنت أشعر بيدي ترتجفان، والأرض تميد بي وأنا جالسة في مطبخي أستأنف قراءة الرسالة.

كان السطر الثاني يقول: «إنني أفهم لماذا عرضتِني للتبني».

همست أجيب الورقة الجميلة: «كلا، إنكِ لا تفهمين! بالطبع لا تفهمين!».

قفزت عيناي بسرعة تقرآن بقية الرسالة حتى أتت عليها وصولًا إلى هذه العبارة الأخيرة:

«أنا لا أرغب في التسبب في أي مشكلة، أو التطفل على حياتكِ، لكني أتمنى حقًّا أن تسمحي لي بزيارتكِ».

لقد عثرتْ ابنتي عليَّ أخيرًا، وكانت تلك هي أمنيتها البسيطة.

تحركت أصابعي برفق على رسالة ابنتي، تلك الرسالة المكتوبة على ورقتين مُقطعتين من كشكول مدرسي. وحاولت تخيل صورة المرأة التي أصبحت عليها ابنتي. وبهذا الفعل البسيط المتمثل في لمس ما لمستْه هي مؤخرًا، شعرت بالبون الشاسع بين السنوات يضيق.

سألتها بقلبي لا بلساني: «من تكونين الآن؟ إلام صارت تلك الرضيعة الصغيرة التي لم أرها منذ خمسة وعشرين عامًا؟».

ثم طرأ سؤال آخر على ذهني: منذ متى وهي تعرف بشأني؟

همست أحدِّث ابنتي التي شعرت أنها تتطلع إليَّ من بين الصفحات:

- إنني أفهم أكثر منكِ السبب الذي جعلكِ تكتبين إليَّ. بالتأكيد لديك أسئلة تريدين الإجابة عنها. وأنا أعلم ما هي يا صغيرتي. تسألين نفسكِ هل أحببتكِ يومًا يا تُرى؟ هل تخليت عنك بنفس راضية، أم بجزع أمٍّ مكلومة؟ أكنتِ تخطرين على بالي بينما كنت أصنع لنفسي حياة دونكِ؟ هذا هو ما تريدين معرفته حقًّا يا بنتي.

ومضيت أسترجع ذكرياتي وأحدِّث صورة ابنتي التي لا أعرف لها شكلًا:

- آه لو تعلمين! عندما علمت أنني حامل فيكِ، أردت أن أنفض عن جسدي هذا العبء المفزع، أردت أن يعود جسدي ملكي مرة

أخرى، أردت أن يرحل عني ذلك الدخيل الذي استوطن أحشائي دون إذن. لكن بعد أن كبرتِ بداخلي، كنت في كل مرة أحسكِ فيها تتقلبين داخلي، أو أشعر بركلة من قدمكِ الصغيرة، كان حبي لكِ يتعاظم ويقوى. ولسبب لا أعلمه كنت متأكدة من أنكِ فتاة، بل واخترت لكِ اسمًا كذلك.

عندما قطع الطبيب الحبل السري، وقبل لحظات من سماعك تبكين للمرة الأولى، كان قد توشج بيننا رباط غير مرئي، رباط قوي وكأنه مصنوع من خيوط فولاذية، وذلك الرباط قد وحد بيننا إلى الأبد.

في المرة الأولى التي وضعوكِ فيها برفق بين ذراعي، ذهبت عني آلام الولادة المبرحة، وتلاشت من ذهني جميع الأفكار السيئة. حدقت مدهوشة إلى رأسك الصغير الجميل المستند إلى ذراعي.

أبصرت أمامي وجهًا صغيرًا وردي اللون، ذا خدين متوردين، وأذنين مستديرتين رقيقتين ذكرتاني بالأصداف الصغيرة التي يقذف بها البحر على الشاطئ. كانت عيناكِ مغلقتين، تتخفيان وراء جفنين يكادان يكونان شفافين. وكانت الكلمة الأولى التي تبادرت إلى ذهني لحظتها هي: «طفلتي». وقد بقيت هذه الكلمة محفورة في ذهني طوال حياتي، على الرغم من غيابكِ عن هذه الحياة. همستُ لكِ أقول: «كم أنتِ صغيرة، وبديعة التكوين». حركت أصابعي في دوائر خفيفة أدلكُ لكِ ظهركِ، ورحت أتتبع بها أجزاء جسدك الصغير وأستكشفها. شعرت بالفقرات المتناهية الصغر لعمودكِ الفقري، واستنشقتُ رائحتكِ العطرة كطفلة جاءت للتو إلى العالم، واستمعت بتلذذ إلى أنفاسك الهادئة. كدت أجن من كل هذا الحب الذي انبجس في قلبي.

في كل يوم مر عليَّ خلال الأسابيع الستة التي كنتِ ملكًا لي فيها، كنت أحمل جسدك الصغير، وأستنشق رائحتك العطرة، التي هي مزيج مدهش من بودرة التلك والحليب وبشرة الأطفال النظيفة، وأشعر بقلبكِ ينبض فوق قلبي. وفي كل يوم من تلك الأيام كنت أسأل نفسي ألف مرة: «كيف يمكنني احتمال فكرة رحيلكِ عني؟».

وليلة بعد ليلة كنت أطرح هذا السؤال على الممرضات والدموع تنهمر من عيني، وفي كل مرة كان يأتيني ردهن الصارم: يجب أن تسمحي لها بالرحيل. ستحظى الطفلة بحياة أفضل من تلك التي يمكنكِ تقديمها لها. وأنتِ تعلمين في قرارة نفسكِ أنه الحل الأنسب.

مرت الأيام كلمح البصر. كل صباح كنت أستيقظ فيه كنت أعرف أن يومًا جديدًا من أيامي القليلة معكِ قد ولى دون رجعة، وكنت أقول لنفسي: إنها تعرف من أنا! كلما حدقتِ بعينيك -اللتين لم تتركز نظراتهما بعد- إلى عيني، وأطبقتِ بأصابعكِ الوردية المنمنمة على أصابعي الطويلة النحيلة.

كان وزنكِ يزداد من الحليب الذي أرضعكِ إياه، فأجد بطنكِ الصغير وقد استدار، وأطرافكِ وقد سمنت بين يدي في كل مرة كنت أحممكِ فيها. كنت أرغب في قضاء تلك الأيام القصيرة المتاحة لنا وأنا أحملكِ بين ذراعي. كل ليلة عندما كنت أهدهدكِ برفق لتنامي، كنت أهمس في أذنك بكلمات الحب والحنان. لقد أردت أن تأخذي هذا الحب معكِ إلى أي مكان قد تذهبين إليه.

وفي اليوم الثاني والأربعين أعطيتهم إياكِ.

أكان ذلك سهلًا؟

كلما فكرت في إجابة هذا السؤال، عدت إلى الوراء، إلى ماضٍ أليم أحاول نسيانه بلا توقف، وكأن كل تلك السنوات التي مرت لم تكن. لحظتها لا أعود ماريان المرأة المتزوجة السعيدة التي صارت على مشارف الأربعين، بل المراهقة التي تقف في وكالة التبني وتحمل طفلتها بين يديها، وتتخلى عنها مكرَهة.

كنت قد ألبست ابنتي ثوبها الجديد. أردت أن تبدو جميلة عندما تلتقي بأبويها الجديدين. أردت أن يحباها على الفور مثلما أحببتها.

في ذلك اليوم كانت ترقد بسكون بين ذراعي وكأنما لم تُخلق إلا لفعل هذا، كنت أتساءل بيأس عما ستشعر به عندما يخرجونها منهما إلى الأبد. شعرت بصدري يمتلئ بالحليب الذي لن ترضع منه أبدًا. من سيطعمها يا ترى؟ على أي شاكلة ستكون والدتها الجديدة؟ تصارعت هذه الأسئلة داخل رأسي. بيد أن الموظفة المسؤولة اقتربت مني عازمة على أخذ ابنتي. لا بد أنها فعلت هذا مرات عديدة، ولا بد أنها أدركت أي عذاب كنت أعانيه. حينذاك شعرت برغبة قوية في ضم ابنتي إليَّ والفرار بها. أردت أن أبقيها قريبة مني، بين ذراعي إلى الأبد، لكنني في النهاية تجاهلت جميع غرائزي، وقدمت ابنتي لها. لقد تركتها تأخذها لأنني أدركت حقيقة وضعي، وأنه ما من مكان كان ينتظرني لأركض بها إليه.

استمررت أحدث صورة ابنتي الناضجة الماثلة من بين كلمات الرسالة:

- لقد فقدت جزءًا من نفسي في ذلك اليوم. كان ذلك هو أصعب شيء اضطررت إلى فعله في حياتي. لكنه كان قرارًا نابعًا من الحب. لم أفعل هذا لأنني لم أكن أرغب في وجودكِ. كان ذلك مستحيلًا!

هل فكرت فيكِ إذن؟ كل يوم كنت أفكر فيكِ. كل يوم كنت أتساءل أين كنتِ، وكيف أصبحتِ، وأدعو ربي أن تكوني سعيدة وآمنة. وفي كل عام عندما يحل عيد ميلادك، كان البؤس يغشى قلبي، بؤس يضاهي ذلك الذي حل عليَّ في اليوم الذي خسرتكِ فيه.

يقول الناس إن الزمن يشفي جروح الماضي، لكني أقول إن الوقت يجعلها مشوشة قليلًا ليس إلا. إذا افترضنا أن الذكريات قصاصات صغيرة من القماش، وأن هناك الملون منها بألوان الربيع المبهجة، أو بألوان أخرى دافئة تذكرك بالشمس الساطعة، فعلى الجهة الأخرى ستكون هناك قصاصات ذات ألوان قاتمة، مثل غيوم رعدية في يوم عاصف، فإذا حِكْتُ هذه القصاصات في لحاف ضخم، فإنني أُبقِي القصاصات الملونة على الوجه، وأدسُّ القاتمة خلفها، بعيدًا عن النظر، ثم دون أن ألاحظ متى حدث ذلك، تمتزج جميع الألوان معًا، ما يخفف تدريجيًّا من حدة أحداث الماضي، فلا يؤلمني عندما أتذكره مثلما كان يؤلمني في السابق.

ولكن حتى بعد كل هذا، كانت لا تزال هناك أيام لا أستطيع فيها مقاومة السهام الصغيرة التي تطعنني بسم الكآبة، فينتشر الحزن في دمي، ويسيطر على أفكاري، وأكاد أنسحق تحت وطأة ذكريات الألم والخسارة. هنا كانت الأسئلة تتكالب على ذهني، تذكرني بالماضي وحياتي وقتها، ومهما حاولت، كنت لا أستطيع منها فكاكًا.

أدرك أن هناك سؤالًا آخر تريدين إجابتي عنه يا بنتي؛ سؤال لم تجبكِ عنه شهادة ميلادكِ. همست وأنا آخذ جرعة من قهوتي التي بردت بسبب ذهولي عنها:

- من ستتعرض حياتها للدمار إن كُشفت الحقيقة ليست أنا، بل أنتِ يا بنتي.

سألتُ السؤال الوحيد الذي أردتُ أن تجيبني ابنتي عنه: «هل إذا التقينا، ستكونين قادرة على التماس العذر للفتاة التي كنت عليها في ذلك الوقت؟ الفتاة التي عاشت في عصر آخر يختلف تمامًا عن عصركِ، الفتاة التي لم تملك خيارات كتلك المتاحة أمام جيلكِ الآن؟ أم سترين المرأة التي أصبحت عليها الآن، امرأة سعيدة في زواجها، ذات عائلة وحياة تم استبعادك منها؟».

ورغمًا عني شعرت بقوة الماضي تعيدني إلى الخلف. وها قد سافرت ثلاثة عقود تقريبًا، لأجدني وجهًا لوجه أمام صورتي كفتاة مرعوبة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا.

# الفصل الخامس والعشرون

كنت أقف في غرفة المعيشة في بيتنا، حيث الجدران التي كانت جميلة ذات يوم وقد شوهت بقع الرطوبة مظهرها، وفاحت الروائح الزنخة لبقايا الطعام الفاسد والعرق والأمونيا المتصاعدة من الحفاضات المتسخة المتراكمة في الدلو المعدني.

كان بطني بارزًا من جسدي النحيل، وجسدي يعوي من الألم، وأفكاري مبلبلة من الخوف. وقفت أمامي موظفة الخدمة الاجتماعية تتطلع إليَّ بعينين ثاقبتين باردتين. كانت امرأة في أوائل الثلاثينيات ترتدي معطفًا صوفيًّا داكن الزرقة، وتنورة رمادية ذات ثنيات، أُرسلت إلينا على إثر إخطار من المدرسة. كانت الموظفة قد طرقت على بابنا قبل بضع دقائق فحسب.مكتبة سر من قرأ

لم تكلف الموظفة نفسها عناء إخفاء النفور البادي على وجهها الخالي من المكياج بينما راحت تجول بنظراتها في أنحاء الغرفة.

لم تكن أطباق الإفطار قد رُفعت عن المائدة بعد، وكانت بقايا البيض لا تزال عالقة بها، أما الجريدة المفروشة تحت الأطباق فمبقعة بالزيت، وقد تناثر الفتات تحت المائدة.

كانت جميع أدراج وأدوات المطبخ ملطخة ببقايا مواد متصلبة، وقد تجمعت كتل الشاي الجاف على جوانب الحوض الملطخ، ووُضعت على صفاية الأطباق بعض الأكواب المشروخة لتجف، وأُلقي إلى جوارها مشط بلاستيكي متآكل تجمعت فيه كتل كبيرة من الشعر الغامق المتشابك.

كان أخي وأختي في المدرسة بينما كان أخانا الأصغر، أحمر الشعر البالغ من العمر ثلاثة أعوام، جالسًا على الأرض، لا يزال مرتديًا الملابس الرثة التي ينام فيها. لم يولِّ الطفلُ الزائرة انتباهًا يُذكر، وأخذ يلهو بالأشياء البالية التي يسميها لعبًا: خرقة مهلهلة، ودمى مكسورة، وسيارة صدئة. وكان يمسك في إحدى قبضتيه السمينتين كسرة خبز، يمضغها من حين لآخر عوضًا عن العضَّاضة القديمة الملقاة على الأرض.

كانت أمي -ببطنها الأكثر انتفاخًا من بطني كونها حاملًا في طفلها الخامس- ترمقنا أنا وموظفة الخدمة الاجتماعية بعينين جامدتين، وقد أطفأت سنوات الشقاء وخيبة الأمل نور الحياة فيهما, كانت الولادات المتكررة والحرمان من الرعاية قد ألقت بثقلها على جسدها، ذلك الجسد الذي كان ذات يوم رشيقًا جذابًا يدير رؤوس الرجال، هذا قبل أن تتورط في زواجها المبكر والمتسرع بأبي. كان نهداها غير المدعومين بصدارة متدليين تحت سترتها المبقعة، والأوردة الزرقاء بارزة على بشرة ساقيها البيضاء، وقدماها المتورمتان منتعلتين خفًّا باليًا.

بينما كنت أراقب نظرات موظفة الخدمة الاجتماعية إلى القذارة التي كنا نعيش فيها، زالت الغشاوة عن عيني، وبدأت أرى بوضوح مفاجئ ومؤلم ما كانت تراه؛ غرفة قذرة مقززة، وفتاة مراهقة حامل، ذات أم مهمِلة وأب سكير. كنا مجرد حالة حزينة مقرفة من بين العديد من الحالات المقرفة الأخرى التي تزخر بها ملفات موظفة الخدمة الاجتماعية المثقلة بالعمل.

لم تستطع الموظفة رؤية الكدمات على جسد أمي، والناتجة عن آخر علقة ساخنة تلقتها. بيد أنها فسرتْ الإشارات، واستنتجتْ ما كان يحدث بطريقتها.

هذه الموظفة التي كانت تنظر إلينا من فوق لم تشاهد يأس أمي وحيرتها عندما كان أبي ينفق مصروف المنزل بالكامل على الخمر،

فلا يعود بإمكانها توفير طعام لعائلتها البائسة. هذه الموظفة التي كانت تتطلع إلينا بتعالٍ لم تسمع صرخات أمي واستغاثاتها عندما كان يعود أبي بعد أن يفقده الكحول كل سيطرة على النفس، وينهال عليها بالضرب في نوبات غضبه الجنونية، بسبب عدم وجود عشاء ساخن في انتظاره.

تلك الموظفة المحترمة، التي كانت سيارتها متوقفة خارج منزلنا، وتعمل في وظيفة تكفل لها الاستقلال، لم يكن بمقدورها أن تفهم ولو بعد مليون سنة كيف يمكن لسنوات من الفقر والاعتداء المتكرر أن تدمر أي أثر للكبرياء لدى المرأة الجذابة التي كانت عليها أمي، وتحوِّلها إلى امرأة مهملة مهوشة الشعر، تراقب المشهد الدائر أمامها بلا أدنى مبالاة.

كانت هناك صورة لوالديَّ وهما أصغر سنًّا على رف المدفأة. وإذ فجأة رغبت في أن تتطلع موظفة الخدمة الاجتماعية إلى تلك الصورة، وأن ترى بنفسها أن أمي لم تكن هكذا دائمًا، وتتأكد من أنها كانت ذات يوم امرأة جميلة، بابتسامة تضيء وجهها، ونظرات تتطلع إلى العالم بثقة، نظرات كانت تتوقع أن تكون الحياة منصفة معها.

بيد أنني في الوقت نفسه كنت أشعر بنفاد صبر الموظفة وتوقها إلى المغادرة بأسرع ما يمكن. إلا أنها كانت بحاجة إلى طرح سؤال مهم أولًا بالطبع. لم أكن أعلم حينها أن الطريقة التي سأجيب بها ستحدد الوضع الذي سيؤول إليه مستقبلي ومستقبل ابنتي. لم أكن أشعر في تلك اللحظات سوى بكراهية هذه المرأة لي.

سألتني الموظفة:

- من هو الأب؟

اختنق صوتي فلم أنطق بالحقيقة القاسية، واستحال خوفي غصة قوية استقرت في منتصف حلقي، حبست كلماتي بل وحتى أنفاسي.

فتحتُ فمي، ثم أغلقته، ثم فتحته مرة أخرى، وظللت على هذه الحال إلى أن تمكنت أخيرًا من النطق بنفس الكلمتين اللتين نطقت بهما أمام مديرة المدرسة:

- لا أدري.

وعلى إثر هذا التفتتْ الموظفة إلى أمي، وأخبرتْها باقتضاب أنها سترتب لي أمري، بحيث أذهب إلى منزل مخصص للأمهات غير المتزوجات. ثم أضافت:

- سنرتب بعد ذلك أمر تبني الطفل.

شعرت بالدموع تتجمع في عينيَّ بمجرد أن نطقت بهذه الكلمات القاسية، وذلك لأنها توجهت بها إلى أمي، وليس إليَّ. كانت الطفلة طفلتي، لكنني كنت أعلم علم اليقين أنني أصغر سنًّا من أن تكون لدي أي حقوق.

وبعد شهرين عادت الموظفة لاصطحابي من المنزل. تطلعتُ إلى أمي، على أمل أن تسمعني كلمة مؤازرة واحدة، كلمة حنون واحدة تعبر بها عن حبها، أو تفهمها، أو مساندتها، لكن عينيها رفضتا أن تقابلا عيني. وعوضًا عن ذلك وضعت سيجارتها في زاوية فمها، وانحنت، ورفعت طفلها ذا الشعر الأحمر بين يديها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثم قالت بلا داعٍ:

- إنه بحاجة إلى تغيير حفاضِه.

حملتُ الحقيبة البالية التي تحتوي على غيار نهاري واحد، وثوب نوم بالٍ، وتبعتُ المرأة المحتمية بمعطفها الصوفي الثقيل إلى سيارتها.

لم ألحظ إلا بعد مدة طويلة ما لم ألحظه وأنا في الثالثة عشرة من عمري؛ لم تسألني أمي قط ذلك السؤال الذي كانت معلمتي وموظفة الخدمة الاجتماعية تعتقدان أنه مهم للغاية: «مَن الأب؟».

# الفصل السادس والعشرون

أطبقت عينيَّ بقوة. بدأت ذكريات الماضي تتلاشى مبتعدة، واختفت من أمامي غرفة المعيشة القذرة ونظرات الاحتقار المنبعثة من عيني موظفة الخدمة الاجتماعية، وعدت مرة أخرى إلى مطبخي المطلي باللونين الأبيض والنحاسي.

التقطت الرسالة مرة أخرى. لم تقم ابنتي بتدوين عنوانها فحسب، بل ورقم هاتفها كذلك. فهمت أنها بإعطائي إياه كانت تعني أنها تنتظر مكالمة مني. لقد كتبتْ تقول إن الأمر استغرق منها سنوات قبل أن تعثر عليَّ. لقد شرعت في عملية البحث بعدما وضعتْ ابنتها، لرغبتها في أن تلتقي طفلتها بجدتها الحقيقية. كان الحمل والولادة قد أثارا في ذهنها العديد من الأفكار، كان شوقها لمعرفة من أكون يتعاظم كلما نمَتْ طفلتها بداخلها.

شردتُ في أفكاري، وطويت الرسالة ببطء، ووضعتها في مظروفها وأنا ذاهلة، لكن الكلمات الموجودة فيها استمرت تتردد في ذهني لمدة طويلة. وأصبح سكون المنزل، الذي أشعرني قبل دقائق قليلة بالسلام والطمأنينة، يشعرني بالوحدة والثقل في قلبي. أردت أن يمتلئ من جديد بأفراد عائلتي، وأن أسمع حديثهم وصياحهم وضحكاتهم.

سألت نفسي في ذلك الصباح: «ماذا ستفعل محتويات هذه الرسالة بزواجي يا ترى؟».

إلا أن صوتي الداخلي طمأنني مؤكدًا أن زوجي يحبني. وعلى الرغم من ذلك استمرت الشكوك تنهشني وتقول: «نعم، إنه يحبكِ، يحب عائلته، ويقدس هذا الزواج. لكن هل سيرحب بهذا الأمر المستجد أيضًا؟».

نقرت على مفتاح ماكينة القهوة، وأعددت قهوة جديدة، وحملت الكوب الدافئ الباعث على الراحة بكلتا يدي، وقررت اللجوء إلى غرفة الجلوس. في جلستي على الأريكة، لم أتمكن من العودة بذاكرتي إلى الماضي مجددًا. شعرت بذكرياتي شديدة القرب مني منذ وصول رسالة ابنتي في هذا الصباح.

***

كانت دروس المدرسة قد أطلعتنا على حقائق الحياة، وكان هذا هو الدرس الذي جذب انتباهي كاملًا. لكني كنت أعرف بالفعل كيف يتم إنجاب الأطفال. بمجرد أن بدأتْ عادتي الشهرية، أخبرني جارنا أنه سيهتم بهذه الأمور، وأنه لا داعي لأي قلق.

أكد لي الجار أن الفتيات لا يحملن سوى في وقت معين من الشهر، وقد صدقته في ذلك الوقت، لكنني كنت أعرف كذلك ما كان يعنيه غياب دورتين شهريتين كاملتين.

وأخبرته بذلك.

كنت آمل بشدة في لمسة حانية، أو عناق مطمئن، أن يثبت لي أنه سيعتني بي. كنت آمل في سماع كلمات لطيفة تؤكد لي أن كل شيء سيكون على ما يرام. لكن آمالي تحطمت حالما غادرت فمي تلك الكلمات، الكلمات التي عبرت عن مخاوفي ومخاوفه أيضًا.

قبضت يداه على عجلة القيادة بإحكام شديد، حتى تحولت مفاصلهما إلى اللون الأبيض، وبرقت عيناه بالغضب المتقد.

سألني باشمئزاز:

- وكيف تعرفين أنه طفلي؟

بكيت. أكدت له أنني لا أعرف سواه، لكنه نظر إليَّ وكأنني حشرة مقززة تثير قرفه واشمئزازه.

- اسمعي يا ماريان، عليكِ أن تبقي فمكِ مغلقًا بخصوص هذا الأمر، هل تسمعينني؟ لا تطلقي لسانكِ بالأكاذيب عني! ومن سيصدقكِ على أي حال؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

بدأت أقول:

- سيصدقني أبي وكذلك...

- ها! وماذا سيفعل أبوك؟ هل تذكرين عندما كان يوجه الاتهامات لأمك، مؤكدًا أن أخاك الأصغر ليس من صلبه، وماذا فعل بعدها؟ كان ديف يتبختر في كل مكان في الوقت الذي كان والدكِ متأكدًا فيه من أن الطفل طفله، ألم يكن هذا صحيحًا؟ ومن الذي راح يضربه وينتقم منه عوضًا عن ديف؟ إنها والدتك الحبلى المسكينة. أحسني التفكير إذن يا ماريان. اعلمي أنكِ إن أفشيت السر، ستجعلين وضعكِ أسوأ مما هو عليه. من برأيكِ سيتم إهانته وضربه وتعذيبه؟ تأكدي أنه ليس أنا. إن لم تأتِ دورتكِ في موعدها الشهر القادم، أخبريهم في المنزل أنكِ كنتِ تعبثين مع الأولاد في المدرسة، ولا تعرفين أيهم جعلكِ تحبلين.

احتججت وأخذت سيول من الدموع الساخنة تنهال على وجهي:

- لكن هذا لم يحدث قط!

- اسمعيني، لا تجعلي الوضع أسوأ. القانون لا يسمح لكِ بممارسة الجنس مع أي شخص فوق سن السادسة عشرة. لكنكِ فعلتِ هذا، أليس

كذلك؟ استمري إذًا في تكرار أنكِ لا تعرفين من هو. هذا إذا لم تأتيكِ دورتكِ الشهرية طبعًا. لا أعتقد أنكِ ستُسألين عن شيء آخر في واقع الأمر.

وقد كان محقًّا، فلم يسألني الناس عن شيء آخر.

# الفصل السابع والعشرون

في ذلك الوقت لم تعد دورا تزورنا إلا نادرًا. لم أمعن التفكير وقتها في ذلك الأمر، وافترضت أنها تفضل المكوث في منزلها النظيف الأنيق. بيد أنه في صباح اليوم الذي قررتْ فيه أمي أن تسألني عن دورتي الشهرية، كانت دورا تجلس بجوارها أمام طاولة المطبخ كذلك.

كان براد الشاي على الطاولة، وكان جميع الأطفال في الخارج يلعبون بمجموعة الألعاب المتنوعة التي أحضرتْها دورا لهم، أما جاك الصغير، فكان يفترش الأرض فوق بطانية صغيرة، ويلوك لعبة بلاستيكية قذرة في فمه. لم يكن قد تحدث بعد، وعلى الرغم من سنه، بدت أمي راضية بإبقائه حبيس الحفاضات. كان يضحك ويغمغم بكلمات غير مفهومة ويرفع ذراعيه السمينتين محاولًا الإمساك بأشعة الشمس المتراقصة على الأرض.

هتفت دورا تقول:

- تعالي واجلسي معنا يا ماريان.

ولإدراكي الفرق بين الأمر والطلب، شعرت بغثيان في معدتي. منحتني نبرة صوتها تحذيرًا واضحًا، وأنبأتني بأن هذا لن يكون مجرد حديث عادي.

ولأنني لم أستطع الإتيان بعذر يعفوني من عدم القيام بذلك، أزلت من فوق أحد المقاعد الكومة المعتادة من الحفاضات المغسولة، وسراويل

الأطفال الداخلية المصنوعة من المشمع، وفراشي الشعر، وجلست منتظرة بصمت ما تريد كلاهما إخباري به.

ولم يطل انتظاري في حقيقة الأمر.

هتفت أمي فجأة:

- أخبريني يا ماريان، أين صرتِ تضعين مناشفكِ الصحية في الأسابيع الأخيرة؟ لماذا لم تعطيني إياها كي أحرقها كالمعتاد؟

وازداد الشعور بالغثيان في معدتي. أدركت فجأة أن هناك أربعة أعين متطفلة يحدقون إلى وجهي، وينتظرون ما سأقوله.

شعرت بوطأة نظرات المرأتين، رحت أتململ فوق مقعدي لكني بقيت صامتة.

وعندها صاحت دورا بصرامة:

- أجيبي عن سؤال أمكِ يا ماريان!

صاح صوت ضعيف داخل رأسي: «وما شأنكِ أنتِ في كل هذا؟»، لكن هذه الكلمات بقيت حبيسة داخل حلقي، ولم تسمعها دورا قط. أدركت فجأة أن هذه الزيارة تم الترتيب لها بغرض استجوابي ليس إلا.

أجبتُ وأنا واعية تمامًا للنظرات التي تتبادلها المرأتان بينما أتحدث:

- أعطيتكِ إياها في المرة الأخيرة التي جاءتني فيها.

رغبت بشدة في مغادرة الطاولة والركض إلى الخارج، أن أكون في أي مكان عدا تلك الغرفة بصحبة هاتين المُتهِمتين. لم أرغب في الإجابة عن أي من أسئلتهما. حتى عندما تحدثت مع جارنا، لم أستطع التفوه بتلك الكلمة التي أخافتني. منذ ذلك الحين، دفنت هذه الكلمة في مكان مظلم من عقلي، وأوقفت نفسي عن التفكير فيها. بيد أنني في تلك

الجلسة علمت علم اليقين أنني سأسمعها: أنتِ حامل. لكن لا يمكنني أن أكون حاملًا، أليس كذلك؟ شعرت براحة يدي تتعرق، وفمي يجف، فنكستُ عيني إلى الأسفل، وثبتُّ نظراتي على الطاولة.

ساد الصمت لوهلة بعد إجابتي، وكانت دورا هي أول من بددته بقولها:

- أخبرتني والدتكِ أن ذلك حدث قبل عدة أسابيع.

ومرة أخرى طلب مني ذلك الصوت الضعيف داخل رأسي أن أسأل عن السبب الذي يجعل دورا تطرح عليَّ كل هذه الأسئلة عوضًا عن أمي. ولكن بقيت على صمتي.

عندما أدركتْ دورا أخيرًا أنها لن تحصل على أي رد مني، هتفت قائلة:

- فلتسمعيني إذن يا ماريان: ستجيئين معي إلى منزلي، وسأحاول مساعدتكِ. إن تفويت دورتكِ طوال هذه المدة الطويلة ليس بالشيء الصحي بتاتًا.

لاح لي بصيص من الأمل. أحقًّا تستطيع دورا أن تفعل هذا؟ أحقًّا تستطيع أن تعيد لي عادتي الشهرية؟ إلا أن القلق الذي كان ينهش أحشائي مذ عرفت الدنيا لم يغادرني لحظة.

رفضت عينا أمي مقابلة عيني، وبمجرد مغادرة دورا، رغبت أمي في تجنب أي حديث حول هذه المسألة، فقامت وبدأت في رفع الأكواب من على الطاولة. أردت أن أحدثها، أردت أن تقول لي شيئًا، أي شيء، لكنها تهربت مني، وتظاهرت بالاعتناء بجاك الصغير، فانحنت عليه تلاطفه، ما جعل شعرها يتدلى على وجهها، ويحجب عني أي تعبير يمكن أن يتبدى عليه.

هتفتُ أخيرًا بعدما استمر الصمت لفترة طويلة بما يكفي لجعلي أشد توترًا واضطرابًا:

- ماما، سأذهب إلى دورا الآن، هل تسمحين لي؟

أومأت برأسها فورًا، لكنني كنت لا أزال عاجزة عن رؤية وجهها، ولاحظت أنها لم تسألني قبل خروجي عن المدة التي سأبقاها هناك، ولم تطلب أن أصطحب أخي وأختي معي كالمعتاد.

عندما دلفتُ إلى غرفة الجلوس في بيت دورا، لم يظهر على تصرفاتها ما قد يزيد من اضطرابي. كانت الجارة الودود التي اعتدت التعامل معها، ولم يظهر عليها أي أثر من الغلظة التي أبدتها في منزلنا قبل قليل. كانت ابتسامتها عريضة كالعادة عندما طلبت مني بصوت دافئ أن أستلقي على الأريكة كي تتحسَّس بطني وتتفحصني.

شعرتُ بالاطمئنان إليها، ورأيت أنها لا تريد لي إلا الخير، فأطعتها واستلقيتُ، وأرحتُ رأسي على أحد المساند، ووضعت قدمي على الآخر، وثبتُّ ثوبي بإحكام من تحتي.

هتفتْ بتودد:

- هيا يا مار. لا أستطيع مساعدتكِ وأنتِ تتصرفين على هذا النحو. دعينا نرفع تنورتكِ قليلًا يا عزيزتي.

ثم رفعت يداها ثوبي بسرعة البرق، وضغطت بيديها على بطني، وبينما كانت تتفحصني عازمة على تحقيق غرضها، لاحظتُ للمرة الأولى الجذور الداكنة في شعرها الأشقر، والتجاعيد حول عينيها، وآثار الدخان حول فمها. كانت هناك قسوة على وجهها لم أتبينها من قبل، وشعرت فجأة أنها كانت امرأة غريبة، وأنني على مدار السنوات التي عرفتها فيها، لم أكُن أعرفها على الإطلاق.

هتفت أخيرًا:

- حسنًا يا ماريان. أحسب أنني أعرف ما المشكلة. لدي شيء هنا وأظن أنه سيساعدكِ.

أمرتني أن أبقى كما أنا، وانطلقت إلى المطبخ. سمعت قعقعة الطناجر، وأصوات الخزائن والأدراج وهي تُفتح وتُغلق، ثم بعد ما بدا لي وكأنها عقود، عادت دورا حاملة صينية في يدها.

أخذتني رعدة لما رأيت ما كان موضوعًا عليها؛ ليس لأنني كنت أعرف ما ستفعله، بل لمجرد يقين بداخلي أن تلك الأشياء الموضوعة على الصينية هي أشياء مريعة تبعث على الرهبة. كان هناك أنبوب مطاطي أسود اللون، بقمع مثبت في أحد طرفيه، وإبريق يتصاعد منه البخار، وشيء يشبه بالونًا أحمر سميكًا. وضعت دورا الصينية على الطاولة، وسحبت بطانية كانت ملقاة على الأريكة، وفرشتها على الأرض، ثم وضعت الصينية بجانبها.

هتفت:

- عليكِ النزول على الأرض كي ينجح هذا. (دون أن تقدم أي تفسير لما كانت ستفعله).

هبطتُ من فوق الأريكة وأخذت أتطلع إليها بعصبية.

قالت:

- انتظري ثانية.

ثم سارت إلى الباب الأمامي، وأغلقته، وأنزلت فوقه الستائر، ثم أشعلت الأنوار.

وعندئذ هتفتْ بمرح:

- والآن أنزلي ملابسكِ التحتية.

كما لو أن التعري والرقود على أرضية منزلها شيء عادي يحدث كل يوم. شعرت بخديَّ يحترقان من الخجل والخوف، وخلعت ملابسي التحتية محاوِلة أن أستر نفسي بتنورتي دون جدوى.

هتفت ضاحكة:

- هيا يا مار، لا تكوني سخيفة. (ورفعت تنورتي إلى ما فوق خصري مجددًا).

صاحت دورا:

- يا إلهي يا ماريان! لم أكن أعلم أنكِ كبرتِ إلى هذه الدرجة.

ثم وضعت وسادة تحت مؤخرتي، وباعدت ما بين ساقيَّ. أخذ شعوري بالحرج يتعاظم حتى استحال خزيًا حقيقيًّا.

قالت وهي تلتقط أنبوبًا:

- هذا لن يؤلمكِ. ابقي ثابتة فحسب.

وهالني الذعر لمَّا وضعت ذلك الأنبوب بداخلي. وفي لمح البصر التقطتْ الإبريق وبدأت في صب محتوياته من الماء الدافئ والصابون داخل القمع. وأخذتني رعدة لمَّا شعرت بالسائل الدافئ يتدفق بداخلي.

كانت الابتسامة قد اختفت من على وجهها، وحل محلها تصميم قاسٍ على إنهاء المهمة التي بدأتها.

أكدتْ لي:

- علينا تنظيف كل الموجود بالداخل. (دون أن تمنح ذلك الموجود بالداخل اسمًا. وأضافت) إنه هو الذي يمنع دورتكِ الشهرية.

عندها ظهرت في ذهني صورة لما قد يكون بداخلي. في مخيلتي، رأيت طفلة متناهية الصغر، بأطراف نحيلة عاجزة، وراحت تلك الطفلة تتلوى بلا حول ولا قوة وهي تغرق في بركة الماء الذي تصبه دورا في جسدي. تذكرت القطيطات الصغيرة المسكينة وهي تغرق في البركة، وأخذتُ أنتفض زعبًا.

أردت أن أملأ الدنيا صراخًا، أن أتوسل إليها أن تتوقف، لكن الأوان كان قد فات، فقد أفرغت الإبريق لآخر قطرة. وضعت دورا وسادة إضافية تحت ساقي، وأمرتني أن أبقى على هذا الوضع لأطول فترة ممكنة. كان كل ما تكرمت عليَّ بقوله هو:

- كلما طال بقاء هذه المياه بداخلك، زادت الفرصة في نجاح هذه العملية.

وبعد مدة بدت لي دهرًا، أحضرت دورا دلوًا كي أفرغ فيه ذلك الماء. حذرتني قائلة:

- عندما تبدئين النزيف يا ماريان ستجدين أنه ثقيل. حضري المناشف الصحية وأبقيها بجانبكِ. كما قد تنتابكِ بعض التشنجات، فإليك هذان القرصان اللذان سيساعدانكِ على تخفيف الألم. (ووضعت قرصين بيضاويين في يدي).

غادرتُ منزل دورا، وعدت إلى منزلنا. ولم تحاول أمي أن تسألني عن أي شيء.

كانت دورا محقة في شيء واحد؛ لقد أصابتني تشنجات بالفعل، تشنجات مؤلمة أخذت تمزق أحشائي، وتركتني خائرة القوى. إلا أنها كانت مخطئة بشأن النزيف.

لقد رفضت عادتي الشهرية المجيء على الرغم من كل هذا.

خلال الثماني والأربعين ساعة التالية، تناوبت دورا وأمي على سؤالي عن العادة الشهرية، وعما إذا كانت قد عادت إليَّ. أخبرتهما عن التشنجات وعن الألم الذي أعانيه، والوهن الذي يدب في جسدي، لكنهما لم يهتما سوى بشيء واحد؛ هل بدأت أنزف أم لا؟ في كل مرة كنت أقول فيها «لا»، كانتا تنظران إلى بعضهما بعضًا في يأس، ولا تعلقان بشيء.

فكرت في جارنا. أكان يعرف شيئًا عن الأنبوب المطاطي والماء والصابون؟ وتساءلت لماذا لم ينطق أحد منهم بكلمة «حامل» قط. كانت دورا، وليس أمي، هي التي اصطحبتني بالقطار إلى لندن كلينك. استلقيت في العيادة على ظهري، وتم تثبيت ساقيَّ في ركاب معدني. ثم دخل الطبيب. كانت عملية الفحص مؤلمة. شعرت بالعجز والمهانة. سالت الدموع ثخينة على خدي، لكني كتمت شهقات الوجع، وحولت رأسي بعيدًا عن المشهد كله. كانت ثمة ممرضة تقف إلى جواري، وتمسك بذراعي، وتملس على شعري بلطف، إلا أنني عندما تطلعت إلى عينيها أبصرت فيهما الامتعاض جليًّا.

بعد الفحص تحول الطبيب إلى دورا، وأخذ يحدثها، دون أن يفكر في توجيه كلمة واحدة لي. سمعته يقول:

- مضت أكثر من ثلاثة أشهر.

كنت أعرف ما يعنيه ذلك، أن هناك طفلًا بداخلي، أو طفلة بالأحرى. لقد استمعت إلى دورا تسأله عما إذا كان هناك أي شيء يمكنه فعله، وعلمت أنها تطلب منه أن يقتل طفلتي.

قال:

- كلا، لقد فات الأوان على هذا.

تمنيت ألا تسمع طفلتي حديثهما.

علقت دورا في أثناء مغادرتنا العيادة قائلة:

- حسنًا، هذا هو قدركِ إذن. (ولم تنطق كلمة «حامل» ولو مرة واحدة).

في الطريق إلى المنزل، أخبرتني دورا أن عليها أن تذهب إلى مدرستي، وتتحدث إلى مديرة المدرسة، وأن عليَّ البقاء في المنزل إلى أن تنتهي من هذه المهمة.

سأل صوتي الداخلي مجددًا: «لمَ هي التي تفعل ذلك؟ أين أمي من كل هذا؟»، لكني أسكتُّه. أعادتني دورا إلى أمي ثانية. مالت دورا برأسها تهمس في أذن أمي كلامًا لم أستطع سماعه. لم تعلق أمي بكلمة، واكتفت بالتحديق إليَّ بوجه خالٍ من التعبير.

دارت في رأسي ملايين الأسئلة: ماذا سيحدث لي؟ كيف سيتصرفون معي؟ هل سيسألونني عن الأب؟ ماذا عليَّ أن أقول؟ كانت الأكاذيب التي لقنني الجار إياها جاهزة على لساني تنتظر من يسمح لها بالانطلاق. بيد أن أحدًا لم يسألني هذا السؤال!

ذهبت إلى مدرستي في اليوم التالي، لأن أحدًا لم يطلب مني العكس. بيد أنني لم أصل إلى قاعة الدرس، فبمجرد دخولي من البوابة، قبضت يد على ذراعي، وسمعت صوت معلمتي يأمرني بأن أذهب من فوري إلى مديرة المدرسة. ولما وصلت إلى مكتبها، سُمح لي بالدخول مباشرة.

أعلمتني بأنهم سيطردونني من المدرسة. تشدقت المديرة بكلام كثير، مؤكدة على أنني الآن صرت صاحبة تأثير سيئ على بقية الطالبات، وأن ما اقترفتُه كانت جريمة لم يُسمع بها قط في مثل هذه السن، وأنني تسببتُ لها وللمدرسة بالكامل في خيبة أمل كبيرة. ثم أتبعتْ ذلك بسيل صادم من العبارات، التي خجلتُ من مجرد فك شفرتها

أو فهمها بالكامل. سيطرتْ كلماتها على ذهني، وأطبقت شفتي؛ فلم أنطق بحرف، وغادرتُ المدرسة دون كلمة إضافية.

عند خروجي من البوابة كنت أبتهل إلى الله كي أجده هناك، ينتظرني في سيارته كالمعتاد، لكنني لم أعثر له على أثر.

لم أعرف ماذا كان بوسعي أن أفعل، فقررت العودة إلى المنزل. عندما عرفتْ أمي أنني غير مسموح لي بالعودة إلى المدرسة، قالت ببساطة:

- حسنًا، وما الذي كنتِ تتوقعينه؟

قبل أن أستطيع إعمال ذهني والتفكير في إجابة مناسبة، جاءت كلماتها التالية لتخبرني على أي شاكلة ستكون الأشهر التالية، والتي تركتني مبهوتة غير قادرة على النطق.

قالت بإصرار:

- من الأفضل ألا يراكِ أحد. من الضروري ألا يعرف أحد.

وضعت أمي قواعدها: ممنوع الخروج إلى الطريق الرئيسي، أو الذهاب إلى الحقول، أو زيارة البركة. ولم تكتفِ أمي بهذا، فقررتْ ألا أخرج إلى حديقة المنزل الأمامية أيضًا، كيلا يراني أحد من المارة. وإذا كنت بحاجة إلى هواء نقي، يمكنني الخروج إلى الفناء الخلفي، حيث تقع دورة المياه. أما إذا زارنا أي شخص، سيتعين عليَّ الصعود إلى غرفة نومي، والبقاء فيها إلى أن يغادر الضيف. لم يكن من المسموح أن يراني أي شخص غريب عدا دورا. تطلعت إلى أمي في رعب بينما أحاول استيعاب الفكرة؛ لقد قررت أن تضعني في سجن، وتحبسني فيه طيلة أشهر حملي القادمة.

فتشت في ملامحها عن أي بقايا مشاعر يمكن أن تحملها نحوي؛ بعض رحمة، أو بعض اهتمام، وللحظة خُيل لي أنني رأيت وميض شفقة

على محياها، لكنه سرعان ما اختفى، وعلا وجهها التعبير نفسه الذي تبدى على وجه دورا يوم كانت تحاول التخلص من طفلتي؛ التصميم والقسوة. ولما رأيت هذا التعبير وتبينت مدى عزمها وتصميمها، علمتُ أن لا شيء يمكن أن أقوله ويؤثر في قرارها، وأن كل محاولات استعطافها ستكون بلا طائل.

استأنفت أمي كلامها تقول:

- وبالمناسبة يا ماريان، أبوك يرغب في التحدث إليكِ بعد عودته من المزرعة. يمكنكِ البقاء في غرفة نومكِ حتى ذلك الحين.

شعرت بأن جدران المنزل تضيق وكأنها ستنغلق عليَّ وتكتم أنفاسي. وسألت أمي في يأس:

- لكن لمَ يتعين عليَّ البقاء في غرفتي؟

كانت الإجابة التي قدمتها ردًّا على سؤالي هي أن مزاجه قد يتحسن بعد تناول طعامه، وأنها لا تريده أن يراني إلى أن ينهي وجبته.

كان عليَّ الانتظار ساعة قبل أن يعود أبي من عمله، وقد مرت كل دقيقة من تلك الساعة وكأنها سنوات. تشنجت معدتي من الرهبة والترقب، واستولى على عقلي سؤال واحد راح يصول ويجول في ذهني بلا رحمة: إذا استطاعت أمي الوقوف ضدي بهذه الطريقة، وهي على ما هي عليه من الوهن والبؤس، فكيف سيكون حال أبي صاحب المزاج النكِد واليد الباطشة؟

وقفت أراقب الطريق من نافذة غرفة نومي، وأعتصر الستارة البالية بين يدي. تطلعت بعيني أبحث بهما في كل مكان متسائلة عن الجار. لقد غادرتني جميع الأفكار السيئة عنه في ذلك اليوم، نسيت كل ما أجبرني على فعله، وكل تلك الأشياء التي لم أكن راضية عنها. كل ما تذكرته هو

اليوم الذي أنقذني فيه من الرجل مبتور الساقين. تردد صدى صوته في رأسي يؤكد لي أنه لن يسمح لأي شيء بأن يؤذيني، وأنه سيظل موجودًا بجواري ليرعاني ويتولى أمري. أردت أن يجيء إلى منزلنا ويصحح كل شيء ويحل جميع المشكلات. ظللت أحدق وأحدق حتى كلت عيناي وأنا أنتظر عودته من العمل. وأخيرًا عندما عاد الجار، فوجئت عندما مرَّ وقد أبقى رأسه محنيًّا.

سألت نفسي: «ألا يشعر بعيني تكادان تخرقان رأسه؟»، ومرة أخرى همس صوتي الداخلي: «بلى، إنه يعلم أنكِ موجودة، ويشعر بكِ تقفين في النافذة وتتطلعين إليه في تلك اللحظة، لكنه لن يرفع رأسه، ولن يساعدكِ». راقبته يسير إلى منزله دون أن يتوقف ولو لثانية ويرمي نظرة واحدة في اتجاهي. ظللت جامدة مكاني خلف الستارة، أحدق إلى الفراغ. كنت أُطمئن نفسي بأنه سيخرج مرة أخرى وينظر لأعلى ويمنحني تلك الابتسامة التي كانت مخصصة لي ذات يوم، تلك التي طالما أخبرتني أنني بنت مميزة. لكنه لم يظهر مرة أخرى. لم أرَ بعد ذلك إلا أبي فوق دراجته في طريقه عائدًا إلى المنزل.

نظر أبي إلى الأعلى وهو ينزل عن دراجته، وعلى الرغم من أنني حاولت الاختباء بعيدًا عن ناظريه، فإني كنت متيقنة من أنه رآني.

لا بد أن ساعة أخرى قد مرت قبل أن يناديني أبي. سلمت أمري، وخرجت من الغرفة، وهبطت الدرج بساقين مرتعشتين، وركبتين رخوتين. وقف أبي يراقبني وأنا أهبط الدرج. أدار كرسي المطبخ، وجلس مسندًا ذراعيه إلى ظهر الكرسي، وأخذ ينظر إليَّ، إلى عيني مباشرة. حاولت أن أتجنب نظراته الصارمة، ونكست بصري إلى أسفل، وأخذت أتطلع إلى الرسوم الباهتة على المشمع باهتمام مفتعل.

سأل:

- أي فوضى لعينة ورطتِ نفسكِ فيها أيتها البلهاء؟

كنت أعلم أنه لم يكن سؤالًا حقيقيًّا، فهو لم يمنحني فرصة للرد عليه، بل أعقبه بالسؤال الثاني مباشرة، وفي هذه المرة أيضًا لم يكن ينتظر إجابتي:

- أفترض أنكِ لن تطلعيني على اسمه، ألستُ محقًّا؟

وحينها تأكد لي أن جارنا كان على حق؛ لن يطالبني أحد بالكشف عن هوية الأب.

هززت رأسي ببؤس، ولكني بطريقة ما فهمت أنه لا يريد أن أكشف له عن اسمه أصلًا.

هتف صوت من أعماقي يقول: «إنهم يعرفون بالفعل! الجميع يعرف من فعلها!»، لكنني رفضت الإنصات له، فقد كانت دلالته أكثر تعقيدًا وبشاعة من قدرتي وقتها على الاستيعاب.

وقفت معقودة اللسان أنتظر سماع ما سيدلي به. ولم يتعين عليَّ الانتظار طويلًا في الواقع.

- حسنًا، اسمعيني إذن أيتها الفتاة. عليكِ أن تبقي بعيدًا عن الأنظار في أثناء وجودكِ في المنزل، هل تفهمين ما أقول يا ماريان؟

همست في تعاسة:

- نعم يا أبي.

- ساعدي أمكِ في العناية بالصغار، ولكن لا تدعيني ألمح ولو مجرد خيالكِ على الطريق الرئيسي. بل وعليكِ ألا تخرجي من باب المنزل الأمامي حتى. هل كلامي واضح يا ماريان؟

- نعم يا أبي. أمرتني أمي بأن أفعل هذا بالضبط.

- حسنًا فعلتْ. والآن هناك شيء أخير.

تساءلتُ عما يمكن أن يقوله ويزيد به من شقائي وبؤسي.

- لا أريد أن أراكِ تتطلعين من النافذة مجددًا. أهذا مفهوم؟

إذن فقد رآني، ولا بد أنه كان يعرف عمن كنت أبحث. انتظرت منه أن يضيف شيئًا، لكن ما قاله لم يزد على:

- اذهبي الآن وتناولي عشاءكِ.

حاولت مداراة ما كان يعتريني من جزع، وتحركت مبتعدة عنه باتجاه الطاولة. كنت أشعر ببعض الارتياح لأنه أعفاني من ضرباته الباطشة على الأقل. جلست في مكاني بصمت أمام الطاولة، وجاهدت بكل السبل كي أستطيع ابتلاع القليل من اليخنة الموضوعة في الطبق أمامي. لقد أصاب جارنا في تنبؤه؛ لم يكترث أحد بمعرفة اسم الأب. بيد أنه أخطأ في مسألة ضربي، فقد نجوت من هذا على الأقل.

# الفصل الثامن والعشرون

على الرغم من أن أمي كانت تزور دورا من حين لآخر، فإن زيارات دورا إلى منزلنا كانت قد وصلت إلى نهايتها. على مدى الأسابيع التي أعقبت طردي من المدرسة وحبسي داخل المنزل، لم أرَ سوى والديَّ وإخوتي. لم أستطع من جدران المنزل الأربعة فكاكًا، كما لم أستطع أن أجد مهربًا من برودة أمي، أو لا مبالاة أبي، أو هجران الجار. إلا أنني وجدت لي ملاذًا آخر، ملاذًا متخيَّلًا داخل رأسي. بدأت في هذه الفترة أؤلف القصص والحكايات مرة أخرى، لكنها هذه المرة لم تكن عن حيوانات لطيفة من ذوات الفراء، أو أطفال صغار عاشوا في حقب زمنية أخرى. رحت أنسج القصص عن رضيعتي ذات الرائحة الزكية، التي تنام معي في غرفتي، وترتدي الملابس الصوفية الجميلة، ذات اللون الوردي، والتي أحوكها لها بمنتهى السرور. تصورت ابنتي بشعر أشقر وعينين زرقاوين، مثل دميتي بيليندا. رأيتها في مخيلتي تكبر شيئًا فشيئًا، وتتحول من رضيعة إلى طفلة صغيرة تمد ذراعيها لي، وتناديني ماما، وتمنحني من المحبة أكثر مما منحني أي شخص آخر في هذا العالم. اخترت لها اسم سونيا، وكانت الابتسامة تعلو وجهي كلما تخيلت اليوم الذي ستجيء فيه وتنير حياتي. في تلك الأيام الأربعة عشر، كنت أريح يدي على بطني وأتخيل كيف تنمو طفلتي بداخلي، دون أن تكون لدي أدنى فكرة عما كان يرتِّب له أبواي.

هل فسرت أمي هدوئي تفسيرًا صحيحًا؟ أكانت تعلم أنه بسبب توهمي أن أسوأ ما يمكن حدوثه قد حدث بالفعل؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنها لم تقل شيئًا يزيل عن عيني الغشاوة أو يجعلني أفيق من ذلك الوهم.

لقد تركت هذه المهمة لموظفة الخدمة الاجتماعية التي جاءت في اليوم الخامس عشر. أعلنت الدقات الواثقة على الباب الأمامي وصولها. تذكرتُ تعليمات أمي وتأكيدها عليَّ بأن أصعد من فوري إلى غرفتي كلما زارنا أحد، وتوجهت بخنوع إلى الدرج كي أخفي نفسي بعيدًا عن الأنظار.

إلا أن أمي أعلنت بصرامة:

- ابقي حيث أنتِ يا ماريان.

وقفت محتارة أسفل الدرج، منتظرة معرفة من ذلك الذي وصل ولا تمانع أمي في أن يراني. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا كي أكتشف على أي حال.

فتحتْ أمي الباب ووجدنا امرأة أنيقة في منتصف الأربعينيات من عمرها ماثلة أمامه. لم أستطع تمييز وجهها الخالي من المكياج، أو أتذكر أنني رأيته من قبل. أخبرتني أنها تُدعى الآنسة كوبر، وأنها ستكون موظفة الخدمة الاجتماعية المسؤولة عن ملفي. وأضافت أنهم أوكلوا إليها حالتي بعدما أبلغت المدرسة السلطات بمسألة حملي. كما أكدت لي أنها ستكون الموظفة المسؤولة عن اتخاذ الترتيبات اللازمة عندما يحين موعد الوضع.

حينما سألتني عن الأب، قدمت لها إجابتي الجاهزة:

- لا أدري.

بشفتين مزمومتين في نفور وتعالٍ، تمتمتْ الموظفة تقول:

- آه صحيح! لقد أخبرتني مديرة المدرسة بذلك الأمر فعلًا.

هتف الصوت الغادر في رأسي يؤكد لي: «إنها لا تحبكِ. لقد أتت إلى هنا لتؤدي وظيفتها ليس إلا، ولا تبالي بكِ مثقال ذرة». وعلمت أن الصوت يخبرني بالحقيقة.

دون أي أثر للاهتمام في صوتها، أبلغتني بالترتيبات التي تم اتخاذها، والصورة التي سيؤول إليها مستقبلي أنا والجنين القابع في رحمي. أكدت لي أنني يتعين عليَّ الذهاب إلى نُزل خاص بالأمهات غير المتزوجات بمجرد أن يبلغ حملي ستة أشهر.

سألت في قنوط:

- لماذا؟ لماذا لا يمكنني الولادة هنا في المنزل مثل أمي؟

كانت البلدة التي يقع فيها هذا النُزل تبعد مسافة عشرين ميلًا.

أجابت ببرود:

- هذا غير ممكن يا ماريان.

وعندئذ سمعت كلمة «تبني» للمرة الأولى، وبينما كنت أحاول استيعاب ما كانت تعنيه، فهمت شيئًا فشيئًا ما قرره أبواي ووكالة الرعاية الاجتماعية بشأن مستقبلي ومستقبل ابنتي. سيكون عليَّ التخلي عن صغيرتي. سيحرمونني منها ويقدمونها إلى زوجين آخرين مناسبين، وسيجعلان من هذين الزوجين أبوين لها. علمت أنني لن يُسمح لي بالبقاء معها لمدة تزيد على ستة أسابيع، وبعدها سينتهي كل شيء، وأتمكن من العودة إلى منزلي بعد زوال العبء المخيف أخيرًا.

أدرت رأسي أحدق إلى أمي غير مصدقة ما كنت أسمعه. بالتأكيد لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. لا يمكن أن يحرموني من ابنتي، أليس

كذلك؟ بيد أنه بعد إلقاء نظرة واحدة على وجه أمي التي كانت تتحاشى النظر إليَّ، عرفت أن هذه هي الحقيقة.

سمعت موظفة الخدمة الاجتماعية تتحدث بصوتها البارد الخالي من أي عاطفة، وتقول:

- إنكِ في الثالثة عشرة من العمر فحسب. إنكِ ما زلتِ طفلة يا ماريان، وعليك العودة إلى مدرستكِ وحياتكِ. وكي أصدقكِ القول، أنتِ غير قادرة على الاعتناء بطفل، كما أن سلوككِ لا يوحي بأنكِ فتاة مسؤولة. إنكِ لا تعرفين من هو الأب حتى. أليس هذا صحيحًا؟

لم يكن لدي جواب أدافع به عن نفسي، ولسبب لم أفهمه كانت هي وأمي تعلمان جيدًا أنني ليس لدي ما أقوله.

تابعت الموظفة كلامها دون أن تبالي بفزعي الواضح ولو قليلًا:

- ستبقين في ذلك النزل خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من حملكِ. ترغب والدتكِ في بقائكِ هناك خلال تلك الفترة، وذلك كي لا يرى إخوتك الآخرون علامات الحمل تتبدى بجلاء عليكِ. ثم ستبقين لستة أسابيع أخرى بعد ولادة الطفل.

وحينها ملأني الخوف؛ خوف كاد يصيبني بالشلل، خوف جعل أنفاسي تحتبس، وركبتيَّ ترتخيان، ومعدتي تتدفق بأحماضها، خوف خنق صوتي، ومنعني من فتح فمي وقول أي شيء. أصابني الوهن، وتغلغل في نفسي الشقاء، وغمرتني موجات من اليأس. لم يقتصر الأمر على ترتيب أبويَّ لكل شيء من وراء ظهري كي يتم تبني طفلتي، فقد قررا فوق كل هذا إرسالي بعيدًا. بيد أنني فيما عدا تلك الليلة التي كنت فيها وصيفة الشرف في زفاف عمتي قبل زمن طويل، لم أقضِ ليلة

واحدة بعيدًا عن عائلتي. أرعبتني فكرة العيش بعيدًا عنهما طوال هذه المدة.

تم تحديد الموعد، والاتفاق على أن تعود الموظفة في غضون شهرين لاصطحابي إلى نُزل الأمهات غير المتزوجات. بعد أن أتمت مهمتها، أغلقت الملف، ودسته تحت إبطها، ونهضت بكل أنفة.

عندما أغلقنا الباب خلفها، نظرت إلى أمي وصحت بكل قواي:

- لن أفعل!

قالت أمي بضجر:

- إنه القرار الأفضل.

- الأفضل لمن بالضبط؟

أجابت:

- للطفل يا ماريان.

زمّت أمي شفتيها بإصرار، واستدارت مبتعدة عني. وعرفت أن النقاش قد انتهى.

لم يبقَ لي شيء لأفعله سوى الذهاب لغرفة نومي، ومحاولة البقاء بعيدًا عن أمي قدر المستطاع، على الأقل إلى أن أشعر بالقدرة على مواجهتها من جديد. ولعل أمي وعت هذا، فلم تنادِني لمساعدتها في الأعمال المنزلية كما كانت تفعل في العادة. جلست على حافة سريري غير المرتب أحدق إلى الجدران كالبلهاء. ثم وجدتني أقبض على وجهي بيدي، وأعتصره بين أصابعي بيأس وإصرار. تركت أصابعي علامات بيضاء صغيرة في كل مكان ضغطت فيه على وجنتي. شعرت بدموعي تتجمع خلف مآقيّ، والغصة داخل حلقي تكبر وتغلظ وتهددني بالاختناق. بدأت في استرجاع الحديث الذي جرى بيني وبين الموظفة،

وأفكر فيما قررته لي أمي، ولا شعوريًّا أخذ جسدي يهتز للأمام والخلف في ذعر مطلق.

«ماذا فعلتُ؟ ماذا فعلتُ؟ ماذا فعلتُ؟». ظل السؤال يهدر في رأسي مرارًا وتكرارًا. ثم سمعت صوتي الداخلي الماكر يهمس باستهزاء: «وماذا كان بإمكانكِ أن تفعلي؟!». أخذ السؤالان يطاردان بعضهما بعضًا داخل رأسي، ويثيران جنوني مرة تلو الأخرى. لم أستطع إيقافهما. كان عقلي مخدرًا من الصدمة والارتياع.

ثم كان أن انضم إليهما سؤال ثالث، سؤال ليس جديدًا بحال: لماذا لم يحاول أبواي معرفة من يكون الأب؟

# الفصل التاسع والعشرون

في ذلك الصباح الذي قُرر لي فيه الانتقال إلى نُزل الأمهات غير المتزوجات، استفقتُ من نومي العميق فجأة. أخبرني شعاع الضوء الخافت الذي تسرب عبر ستارة النافذة أنني استيقظت في وقت أبكر بكثير من اللازم. إلا أن شيئًا ما أيقظني في تلك الساعة، كان صوتًا خافتًا لم أستطع أن أحدد مصدره. كل ما عرفته هو أنه لم يكن قادمًا من غرفتي. شرع قلبي يخفق في توتر بينما كانت أذناي تجاهدان لسماع ما كان يحدث. نهضت من فراشي، وذهبت باتجاه النافذة، وهنا أخذ الصوت يقوى، ولما أمعنت النظر رأيت فراشة محاصَرة بين الستارة والزجاج. كان صوت خفق جناحيها هو ما أيقظني، حيث كانت تكافح باستماتة لتنال حريتها.

فتحت نافذتي كي أتيح لها الهرب، وراقبتها بينما كانت تخفق بجناحيها وتطير إلى بعيد، فرِحة بحريتها. تمنيت لو كان بإمكاني اللحاق بها.

كانت قد مرت ثمانية أسابيع على زيارة موظفة الخدمة الاجتماعية. وكان هذا هو اليوم الذي تعين عليَّ فيه مغادرة منزلنا. كان لا يزال عليَّ أن أحزم أمتعتي. نظرت ببؤس إلى قطع الثياب القليلة الهزيلة التي كنت أملكها. لم يكن لدي الكثير منها، بيد أن تكُّور بطني قلل الخيارات الضئيلة المتاحة أمامي. ألقيت بها واحدة إثر الأخرى بغضب، فتجمعت

أمامي في كومة صغيرة فوق السرير. في وضعي الجديد هذا، صرت أجد صعوبة جمة في اتخاذ حتى أبسط القرارات.

تطلعت إلى نفسي في المرآة، فرأيت على سطحها المغبش فتاة تختلف كثيرًا عن تلك التي كانت تقف أمام مرآتها قبل وصول موظفة الخدمة الاجتماعية. تلك الأسابيع التي مرت عليَّ ببطء شديد قد حولتني إلى فتاة لا أكاد أميزها. لم يعد بالإمكان إخفاء بطني البارز من جسدي النحيل. أي شخص يراني كان سيدرك على الفور أنني حبلى. كان صدري الصغير -الذي صار يؤلمني بمجرد لمسه- قد تكور وصار أكبر حجمًا. أما وجهي فقد تبدى عليه الوهن، حيث زالت عنه ملامح البنات الصغيرة الطفولية، تاركة إياه بعظام خد بارزة وذقن مدبب.

كانت الفتاة التي تحدق إلى وجهي بعينين كئيبتين، حمراوين من كثرة البكاء، تقف أمامي شاحبة ضعيفة، بشعر استحال جافًّا هشًّا، وفم بدا وكأنه نسي الابتسام منذ مدة طويلة.

كنت أشعر بثقل الجنين في أحشائي، وكان ظهري يقتلني ألمًا، لكن الأسوأ من كل هذا كان الحزن العظيم الذي استهلك روحي، وطاردني في صحوي ومنامي. كنت أفيق فأجد وسادتي مبللة بدموعي، خصوصًا مع اقتراب خسارتي الوشيكة لصغيرتي، تلك الطفلة التي كنت قد وقعت في حبها بالفعل. وطوال الفترة الماضية، وأنا أفكر في ذلك اليوم الذي كان يقترب شيئًا فشيئًا، كنت أشعر بحركتها داخلي، في تلك المساحة التي أفردتها لها، تحت قلبي مباشرة.

كنت أتخيلها وهي متكورة على نفسها بداخلي، وكنت أعرف أنها اتخذت شكلها المثالي، وصارت تشبه الأطفال بالفعل منذ شهري

السادس، وأن كل ما كان عليها فعله هو النمو أكثر قليلًا قبل أن تأتي إلى هذا العالم.

كل ليلة قبل أن أخلد إلى النوم، وكل صباح عندما كنت أستيقظ، كنت أتحدث معها بصوت هادئ حنون. لقد عرفت بالفطرة أنها كانت بنتًا. وخلال تلك الليالي أخبرتها كم كنت أحبها، وكم كنت أتطلع إلى مقابلتها، لكنني لم أستطع أن أحمل نفسي على أن أنطق كلمة «تبني»، أو حتى مجرد أن أعترف بها.

في ذلك الصباح مررت يدي على بطني، شاعرة بتكوره واستدارته. سألتها:

- هل يمكنكِ الشعور بهذا يا سونيا؟ هل يمكنكِ الشعور بيدي وهي تلمسكِ؟

كانت الاستعدادات الصغيرة بجسدي التي تنبئ باقتراب وصولها الوشيك تزيد حزني على الفراغ الذي ستخلفه ابنتي في حياتي بعد رحيلها. فتحركاتها البسيطة بداخلي تسعدني بقدر ما تشقيني، وامتلاء صدري استعدادًا لإرضاعها يثير اشتياقي بقدر ما يثير قلقي.

سألتُ نفسي في يأس: «كيف يمكن أن يفعلوا هذا بي؟ بل كيف يمكن أن يفعلوا هذا بها؟». فكرت في الزوجين المجهولين اللذين كانا ينتظران ولادتها، وأخذت أتخيل على أي شاكلة كانا.

تصورت الزوجين يعيشان في منزل واسع رحب، إلا أنه كان منزلًا حزينًا خاليًا من ضحكات الأطفال. في ذلك المنزل ستكون هناك غرفة نوم مزينة على طراز الباستيل، جاهزة لاستقبال طفلتي، ملآنة بالعرائس والدمى المحشوة بالقطن. وفي منتصف الغرفة سيكون هناك مهد أبيض اللون، وقد عُلقت فوقه دوارة موسيقية متحركة. وإلى

جوار النافذة سيكون هناك كرسي هزاز تجلس فوقه أم ابنتي الجديدة، تهدهد الطفلة بحنان وهي ترضعها من زجاجة حليب. أما على الحائط فستثبَّت خزانة جميلة ذات أدراج واسعة، وستكون ملآنة بثياب الأطفال الحريرية والصوفية الملونة، وعلى الأرض ستُفرش سجادة من الصوف، ليست مثل السجاجيد المصنوعة من القماش الخشن التي نصنعها بأيدينا في منزلنا، بل من الصوف الناعم المنقوش عليه ورود جميلة منمنمة. سيكون بذلك المنزل حمام داخلي، وشرفة أرضية، وملابس جميلة ومريحة للجلوس، بمقاعد وثيرة تتناثر فوقها الوسائد الملونة الزاهية. تخيلت كم كانا يرغبان في دخول طفل إلى حياتهما، وأن ابنتي ستحظى بالمحبة منذ اللحظة التي ستذهب فيها بصحبتهما إلى المنزل. وعندئذ رحت أبكي وأنتحب وأندب حظي. علت شهقاتي وقد سيطرت عليَّ مشاعر الخسارة، فابنتي لن تعرفني، والأسوأ أنني لن أعرفها.

# الفصل الثلاثون

علا صوت موظفة الخدمة الاجتماعية يقول:

- حان وقت الذهاب يا ماريان، هلمي بنا!

ثم تطلعتْ إلى حقيبتي الصغيرة وتابعت:

- هل هذا هو كل ما لديكِ؟

قلت:

- نعم.

حملت الموظفة الحقيبة، وأردفت تقول بابتسامة مزيفة:

- لا يمكننا ترككِ تحملين أوزانًا ثقيلة الآن، أليس كذلك؟ (وتقدمتني خارجة من الباب الأمامي).

نظرت إلى أمي، ورأيت ظلالًا داكنة قد خطها التعب تحت عينيها. رأيت بطنها -الذي كان أكبر من بطني- وقد تكور وبرز من تحت ثوبها البالي. بحلول الوقت الذي سيكون عليَّ فيه العودة إلى المنزل، سأجد طفلًا آخر هنا. وللأسف الشديد، لم أكن أستطيع أن أقول الشيء نفسه عن طفلتي.

وقفت أمي إلى جوار الباب بينما كنت أجتازه. أردت منها أن تقول لي كلمة لينة، كلمة يمكنني في الليالي الطويلة القادمة التي سأقضيها وحدي تذكرها، وترديدها، والتماس العزاء منها.

أردت أن أهتف بصوت عالٍ: «عانقيني يا أمي! أخبريني أنكِ ستفتقدينني، أو قولي ببساطة إنك تحبينني». لكن الكلمات بقيت حبيسة رأسي، وبقيت أمي جامدة، دون أن تند عنها أي بادرة تخبرني أنها يمكن أن تحقق لي رغبتي البسيطة. كل ما قالته في آخر لحظة لم يزد على:

- اعتني بنفسكِ.

ثم وقفت في المدخل تراقبني وأنا أغادر. تطلعت إلى المنزل الآخر، منزل الجيران الكائن على الناحية الأخرى من الطريق، إلا أنني وجدته مغلقًا ساكنًا. لم يكن جارنا أو أي فرد من عائلته في أي مكان على امتداد البصر.

وضعت الموظفة حقيبتي في صندوق السيارة، وطلبت مني أن أجلس وأرتاح. تحركت السيارة من الممر على طول الطريق الذي تحفه الأشجار من الجانبين. كانت حركة المرور بطيئة، فلم أر إلا جرارًا غريبًا لم أميزه، بالإضافة إلى عدد قليل من السيارات ليس إلا. بيد أنني لاحظت أنها كانت تقود بحرص وعناية شديدين، وعيناها مركزتان على المرايا، وقد قبضت على عجلة القيادة بقوة.

أسندتُ رأسي إلى زجاج النافذة البارد، وأخذت أراقب الطريق بشرود. مررنا على حقول خالية من المحاصيل؛ حيث كانت قد حُصدت بالفعل قبل بضعة أسابيع. ثم مررنا بالمزرعة التي عمل أبي فيها، وكان لمرآها تأثير فوري عليَّ، حيث قفزت صورة جارنا إلى ذهني في ثوانٍ. كنت أعلم أنه كان هناك في مكان ما، يصلح جرارًا أو سيارة، وأخذت أتساءل أين كان بالضبط.

سألت نفسي: «ألا يفكر بي أبدًا؟ ألا يُشغل تفكيره لحظة بما سيحدث لي؟ ألا يتساءل عما إذا كنت بخير؟ لا بد أنه يعلم بشأن الطفلة، ولكن أكان يعلم يا ترى أنهم يجبرونني على التخلي عنها مثل جرو غير مرغوب فيه؟».

هتف ذلك الصوت في رأسي: «بالطبع يعلم»، وبسماعه سرى في عروقي غضب حارق إزاء خيانته، جعل وجهي متقدًا بالحرارة وراحتَيَّ متعرقتَيْن. وبعد بضعة أميال، مررنا على الغابات التي كثيرًا ما أخذني إليها الجار واعتدى عليَّ فيها. أخذت أتذكر ما كان يفعله بي، وبدأت أرتعد. وعلى الرغم من أننا كنا لا نزال في منتصف النهار، كان النور خافتًا، وبدا لي أن اليوم لا يزداد إلا قتامة. لقد توارت شمس الشتاء الضعيفة خلف أغصان الأشجار المتدلية من كل مكان. رحت أتأمل في صمت التشابكات التي صنعتها تلك الأغصان وأخفت بها السماء، وكذا الأشكال المخيفة التي صنعتها السحب الداكنة المنذرة بالمطر في تلك السماء.

عند ظهور المنازل الجديدة المتطابقة تمام التطابق في التصميم، علمت بأننا صرنا على مشارف المدينة. وهنا تحدثت موظفة الخدمة الاجتماعية أخيرًا، فحتى تلك اللحظة لم تكن قد تفوهت بحرف. لقد بدت لي غارقة في أفكارها، وربما كنت أبالغ، فلعلها كانت تركز على القيادة ليس إلا، كي لا تضل طريقها مثلًا. أخبرتني الموظفة أنني سأستأنف دراستي في ذلك النزل، وأنهم سيأتون لي بمعلمة كي تشرح لي دروسي، وبحلول الوقت الذي سأغادر فيه المكان، سيكونون قد رتبوا لي بحيث ألتحق بمدرسة جديدة في فصل الربيع.

وأضافت الموظفة مؤكِّدة:

- لن يعرف أحد شيئًا عنك. ستكونين قادرة على أن تحظي ببداية جديدة، ووضع كل أحداث الماضي خلفكِ.

لم تجد كلماتها طريقًا إلى نفسي، ووقعت على أذني دون أثر. كيف تتخيل أنني سأستطيع أن أضع ابنتي خلف ظهري وكأن شيئًا لم يحدث؟

بدأت المنازل الجديدة بحدائقها المربعة في الاختفاء تدريجيًا. وظهرت منازل فيكتورية الطراز عملاقة الحجم كلما تقدمنا في المدينة. بعدما مررنا بها، تحولنا إلى طريق تصطف على جانبيه الأشجار، وتنتشر فيه المنازل الرمادية المبنية بالطوب. قبل الحربين العالميتين، بُنيت هذه المنازل من أجل الأثرياء الفيكتوريين والإدوارديين. كانت هذه هي المنازل التي خدمت فيها الخادمات، وعمل فيها السقاة والطهاة وبقية طاقم الموظفين، يكدحون من الفجر إلى الغسق، وينامون في غرف العلية. وفي النهاية، بعدما رفض الخدم الاستمرار في العمل مقابل الإقامة واللقمة، وطالبوا بالمزيد من الحقوق، وبعدما ظهرت أجيال جديدة أتت على ثروات آبائهم الموروثة، تم تقسيم معظم هذه المنازل إلى مجموعات من الشقق الصغيرة.

توجهت السيارة نحو أحد هذه المنازل. وقد تبين لي على الفور، بسبب البوابة الخشبية الضخمة، والجرس الوحيد الموجود، أن هذا المنزل كان لا يزال على حالته دون تقسيم، على عكس بقية المنازل المجاورة.

قالت موظفة الخدمة الاجتماعية بصوت مبتهج:

- ها نحن أولاء.

كما لو كنا في نزهة جميلة، أو كأن وصولنا إلى المنزل كان مفاجأة غير متوقعة!

تطلعت ببصري إلى الخارج، ورأيت مبنى مهيبًا من الحجر الرمادي، ببوابة أمامية ضخمة سوداء، تتجلى عليها الزخارف والنقوش، والتي كانت تتجلى على جميع نوافذ الطابق السفلي أيضًا. رأيت الستائر مُسدَلة على كل باب ونافذة، ستائر معتمة تمامًا، تخفي أي علامات على وجود أي شخص في الداخل. وقد انتشرت الشجيرات -التي تحولت إلى اللون البني بسبب فصل الشتاء- في الحديقة التي امتدت من جدران المنزل وحتى الرصيف. ولأنني كنت معتادة على حديقة أمامية ضيقة، تنتشر على عشبها الألعاب المكسورة والأعشاب المتشابكة، وجدت تلك الحديقة الشاسعة فارغة بشكل غريب. وفي البعيد كان هناك بستان كبير، أشجاره عارية من الأوراق، وتخيلته في الصيف يظلل عربات الأطفال الذين سيولدون في المنزل.

وبينما أخذت أتطلع حولي في محاولة لاستيعاب المناظر المحيطة بي، رفعت الموظفة حقيبتي من السيارة، وحملتها، ثم أمرتني بأن أتبعها. دقت الموظفة الجرس بأنفة، واستطعت سماع صوته المرتفع يتردد صداه داخل المنزل المهيب. خلال ما بدا وكأنه ثوانٍ، فُتحت البوابة الأمامية.

ولما دخلت وجدت نفسي في قاعة ضخمة، لها أعلى سقف رأيته في حياتي. كانت الأرضيات الداكنة خشبية مصقولة، وعلى الجدران المغطاة بورق الحائط الثمين عُلقت لوحات ضخمة تصور مشاهد الريف القديمة، وبورتريهات تصور الأثرياء الفيكتوريين المتقشفين وهم ينظرون إلينا من عَلٍ.

قالت موظفة الخدمة الاجتماعية تخاطب المرأة التي جاءت ووقفت أمامنا، والتي كانت بزيها وشعرها الرماديين منسجمة مع مظهر المنزل المظلم الداكن:

- ها قد أحضرتُ ماريان.

تطلعت إليها وقلت لنفسي إنه إذا ما اتكأت هذه المرأة الرمادية على السطح الخارجي للمنزل، فإن كل ما سيراه الناس هو وجهها المستدير وذقنها السمين!

أومأت هذه المرأة -التي سأعلم لاحقًا أنها المشرفة- لموظفة الخدمة الاجتماعية برأسها، وأكدت لها أنها ستتولى الأمر من هذه النقطة.

وبعد كلمة وداع سريعة، تركتني مرافقتي، التي لم تبالِ بي بأي شكل كان، والتي كانت آخر وجه مألوف أراه خلال الفترة الطويلة القادمة. وقفتُ في القاعة كالمخدَّرة، وحقيبتي البالية تقبع إلى جانبي. صنع الذعر عقدة في معدتي بينما كنت أقف قبالة المرأة الرمادية التي ستكون المسؤولة عني خلال الأشهر القليلة القادمة.

# الفصل الحادي والثلاثون

كان لتتابع السنوات اللاحقة أثره على ذاكرتي؛ إذ محا الكثير من ذكرياتي عن ذلك المكان، وعمن التقيتهن فيه من فتيات، فيما عدا وجهين اثنين ما زالت ملامحهما ماثلة أمام عيني؛ وجه المشرفة الصارم، ووجه أول فتاة حدثتني هناك. عندما أعود بذاكرتي إلى ذلك الزمن، فإن أول ما يخطر ببالي لا علاقة له بوجوه الموظفات اللائي عملن في المنزل، أو قصص الفتيات اللائي عشن فيه. أول ما يتبادر إلى ذهني في واقع الأمر هو حالي حينذاك وأنا في الثالثة عشرة من عمري، وعاطفة الحب القوية التي شعرتُ بها نحو الطفلة التي كانت تنمو في أحشائي، والارتياع الشديد من آلام الولادة المتوقَّعة، والتعاسة التي أثقلت قلبي كلما فكرتُ في أمر التبني الوشيك لطفلتي.

لم يبقَ في ذاكرتي بخصوص الفتيات الثلاث اللائي التقيت بهن في اليوم الأول سوى النذر اليسير، أما أسماؤهن فقد اختفت في غياهب الظلمات. الفتاة الأولى -وهي الوحيدة التي ما زلت أذكر تفاصيل وجهها من بين جميع الفتيات- كانت طويلة القامة، نحيلة الجسد، فيما عدا انتفاخ بطنها بحملها طبعًا. كانت تبلغ من العمر عشرين عامًا، وبدت لي وقتها أكبر مني بكثير، فتاة ناضجة حقيقية. أتذكر بجلاء كل كلمة وجهتها لي في ذلك اللقاء الأول:

- يا إلهي! كم أنتِ صغيرة أيتها الفتاة! مَن ذا الذي فعل بكِ هذا يا ترى؟

ما زلت أتذكر ملامح وجهها الهازئة وصوت ضحكاتها المكتومة عندما قدَّمت لها إجابتي الجاهزة:

- لست أدري.

ثم علَّقت ساخرة:

- آه! أحقًّا هذا؟ ألا تدرين فعلًا؟ أراهن بأن عمًّا بدينًا ممن يترددون عليكم هو من فعلها، وأنه أمركِ بعدها بأن تغلقي فمكِ. أتساءل عما هددكِ به. هل هددكِ أيتها الصغيرة؟ هل أخبركِ أن الجميع سينقلبون عليكِ أنتِ؟ طبعًا، طبعًا! هذا هو ما حدث، ألستُ محقة؟

وبينما كنت أتطلع إليها والدهشة قد عقدت لساني، أبصرتُ الخبث يتراقص في أعماق عينيها البُنيتين، تزيد من تأثيره الماسكارا الغامقة والكحل الفاحم. وعندئذ فهمت. لقد وجدت فيَّ هدفها المنشود؛ الفتاة الضعيفة التي تستطيع بالتنمر عليها التنفيس عن إحباطها ويأسها. بيد أن الأسوأ من كل هذا كانت قدرتها على قراءتي ككتاب مفتوح.

واصلتْ الفتاة أسئلتها الماكرة تقول:

- أم أن المسألة أنكِ تحبينه كثيرًا ولا تريدين لأمره أن يُفتضح؟ أراهن أنه لم يكن اغتصابًا أصلًا.

جلجلت ضحكتها عاليًا إذ رأتني أجفل. حقًّا، لقد أصاب تخمينها الهدف!

لكن على أي حال، ما الجواب الذي كان بإمكاني أن أقدمه لها؟ في ذلك الوقت لم أكن أرى أن ما فعله جارنا بي كان اغتصابًا، لكنني لم أكن متأكدة من معنى كلمة اغتصاب أصلًا. وعلى هذا بقيت على صمتي ولم أقل شيئًا.

ندت من فمها ضحكة قاسية أخرى؛ إذ فسرت صمتي على أنه اعتراف، غير أني لم أكن أدري بما كنت أعترف بالضبط. وفي جميع الأحوال، كنت متيقنة من أن ضحكاتها الساخرة كانت تحكم عليَّ وتدينني بالدنس.

عندما رأت الفتاتان الأخريان مقدار إحراجي وضيقي، طلبتا منها أن تتركني لحالي وتلتزم الصمت. وعدا هذا، لا أتذكر أي شيء آخر قالتاه لي، وإن كنت أذكر جيدًا معاملتهما الطيبة معي.

الشيء الآخر الذي أذكره جيدًا في الواقع هو روتين المنزل. كان علينا في كل صباح أن نستيقظ في السابعة والنصف، ونرتب أسرَّتنا، قبل أن نجتمع لتناول الإفطار في غرفة الطعام، ثم يجيء دور الأعمال المنزلية التي كنا نؤديها بالتناوب.

تم إعفائي من مهام إعداد الغداء وغسل الأرضيات الذي كانت جميع الفتيات الأخريات يقمن به، لأنني كنت الفتاة الوحيدة التي لا تزال في سن المدرسة، ما عنى أنني كانت لدي دروس يتعين عليَّ حضورها. كنت أجلس خمسة أيام في الأسبوع في الغرفة المشتركة، وأحاول بكل جهدي حل التمارين التي تتركها لي المعلمة الزائرة، والتي كانت تزورني عدة مرات في الأسبوع. في الساعات التي تلي انتهائي من المهام المسائية، كنت أجلس في غرفتي، وأفتح دفاتري على مكتبي، وأحاول التركيز على الواجب الذي أعطتني المعلمة إياه.

وأظن أن الفتيات الأخريات تخيلن أنني بهذا استطعت التنصل من العمل الشاق بالمنزل، لكنهن لم يكنَّ على دراية بحقيقة أمري. لم تكن أي منهن لتتخيل أنني كنت أفضِّل أن أعمل معهن وأكدح على أن أجلس معزولة في الغرفة وحدي، منكبة على الكتب المدرسية التي لا أبالي بأمرها حقًّا.

في عطلات نهاية الأسبوع، كان يتم تكليفي بكنس السلالم وفرك الحمامات والمراحيض، والتي كانت أكثر الأعمال الروتينية كراهة لدى الجميع. وأظن أنهن رأين أنه بما أنني استطعت النفاد من معظم المهام الشاقة خلال الأسبوع، فإنني كنت مخولة بتعويض هذا الامتياز الذي حظيت به وحدي، وأن تكليفي بهاتين المهمتين البغيضتين كان واجبًا عليَّ.

كانت الغرف المشتركة مسؤولية الجميع، وكانت القاعدة أنه إذا خلفنا وراءنا أي شيء، مهما كان صغيرًا، يكون على الفاعلة أن تدفع غرامة قدرها بنس واحد. وبما أنني لم أكن أملك أي مال، فلقد تعلمت بسرعة أن أكون منظمة مرتبة. كانت كل فتاة تقوم بأعمال الغسيل والكي الخاص بها، وهو شيء كان يروقني ويسعدني في الواقع، لأنني استطعت به أن أرتدي ملابس نظيفة مهندمة كل يوم.

عندما أتيت إلى ذلك المنزل، ذي الأرضيات المصقولة، والحمامات النظيفة، والمطبخ المنظم، أدركت إلى أي مدى كنت أكره في بيتنا المشمع الملطخ بالبقع، والأسطح المزيتة، والملابس المجعدة المتسخة، والرائحة الزنخة، وكلما تذكرت مدى إهمال أمي في أمور التنظيف والترتيب كنت أرتجف اشمئزازًا.

علمتني الفتيات الأكبر سنًّا كيف أطهو بعض الوجبات البسيطة، وفي المساء علَّمنني كيف أقوم بفك خيوط البلوفرات القديمة الصوفية التي كان يتم ابتياعها من المتاجر الخيرية، بحيث أستطيع بعد هذا حياكة ملابس للرضع من تلك الخيوط. لم يكن لدي المال لشراء أي شيء، ولا حتى هذه البلوفرات المستعملة، واكتفيت حينئذ بمساعدة الفتيات على لف خيوط الصوف في كرات كبيرة ثم مراقبتهن وهن يحولنها إلى ملابس للرضع.

وفضلًا عن الغرفة المشتركة، كانت هناك صالة رسمية مؤثثة بكراسي مرتفعة الظهر، منجدة بالمخمل، وأريكة وثيرة منجدة بقماش من قطيفة منقوش بالزهور، وعدة طاولات صغيرة. لم تكن هذه الغرفة تُستخدم سوى مرة واحدة كل أسبوعين، حيث تعطي فيها ممرضة الولادة الزائرة دروسًا في الولادة، فتعلمنا كيف نتنفس في أثناء المخاض، وكيف نرعى المولود الجديد.

في أثناء تلك التدريبات كان ذهني يشرد بعيدًا. كنت أفكر في الأزواج الذين ينتظرون ولادة أطفالهم مثلنا، وكم ستكون تجاربهم مختلفة تمام الاختلاف عن تجاربنا، فهم على الأقل سيحتفظون بأطفالهم. كل زوجين يأنسان في البداية ببعضهما بعضًا، سينضم طفلهما الوليد إليهما، ويكوِّنون معًا عائلات يظللها الحب والرحمة.

أما المكان الذي كانت الأمهات الجدد ينتقلن إليه بعد الولادة فكانوا يسمونه الحضانة، وكان هذا يتم بمعرفة المشرفة. كانت الحضانة تقع في الطابق نفسه الذي تقع فيه غرف نومنا، إلا أن لها بابًا مزدوجًا. وهناك كانت الأمهات الجدد يرعين مواليدهن تحت إشراف المرأة التي تقوم بتوليدهن.

بعد مرور أيام قليلة من انتقالي إلى ذلك المنزل، بدأ جزعي يزداد من آلام الولادة، وأيضًا من حقيقة أن المشرفة كانت الحل الوحيد لتخفيف هذه الآلام. كانت نظرات مشرفتنا لا ينقصها برود أو قسوة. كانت ترانا فتيات خاطئات، ولا تحمل لنا في قلبها من تعاطف أو شفقة إلا النذر اليسير.

وكثيرًا ما كنت أسمع النحيب يتردد في أرجاء المنزل. في بعض الأحيان كان يختفي فجأة وكأن صاحبته دفنت رأسها في وسادتها لتكتم صوتها عن الآذان. في أوقات أخرى، مثل الأيام التي تضطر فيها كل أم جديدة إلى تسليم وليدها للغرباء، وإتمام إجراءات التبني، كنت أسمع

شهقات الألم الحزينة، وصيحات الخسارة اليائسة. رأيت تلك الفتيات الملتاعات يخرجن من المنزل شاحبات الوجوه، لا تزال صدورهن تقطر حليبًا لن يذوقه أطفالهن أبدًا، يسرن حاملات حقائبهن بأكتاف محنية، وخطوات متعثرة، في الاتجاه الذي سيأخذهن إلى موقف الحافلات. أتساءل الآن إلى أين ذهبن، هذه الفتيات اللائي لم تجئ عائلاتهن القاسية لاصطحابهن، أو يكتب إليهن الرجال الذين أوهموهن في الماضي بأنهم يحبونهن. بدأت أنسج قصصًا في ذهني وقتها عن هؤلاء الفتيات الصغيرات البائسات، تصورت فيها مصيرهن بعدما نبذتهن عائلاتهن وأحباؤهن. لقد تخيلتهن وقد أصبحن جليسات أطفال معزولات، يتنقلن بين النُزُل، ويعشن في أحوال مزرية.

بعد مرور كل هذه السنوات، أصبحت ذكرى فتيات هذا المنزل مشوشة تمامًا، مجرد أشباح ببطون منتفخة؛ بعضهن غاضبات، وبعضهن الأخريات حزينات، ومعظمهن مهزومات. كان لدى كل منهن قصتها المؤسفة، عن أحباء تركوهن، وأسر نبذتهن، ورجال وثقن بهم فاعتدوا عليهن. ومثلما حدث لي مع وجوههن، لم أعد الآن قادرة على التمييز بين قصص تلك الفتيات البائسات، والتي سمعت منها الكثير.

بيد أنه مرت علينا بضع مناسبات سعيدة على أي حال. في تلك المناسبات النادرة، كانت الفتاة تغادر المنزل حاملة رضيعها بين يديها، وقد جاء فرد أو أكثر من عائلتها لاصطحابها، بعد أن قررت العائلة الترحيب بالأم والطفل في المنزل. كما كانت هناك مناسبة واحدة، حضر فيها شاب لاصطحاب طفله وأم طفله، بعد أن خطَّ لها رسالة تقطر أسفًا وندمًا، يخبرها فيها برغبته في الزواج بها.

غادرت هذه الفتاة المحظوظة نزل الفتيات في ذلك اليوم، ووجهها يحمل أعرض ابتسامة رأيتها في حياتي.

# الفصل الثاني والثلاثون

كنت أصغر فتاة في ذلك المنزل، والوحيدة التي لا تزال في المدرسة. في اليوم الذي وصلت فيه، أعلموني بمكان غرفتي، ولأنني كنت بحاجة إلى الدراسة، حصلت على غرفة فردية. في تلك الغرفة كان هناك سرير واحد، وخزانة لأشيائي القليلة، ومكتب ذو كرسي خشبي يمكنني العمل عليه في المساء عندما تحتشد الغرفة المشتركة بالفتيات. حين تجلى ما سيؤول إليه وضعي خلال الأشهر المقبلة، سقط قلبي رهبة بين ضلوعي. صدمتني الحقيقة القاسية: هذه الغرفة الموحشة، التي لا أثر فيها لأشيائي الشخصية أو ذكريات طفولتي، ستصبح بيتي وملجئي إلى أن ألد. شعرت بأنياب العزلة تطبق بفكيها عليَّ. اشتد حنيني إلى عائلتي على الرغم من كل شيء، وشعرت باشتياق شديد إلى غرفة نومي التي قضيت فيها أغلب أوقاتي، خصوصًا في الفترة الأخيرة، بعد اكتشاف حملي.

في الليلة الأولى التي بتُّ فيها في نزل الفتيات، استيقظت عدة مرات على ضجيج غير معتاد؛ هدير قطارات، وسيارات تنطلق باستمرار على الطريق، ناهيك بأصوات المحتفلين بعطلة نهاية الأسبوع، حين يعودون إلى شققهم، مصطحبين معهم فتيات ليل خليعات، يتبادلون معهن الدعابات والهتافات. بمجرد اعتيادي هذه الأصوات، بدأت ألاحظ صوتًا مزعجًا آخر؛ وهو هدير غلاية التدفئة المركزية المستمر طوال الليل.

لم أعش في بيت قديم بهذا الحجم من قبل، وبدا لي وكأنه يئن ويعول، ويعلن عن وجوده بأبشع الصور الممكنة بمجرد أن نأوي إلى النوم.

وبأعلى المنزل كانت هناك غرف العلية. كانت هذه الغرف هي مأوى الخدم في زمن آخر، إلا أنها فيما بعد تحولت إلى مُصلًّى صغير. وفي كل يوم أحد، كانت جميع الفتيات -باستثناء أولئك اللواتي وَلَدن حديثًا- يذهبن للاستماع إلى العظة التي يقدمها أحد القساوسة المحليين.

كان هناك شيء معين في ذلك المكان يشعرني بالراحة والسكينة، ولعلها بساطة جدرانه المطلية بدهان فاتح، ومقاعده الخشبية المتشققة والمقشرة. بيد أن كلمات القساوسة، التي تفننت في التحدث عن ذنوبنا وآثامنا، والطرق التي يمكننا بها أن نطلب المغفرة والتوبة، كانت تفشل دائمًا في التخفيف عني.

بعد الموعظة الدينية الأسبوعية، كانت المشرفة تقدم حديثًا قصيرًا لا يكاد يتغير. كان موضوعه المتكرر هو أننا جميعًا خاطئات مذنبات. وكانت المشرفة تعرب لنا عن أملها في أن نخصص من وقتنا ما يكفي للتفكير في خطايانا، بحيث عندما نعود إلى العالم الخارجي نعيش حياة فاضلة شريفة. كانت كلماتها ذات الإيقاع الرتيب لا تلقى مني أذنًا مُصغية. كنتُ عوضًا عن الاستماع إليها والتفكير في الذنوب والتوبة والحياة الشريفة، أشيح ببصري عن كل هذا، وأتطلع إلى النافذة -التي تمت إضافتها عند تحويل العلية إلى كنيسة كي تمنحها مظهرًا أكثر قدسية- وأتأمل زجاج النافذة الملون الجميل باهتمام وتركيز.

من خلال تلك النافذة كنت أرى رقعة من السماء، كانت مظلمة في بعض الأحيان زرقاء في أحيان أخرى، وإلى هناك كنت أوجِّه صلواتي الصامتة.

كنت أقول في ضراعة: «أعلم أنني كنت مخطئة، ولكني أناشدك المغفرة يا إلهي. أنا آسفة جدًّا، آسفة لأنني ارتكبت هذا الخطأ».

كنت لا أدعو لنفسي بقدر ما أدعو لطفلتي الصغيرة. كنت أدعو في صمت وأقول: «أتوسل إليك يا إلهي أن تحافظ عليها، وتجيء إليَّ سالمة معافاة».

وسرعان ما حل أسبوع عيد الميلاد، وبدت حتى الفتيات الأكثر حزنًا مبتهجات بقدوم العيد. قيل لنا إنه في يوم عيد الميلاد، لن يقتصر الأمر على عشاء عيد الميلاد مع كل المقبلات والحلوى المخصصة لذلك اليوم، إذ سيمكننا استخدام الصالة الرسمية كذلك. بل وأخبرونا أنهم سيسمحون لجميع الأطفال المولودين بدخول الغرفة المشتركة بصحبة أمهاتهم.

في ليلة عيد الميلاد، تم إحضار شجرتين كبيرتين تبرعت بهما إحدى الشركات المحلية، ووُضعت إحداهما في القاعة والأخرى في الردهة. منحتنا المشرفات صناديق كبيرة من الزينة، وأخبرتنا مبتسمات للمرة الأولى أننا مسموح لنا بقضاء فترة الصباح في تزيينها. انطلق المذياع بأناشيد عيد الميلاد وأخذنا نغني معها فرِحات. التفَّت الفتيات اللواتي كن في آخر حملهن حول الشجرتين، وقد انتفخت بطونهن بأحجام مختلفة، بينما صعدت الفتيات الأخف وزنًا على الكراسي التي ثبتتها الفتيات المتبقيات وهن يتضاحكن ويتمازحن، وأمسكن بحبال الضوء والكرات الملونة وبدأن في تعليقها على كل فرع. وبما أنني كنت الأصغر بينهن، فقد استقرين على أن أزين الفروع السفلية. وبينما كنت منهمكة في تعليق الكرات المتلألئة باللونين الفضي والقرمزي، ظهرت المشرفة فجأة، وأخبرتني أن لدي زائرًا ينتظرني.

كان أول ما تبادر إلى ذهني: «لقد جاء الجار أخيرًا!». بيد أني حين تبعت المشرفة إلى القاعة ذهلت عندما رأيت عمتي، تلك التي كنتُ وصيفة الشرف في زفافها قبل سنوات. كانت واقفة هناك تتطلع إليَّ بابتسامة.

سمعت صوتها يقول:

- كيف حالكِ يا ماريان؟

وشعرت بالدموع تغشى عيني. رغبت في إلقاء نفسي بين ذراعيها. كنت مسرورة للغاية لرؤية أحد أفراد عائلتي أخيرًا، إلا أن خجلي من وضعي أوقفني جامدة عاجزة عن فعل أي شيء.

قدمت المشرفة لنا أحد المكاتب الصغيرة كي نستطيع الجلوس والتحدث، وبقيت منتظرة أن تخبرني عمتي عن سبب زيارتها العجيبة، والأهم عن الكيفية التي عرفت بها أين أكون.

قالت مجيبة عن سؤالي الذي لم أنطق به علانية:

- لقد أخبرني والدكِ يا عزيزتي. لا أعلم يا ماريان ما حدث لكِ بالضبط، لكني أعلم تمام العلم أنه كان غاضبًا ولا بد أنه صبَّ جام غضبه عليكِ. وعلى الرغم من كل هذا، فإن ما أريد منكِ أن تعلميه أنه هو الذي طلب مني زيارتك.

قلت لنفسي إنه ببروز بطني إلى هذا الحد، فإن ما حدث لي كان جليًّا تمامًا. لكن ما فاجأني حقًّا كان ما قالته بخصوص أبي. إن أبي هو من طلب منها المجيء إليَّ! أدهشني حقًّا هذا الكلام. كنت أظن أنه آخر شخص في العالم يمكن أن يتعاطف مع محنتي، غير أنه كان هو الذي تحدث إلى أخته، وطلب منها زيارتي في العيد.

رأيت عمتي وهي تلقي نظرة سريعة على بطني المتكور قبل أن تستأنف قائلة:

- أشك في أن ذلك كان خطأكِ بالكامل. أخي لا يظن أنه خطؤكِ على كل حال، بغض النظر عما أخبركِ به. وقبل أن تسأليني، اعلمي أنه لم يخبر أي شخص آخر. لم يخبر سواي. حتى والدتكِ لا تعرف أنني هنا.

ثم أخرجت طردًا ملفوفًا بالورق الذهبي اللماع من حقيبتها، ووضعته على الطاولة أمامي.

هتفت عمتي بمرح:

- لا تفتحيه قبل الصباح يا ماريان. لم نرغب في أن نتركِكِ بلا هدية تفرحين بها في الغد.

ثم منحتني عمتي قبلة صغيرة على خدي، وسرعان ما غادرت مخلِّفة وراءها سحابة من العطر. وقد بقي دفء زيارتها معي في تلك الليلة وطوال اليوم التالي. كل ما كنت أفكر فيه هو أن عائلتي لم تنسني.

غير أني إن كنت مدهوشة لرؤية عمتي تزورني في ذلك النزل، فإن زائرتي القادمة مثلت لي الصدمة الأكبر.

عندما أخبرتني المشرفة للمرة الثانية في ذلك اليوم بوجود شخص يرغب في رؤيتي، دب الأمل في قلبي من جديد.

تساءلت مرة أخرى عما إذا كان الجار. لكن لم يكن هو الذي قدم إلى زيارتي. كانت زوجته دورا.

أبصرت دورا أمامي تحمل طردًا بين يديها، وتنظر إليَّ بعصبية. ارتسمت على وجهها ابتسامة زائفة وهي تنحني لتمنحني عناقًا سريعًا.

بدت دورا مختلفة بالنسبة إليَّ، وأقل ثقة من المعتاد. خلال الأشهر القليلة التي لم أرها فيها كانت قد كبرت بشكل واضح. ظهرت خطوط جديدة حول عينيها، وعلا الشحوب الرمادي خديها، وقد أخفق مكياجها الثقيل في إخفاء كل هذه التغييرات عن عيني.

هتفت بمرح زائف:

- تبدين بخير يا مار.

مستخدمة اسم التدليل الذي تناديني به أحيانًا. لكنني لم أكن أرى المرأة التي كانت بمنزلة خالة لي على مدار السنوات الست السابقة. منذ جئت إلى نزل الفتيات، وذكرياتي عما ظننته في الماضي صداقة -وكل تلك الأشياء اللطيفة التي قامت بها دورا من أجلي- صارت تتضاءل وتنكمش تحت وطأة صورة أكثر وضوحًا وفظاعة بكثير، صورتها وهي تحشر خرطومًا مطاطيًّا بداخلي، محاولة طرد طفلتي خارج أحشائي.

أردت أن أسأل دورا عما تريده بالضبط، لكني عوضًا عن ذلك قدتها إلى المكتب الذي سُمح لي باستخدامه للمرة الثانية في ذلك اليوم. انتظرتها أن تخبرني عن سبب مجيئها. في تلك الساعة، بدا أن رباطة جأشي، إذا كان لي أن أسميها كذلك، تتسبب في إزعاجها. رفضت عينا دورا مقابلة عيني، وأخذت تدير خاتم زفافها في إصبعها بعصبية. كانت أصابعها ترتجف في الواقع، وتشعل سيجارة من وقت لآخر. قدمت لي الطرد، الذي كان ملفوفًا بورق عادي مقارنة بهدية عمتي. كان طردًا ضخمًا حقًّا. ومن جديد سمعت صوتًا يخبرني بألا أفتح هديتي حتى طلوع صباح اليوم التالي. لم تخبرني دورا عن صاحب الهدية، ولم أسألها عنه.

وبعد هنيهة قالت:

- لقد أنجبت أمكِ يا مار. إنه ولد آخر.

ابتلعت ريقي بأسى وأنا أفكر في أمي، تجلس في منزلنا بجوار المدفأة مع مولودها الجديد بين ذراعيها، بينما أبقى أنا وحدي في ذلك المنزل البغيض، في انتظار ولادة طفلتي، كي ينتزعوها من بين ذراعي ويحرموني منها إلى الأبد.

قالت:

- لهذا السبب لم تأتِ معي. إلا أن أمكِ طلبت مني أن أخبركِ أنها ستجيء إلى هنا قريبًا، وستكون إلى جواركِ عند مجيء الطفلة. سيقترض والدكِ سيارة كي يتمكن من توصيلها إلى هنا. وستترك الرضيع الجديد في رعايتي.

قلت لنفسي: «وماذا عن الجار؟». لاحظتُ أنها لم تذكر اسمه ولو مرة، ولم تستخدم حتى كلمة «نحن».

افترضت أنه هو الذي سيقرض أبي السيارة، غير أني لم أقل شيئًا. كان من الواضح أن الجار يحاول قدر استطاعته الاختفاء من حياتي. ومجددًا شعرت بوخز مؤلم في جسدي، حيث سرى إحساسي بخيانته كالثلج في عروقي.

ثم تساءلت قائلة: «هل يعلم أن زوجته أتت لزيارتي يا ترى؟». همس صوت مألوف داخل رأسي، ذلك الصوت الذي يذكرني بالحقيقة باستمرار: «بالطبع يعلم. إنه يعلم كل شيء، وكذلك هي».

حاولت دورا بجهد جهيد التحدث معي، لكن سرعان ما تحول حديثها إلى حوار عصبي، إذ لم أستطع إجبار نفسي على الرد. كانت لدي العديد من الأسئلة، وكنت أريد أن أطرحها عليها كلها: كيف يبدو المولود الجديد؟ كيف حال إخوتي وأختي؟ هل يسألون أمي عني؟

هل أوحشتهم؟ وبالطبع كان هناك سؤال آخر مهم، سؤال لم أنفك أسأله بيني وبين نفسي، مذ كانت هي وليست أمي مَن بادرت بسؤالي عن مناشفي الصحية: منذ متى وأنتِ تعرفين؟ وعندما لم أتمكن من استجماع شجاعتي لطرح السؤال الأخير، قررت تجاهل بقية الأسئلة الأخرى، والبقاء صامتة تمامًا.

ولما شعرتْ أنني لا أستجيب لها، توقفتْ عن الحديث، وقررت أن تنهض وتغادر المكان. كان وجهها يحمل نظرة ارتياح مَن أدتْ واجبها الثقيل على النفس وانتهتْ منه أخيرًا.

خاطبتني دورا قبل رحيلها قائلةً:

- نحن جميعًا في انتظار عودتكِ إلى المنزل.

إلا أنني كنت أعلم أنها لا تقول الحقيقة. خفضت دورا عينيها، وتطلعت إلى بطني للمرة الأولى. ثم تابعت قائلة:

- لم يبق وقت طويل كي يحدث ذلك على كل حال.

جمعت دورا متعلقاتها: وشاح من الصوف ألقته بلا مبالاة على ظهر الكرسي، وقفاز جلدي بالٍ، وأخيرًا حقيبة يدها. ومنحتني قبلة سريعة على الخد بشفتين جافتين باردتين، ثم غادرت. وقفت عند الباب أراقبها تبتعد وتبتعد إلى أن اختفت عن ناظري، وبعدها أغلقت الباب الأمامي بهدوء.

عدت إلى الصالة، والتقطت كرة فضية، وعلقتها بعناية على أحد فروع الشجرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# الفصل الثالث والثلاثون

حل الليل، واحتفلنا جميعًا بليلة عيد الميلاد. بعد أن انتهينا من تناول العشاء، وغسل الصحون، صعدنا جميعًا إلى الكنيسة الصغيرة بالأعلى، حيث تحدث القس عن الغفران وولادة يسوع. لكن ما أسعد الجميع فعلًا هو امتناع المشرفة عن كلمتها المعتادة للمرة الأولى. ومن خلال النافذة رأيت القمر والنجوم تتلألأ في السماء، فأرحت يدي فوق بطني، وفكرت بحنين في طفلتي الصغيرة.

كان النوم عصيًّا عليَّ في تلك الليلة. كان عقلي منشغلًا بالتفكير في عائلتي، وإلى أي مدى كنت أفتقدهم. تساءلت عما سيفعلونه في يوم عيد الميلاد، وما إذا كانوا يشتاقون لي مثلما كنت أشتاق لهم. لقد أسعدني أنهم لم ينسوني، ورسمتْ تلك الحقيقة على وجهي ابتسامة امتنان عريضة. فكرت في إخوتي وأختي وشعرت بأن كل ما كنت أريده هو أن أكون بصحبتهم. تخيلت أمي وهي تحمل الطفل الوليد، وتذكرت كيف ابتسم أبي بفخر عندما وُلد أخي الأكبر، وسألت نفسي: أهو يتصرف بالطريقة نفسها الآن يا ترى؟ وتكهنت بأن هذا هو ما يحدث على الأرجح.

عندما غفوت أخيرًا اخترق ضجيج القطارات أحلامي. تحولت أصوات الجلبة التي تحدثها تلك القطارات إلى صيحات غاضبة تتخلل فترات نومي المتقطعة، مما زاد من شعوري بالوحدة.

أيقظتني أصوات الفتيات الصاخبة في الصباح الباكر، حيث ملأت المنزل الكبير بالحياة. بمجرد أن فتحت عيني هتفت: «لقد جاء يوم عيد الميلاد!». قفزت من سريري باتجاه العلبتين. وبسرعة وحماس فتحت هدية عمتي أولًا، فوجدت داخلها زجاجة عطر مع غسول للجسم وصابونة بالرائحة نفسها. قربت أنفي منها، أمتع نفسي بالرائحة الزكية في امتنان، ثم وضعتها جانبًا، وانتقلت إلى الهدية الأكبر التي جاءت بها دورا إليَّ. كان حذاء جلديًّا بنيًّا مبطنًا بفرو جميلٍ ناعم. لقد كانت أجمل هدية حصلت عليها في حياتي. وقد وجدتُ بطاقة في الداخل تحمل كلمات بخط أمي، والتي كانت تقول: «إليكِ هذا الحذاء كي تبقى قدماكِ دافئتين خلال رحلة عودتكِ إلى المنزل». واستنتجت أن هذه كانت طريقتها في إخباري بأنها تفهم ما كنت أمر به، حتى ولو قليلًا. وضعتُ الهديتين في خزانتي، ثم ارتديت ملابسي، ونزلت إلى الطابق السفلي للانضمام إلى الفتيات الأخريات.

أكثر ما أتذكره من ذلك اليوم كان تجمُّع الأمهات الجديدات في الصالة، واللائي كن يضعن أطفالهن على ركبهن بحبور، ويتظاهرن خلال تلك السويعات القليلة بأنهن أفراد من عائلة كبيرة سعيدة. ولعلنا في ذلك اليوم كنا كذلك. لقد نسينا كل شيء عن خصوماتنا وخلافاتنا الصغيرة، إذ جلست الفتيات الحوامل يحدثن بعضهن بسعادة، ويداعبن بحنان أولئك الرضع الراقدين في أحضان أمهاتهن. قدمت المشرفة لكل طفل دمية صغيرة على سبيل الهدية. وصدح الراديو بالأناشيد والتراتيل، ولبضع دقائق رفعت الموسيقى المؤثرة معنوياتنا وحركت مشاعرنا.

في وقت لاحق من ذلك اليوم استمتعنا بوليمة عيد الميلاد. كانت الوجبة لذيذة، بل في الواقع ألذ الوجبات التي تناولناها في ذلك المنزل، وحاولت جميع الفتيات أن ينشرن البهجة في المكان، فرحن يأكلن

البسكويت، ويتبادلن النكات، ويعتمرن القبعات الورقية الملونة. بيد أن حسًّا خفيًّا بالكآبة كان يخيم فوق تلك المائدة العامرة التي تحلقت الفتيات حولها. كنا نعلم أننا نحتفل بميلاد طفل، وكانت هذه الفكرة بالنسبة إلى معظمنا مؤلمة؛ إذ سلطت الضوء على ما كنا نستعد جميعًا للقيام به؛ التخلي عن أطفالنا في اللحظة التي يأمرننا فيها بذلك، بعد ستة أسابيع فحسب من يوم الولادة.

بعد الغداء استمعنا إلى خطاب الملكة في الراديو، ثم شغلت المشرفة التلفاز الموجود في الصالة كنوع نادر من الترفيه. شاهدنا فيلم White Christmas من بطولة بينج كروسبي. وبمجرد انتهاء الفيلم كان عيد الميلاد قد انقضى دون أن نشعر.

تركت الفتيات بطاقات عيد الميلاد القليلة التي تلقينها على رف الموقد. كانت هذه البطاقات تحمل صورًا لمناظر طبيعية تعبر عن عيد الميلاد؛ أشجار وشجيرات تحولت إلى اللون الأبيض بسبب ندف ثلج الشتاء المتلألئة. عند رؤيتها، تساءلت عن البلد الذي قدم منه المصور. عندما كنت أنظر عبر النوافذ الكبيرة، لم تطالعني أرض العجائب البيضاء، بل أمطار غزيرة ورياح عاصفة. لقد أجبر ذلك الطقس حتى أشد الفتيات تهورًا على البقاء في المنزل.

إلا أنني كنت فتاة ريفية، اعتدت الذهاب إلى المدرسة سيرًا مهما كان الطقس، وكنت أفتقد الشعور بالهواء النقي وهو يلامس وجهي، والهدوء الذي يميز الريف، والذي نادرًا ما كان يزعجه شيء، اللهم إلا سيارة عابرة بين الحين والآخر. بعد أشهر من بقائي حبيسة منزل أبي، عاد إليَّ شعور أنني محاصَرة من جديد، وإن كان هذه المرة بسبب الطقس.

سألتُ المشرفة راجية:

-     هل يمكنني الخروج في نزهة على الأقدام؟

إلا أنها أخبرتني أن المطر جعل العشب زلقًا للأسف الشديد، وأن هذا يشكل خطرًا بالغًا على فتاة توشك أن تضع طفلها. كنت آمل كل صباح أن تدفع الريح الغيوم بعيدًا، وأن تلقي الشمس الشتوية بأشعتها فوق الحديقة. إلا أنه مع طلوع كل صباح، عندما أبصر السماء رمادية، وأسمع صوت المطر يهطل فوق الألواح والعوارض الخشبية، كانت آمالي البسيطة تتحطم مرة بعد الأخرى.

في الأسبوع الأخير الذي كانت طفلتي فيه تستعد للمجيء إلى العالم، تحركتْ إلى أسفل بطني، ما أشعرني بأنني ثقيلة وخرقاء، وبدا لي أن التعب لن ينزاح عن جسدي أبدًا. كان صدري يؤلمني، وظهري يؤلمني، وكلما مشيت شعرت بجسدي يتمايل من جانب إلى الآخر وهو يحاول استيعاب وزني غير المعتاد وهيئتي الجديدة العجيبة.

لكنني كنت أنتظر طفلتي بتوق شديد، فلم تؤثر كل تلك الأمور المزعجة عليَّ كثيرًا. منذ المرة الأولى التي شعرت فيها بركلة طفلتي، أصبحَتْ كيانًا حقيقيًّا بالنسبة إليَّ، وخلال تلك الأيام الأخيرة من الانتظار، كل ما كنت أفكر فيه هو أنني سألتقي بها قريبًا. عندما كنت أتطلع إلى نفسي في المرآة، وأرى بطني المنتفخ بشدة والذي لا يتناسب بحال مع جسدي الهزيل، كنت أجد نفسي معجبة به، فهو في النهاية يعبر عن وجود طفلة تنمو داخلي بكل صحة، طفلة تنمو وتكبر فيكبر معها بطني وينتفخ. كان تغير شكلي وهيئتي يعني أن ابنتي بخير.

ومع ذلك، بدت طفلتي مترددة في المجيء إلى العالم. لقد قدمت إليه متأخرة، متجاوزة الموعد الذي قيل لي إنه سيكون يوم ولادتها. في تلك الأيام شعرت بتوق شديد مفاجئ لاستعادة جسدي، وبارتياع متزايد

من لحظة الولادة. لقد استمعت أكثر من مرة إلى صرخات أمي في أثناء ولاداتها المتكررة، وسمعت كلمات عابرة من نسوة متزوجات عن ألم الولادة الذي لا يمكن تصوره. كنت أتساءل دائمًا لما كان يبدو عليهن دائمًا أنهن نسين كل ذلك الألم ويحبلن في أطفال آخرين.

ما أذهلني في ذلك الوقت كان اشتياقي الشديد لأمي، والذي كاد يحطم أضلعي. وقد حاولت دون جدوى إبعاد أي أفكار عن الجار. لم تصلني منه ولو بطاقة تهنئة بعيد الميلاد، أو رسالة يبرر فيها ما حدث، أو أي شيء آخر يعبر به عن دعمه لي. كنت أعرف أنه هو السبب، السبب في حرماني من أهلي، وبقائي سجينة ذلك النزل اللعين. وتعاظمت كراهيتي له يومًا بعد يوم جراء كل ذلك.

جاءت ابنتي إلى العالم في الصباح. مثلما حدث مع أمي قبل ثلاثة عشر عامًا، استيقظت فوجدت سريرًا مبللًا وقد دب الوجع في كل جزء من جسدي. على عكس أمي؛ لم يكن هناك جسد دافئ بجواري، أستطيع أن أطلب منه أن يغيثني مهما كان غاضبًا. لم يكن هناك سوى جرس صغير فوق سريري، فضغطت عليه طلبًا للعون. لم تكن لدي أيضًا قابلة محنكة تُطمئن قلبي، وتخبرني بأنه لا داعي للقلق، وأنها ستهتم بكل شيء. عوضًا عن ذلك وجدت أمامي امرأة أخرى، وهي المشرفة ذات الوجه الكئيب. ألقت المشرفة نظرة واحدة عليَّ، وأمرت بنقلي إلى غرفة الولادة.

كاد الألم يحطم جسدي، والصراخ يمزق حنجرتي بينما رحت أدفع وأدفع وأدفع، كي أساعد طفلتي على المجيء إلى هذه الدنيا. أتذكر بالتفصيل إحساسي وهي تخرج مني جزءًا بجزء، ثم سماع صرختها، لكن بعدها أظلمت الدنيا، ولم أعد أشعر بشيء.

عندما عدت إلى عالم الواقع من جديد، كان النهار قد انتصف. فتحت عيني فوجدت ممرضة تجلس إلى جوار سريري، أخبرتني أنني فقدت الكثير من الدماء بسبب سني الصغيرة، وأنني كنت بحاجة إلى بعض الغُرز. ثم أخبرتني بما كنت أعرفه بالفعل؛ أنني أنجبت بنتًا.

قلت:

- أريد أن أراها من فضلكِ.

أحضرت لي لفة صغيرة تزن ثلاثة كيلوجرامات تقريبًا. أخرجتُ ذراعي وضممتها إلى صدري. لا أستطيع حتى بعد مرور كل هذه السنوات العثور على كلمات تصف بالإنصاف الكافي ذلك الحب الكاسح الذي شعرت به نحوها بمجرد أن ألقيت عليها النظرة الأولى واستنشقت رائحتها الزكية. طالعت وجهها الصغير، الذي كان لا يزال أحمر ومجعدًا من الجهد الذي بذلَتْه في رحلتها، وفحصت أطرافها الدقيقة، وملست بأناملي على الزغب داكن الشقرة الذي يغطي رأسها، أدركت حينها إلى أي مدى كانت صغيرة وعاجزة وبحاجة إلى رعاية، ولم أكن راغبة في شيء سوى الاحتفاظ بها إلى الأبد. رحت أدرس ملامحها بعناية، فلم أتبين فيها شيئًا من ملامح الجار. رأيت أنها كانت نسخة مصغرة مني، وحمدت ربي كثيرًا على هذا.

حضرت المشرفة بعد ساعة، وأخبرتني أنني في غاية الضعف الآن، وأضافت:

- عليكِ أن تستريحي. لقد مررتِ بوقت عصيب جدًّا يا ماريان.

لم أكن قادرة على الاحتجاج. شعرت بطفلتي تؤخذ من بين ذراعيَّ، وأسبلت جفني رغمًا عني. الشيء التالي الذي أتذكره هو طلوع صباح اليوم التالي. ساعدتني الممرضة على النهوض من السرير وأخذتني

إلى الحضانة، وعلمتني كيف أرضع طفلتي من الزجاجة، وكيف أغير حفاضها. إلا أنني كنت أعرف كيفية القيام بالأمرين منذ سن مبكرة بالفعل.

في صباح ذلك اليوم، عندما أرحت جسدي على أحد المقاعد ووضعت طفلتي بين ذراعي، شعرت أني في عالمي الصغير، عالم لا أحد فيه سواي أنا وابنتي. همست أدندن في أذنها، ورحت أتأملها أمامي كأنها حلم. استقر رأسها على صدري وهي ترضع، وتعجبت من فمها الصغير الذي يمتص الحليب بهذه القوة واللهفة من الزجاجة الصغيرة.

عندما انتهت طفلتي من الرضاعة، أرقدتها برفق على كتفي، واستنشقت بنهم العطر المُسكر لحديثي الولادة، والذي كان مزيجًا من رائحة بشرتها الملساء النضرة، وبودرة التلك، والحليب، أخذت أربت على ظهرها برفق. ووجدت قبضة يدها الصغيرة ترتاح على كتفي، ثم شعرت بتجشؤها كدفقة هواء خفيفة دافئة على خدي، تبعها سيل بضع قطرات من الحليب على كتفي. وأخيرًا سمعت أنفاسها الدافئة اللطيفة وقد انتظمت واستقرت. لقد نامت صغيرتي.

قبَّلتها مجددًا، ووضعتها في سريرها، وغطيت جسدها الضئيل ببطانية حيكت من الكروشيه. ثم بقيت إلى جانبها سعيدة بمراقبتها وهي نائمة كالملاك. ثم ظللت واقفة أتطلع إليها إلى أن أخذتني الممرضة من ذراعي وأعادتني إلى سريري.

وأخيرًا وصلت أمي. لقد جاءت في اليوم التالي، وحينما فتحت عيني وجدتها جالسة بجانب سريري.

سألتني:

- هل أنتِ بخير يا ماريان؟

قلت لنفسي: يا له من سؤال بلا معنى! كيف يمكنني أن أكون بخير وهم سينتزعون طفلتي من بين يدي في غضون ستة أسابيع؟

شعرت ببعض الضيق منها في ذلك الوقت. لمَ لا يكون لطفلتي مكان في منزلنا؟ لقد سمح أبي لأمي بالبقاء عندما ولدت جاك، أليس كذلك؟ أخذت هذه الأفكار تصول وتجول في رأسي، ما صَعَّبَ عليَّ التحدث إليها، فبقيت صامتة بلا رد.

ولما لم يجئها جوابي، تنهدت أمي، ونهضت تنتوي المغادرة.

إلا أنها استدارت وهتفت:

- أعرف ما تفكرين فيه، لكن صدقيني يا ماريان، سيكون الوضع أفضل بهذه الطريقة. إن حياتكِ لا تزال بأكملها أمامكِ، وذات يوم ستتزوجين وتنجبين المزيد من الأطفال. أما الآن فأنت ما زلتِ صغيرة، صغيرة جدًّا.

ثبتُّ عيني على صدرها، الذي كان ممتلئًا بالحليب لأجل أخي الجديد، وزاد ضيقي واستيائي. أدرت وجهي بعيدًا كي أخفي دموعي. وغادرت أمي دون أن تتفوه بكلمة أخرى.

# الفصل الرابع والثلاثون

خلال تلك الأيام التي مكثت فيها في غرفة النقاهة لاستعادة قواي، كانت كل لحظة قضيتها هناك مع طفلتي من أسعد لحظات حياتي. أحببت ذلك الشعور الدافئ بالحماية الذي كان يسيطر عليَّ وأنا أطعمها وأحممها وأحملها. أسميتها سونيا، الاسم الذي اخترته لها عندما شعرت لأول مرة بحركتها داخلي، وخمنت على الفور بأنها فتاة. تمنيت لو كان بإمكاني أن أفعل كل تلك الأشياء بمفردي عوضًا عن أن أكون تحت العين الساهرة للمشرفة أو الممرضة. قلت لنفسي إننا لو كنا في الصيف، لكن سمحن لي باصطحابها للخارج في عربة الأطفال الصغيرة، وكنت سأتمكن من أخذها في نزهات إلى البستان الكبير الواقع خلف المنزل. هناك كنت سأختار إحدى الأشجار، وأجلس تحتها مستظلة بها أنا وابنتي من حر الشمس، وكنت سأستطيع بحرية أن أملي عيني منها كيفما أشاء. إلا أن أيام الشتاء هذه كانت قارصة البرودة، لا تستطيع رضيعة حديثة الولادة احتمالها. لذا عوضًا عن كل ذلك كان عليَّ أن أكتفي بالبقاء معها داخل جدران الحضانة الأربعة.

كانت طفلة لطيفة، حلوة الطبع، رفيقة منذ يومها الأول في العالم، تنام قريرة ونادرًا ما كانت تبكي، وقد واساني هذا بطريقة أو بأخرى، لأنها لو كانت طفلة صعبة المراس، كان سيصعب على أبويها الجديدين أن يحبَّاها، أليس هذا صحيحًا؟

ثم فعلت ما كنت أفعله دائمًا عندما أفكر في هذين «الأبوين الجديدين»، أبعدت هذه الخاطرة عن ذهني بمنتهى القوة والإنكار.

بمجرد استعادة قواي، سُمح لي بالعودة إلى غرفتي، بعدما تم تثبيت مهد صغير لسونيا بجوار سريري.

قالت المشرفة ببعض التعاطف:

- تأكدي من أن تنام الطفلة في مهدها يا ماريان. أعرف ما تهوين فعله أيتها الفتيات، إذ تأخذن أطفالكن معكن في أسرتكن. اعلمي أن هذا سيصعِّب عليكِ الوضع كثيرًا عندما تحين الساعة.

آه، لم أكن بحاجة إلى تذكيري بتلك الساعة المشؤومة.

عندما رأت أنني لا أريد أن أفهم المعنى الكامن وراء كلماتها، جلست على طرف سريري على غير العادة، واستأنفت حديثها بقولها:

- اسمعي يا ماريان، أستطيع بكل جلاء أن أرى أنكِ متعلقة بها، ولا تظنين أنني لا أفهم ما تشعرين به يا فتاتي. إنها طبيعة الحياة، وطبيعة الأمهات. لكنكِ تعلمين أنها لن تعود معكِ إلى المنزل في نهاية المطاف، فلا تجعلي الأمر أصعب مما هو عليه. هذه هي النصيحة التي يمكنني تقديمها إليكِ.

ثم نهضت من فوق السرير، وندَّت عنها تنهيدة طويلة، وبعدها تركتني وحدي مع طفلتي.

وبكل تأكيد لم أترك كلمات المشرفة تنفذ إلى عقلي، أو تؤثر فيَّ، ورحت أحتضن سونيا في كل فرصة أتيحت لي، وأنيمها بجواري على السرير، وأستمع إلى أنفاسها الدافئة. كنت أهمس لها بالكلمات العذبة، وأغني لها أغاني الصغار، وأدللها، وأخبرها بكل السبل كم أحبها.

مرت أيامنا معًا أسرع من البرق، فسرعان ما مضت الأسابيع الستة تباعًا. أدركت فجأة أن وقت الانفصال عن ابنتي، الوقت الذي حاولت إبعاده عن ذهني بكل سبيل، كان قد أصبح على بُعد أيام.

عدت إلى الواقع عندما نادتني المشرفة ذات يوم قائلة:

- بالمناسبة يا ماريان، هل ابتعتِ زيًّا مميزًا لطفلتكِ كي ترتديه عندما تلتقي بأبويها الجديدين؟

حدقت إليها بفم فاغر، فالجميع يعلم أنني لم يكن لدي أي مال، فكيف كان بإمكاني شراء أي شيء لطفلتي؟!

قالت المشرفة عند رؤية وجهي وقد أظلم وكساه الإحباط:

- لا تقلقي يا فتاتي، سنعثر لها على شيء جميل. سيحبها أبواها على أي حال، إنها فتاة جميلة نقية.

في تلك الأيام، الأيام الأخيرة التي أمضيتها معها، كنت أصلي ليل نهار، وأدعو ربي أن يغير والداي رأيهما، ويسمحا لي بأخذها معي إلى المنزل. كانت شديدة الجمال، وشديدة الأدب واللطف، وكنت أعلم أنها لن تسبب أي مشكلات من أي نوع. ثم أي فرق قد يحدثه وجود طفل آخر في منزلنا؟ إلا أن هذا لم يحدث. لم تأتِ الجدة في اللحظة الأخيرة، وتعلن بملء صوتها أنها غيرت رأيها، وأنها تريد اصطحاب حفيدتها الجديدة إلى المنزل، لتكون فردًا جديدًا من أفراد الأسرة.

ثم جاء أسوأ يوم في حياتي.

في ذلك الصباح بعدما حممتها وجففتها، رحت أربت بحنان على كل شبر من ذلك الجسد الصغير المثالي. كنت أحاول حفظ ملمس جلدها في ذاكرتي. حدقت إليها طويلًا، كي تنطبع صورتها في ذهني، حتى عندما أغلق عيني. لم تكن لدي ولو صورة واحدة لأخذها معي إلى

المنزل. بعد أن أرضعتها للمرة الأخيرة، وصلت المشرفة وأحضرت الزي الذي جاءت به كي ألبسها إياه. كانت بذلة رومبير زرقاء اللون.

سألتها بيأس:

- أليست هناك واحدة باللون الوردي؟

كانت فكرة تسليم ابنتي مرتدية ملابس طفل ذكر لا تُطاق. اعتقدت أن أقل ما يمكنني فعله لها هو أن أجعلها تبدو مثالية. أردت أن يرى الأبوان المجهولان مدى الرعاية التي أوليتها لها.. أن يعرفا كم أحببتها.. هذا هو ما أردت أن يخبرا به ابنتي ذات يوم.

أجابت المشرفة:

- إنها القطعة الاحتياطية الوحيدة التي لدينا. أنا آسفة يا ماريان، لكنها مضطرة إلى ارتدائها. (ورأيت أنها فهمت السبب وراء طلبي اليائس).

وضعت يدها برفق على كتفي وهمست:

- هذا لن يهم أبويها الجديدين في شيء. أؤكد لكِ أنهما سيحبانها يا ماريان.

إلا أن هذا الأمر كان يهمني أنا!

حاولت ألا أبكي. لم أكن أريد أن تكون ذكريات ابنتي الأخيرة عني هي دموعي تتساقط ساخنة غزيرة على وجهها. جمدت حزني على فقدانها بداخلي مؤقتًا. سأتعامل معه لاحقًا عندما أكون قادرة على ذلك. كان البؤس الذي اعتراني عندما وجدت أن طفلتي ستبدأ حياتها الجديدة في هذه البذلة الزرقاء لا يُطاق حقًّا.

وصلت موظفة الخدمة الاجتماعية في وقت لاحق من ذلك الصباح. كان من واجبها اصطحاب طفلتي إلى أبويها الجديدين. بيد أنني لا أذكر

ما قالته عندما نزعتها من بين ذراعي. لا أذكر سوى أنني وقفت مذهولة أتطلع من وراء النافذة، وأراقبها وهي تحمل ابنتي بين يديها، ثم تضعها في سيارتها في النهاية.

كانت هذه هي آخر ذكرى لابنتي قبل أن تختفي عن ناظري: لفة صغيرة بها فتاة ترتدي ملابس طفل ذكر.

وبينما كانت تبتعد تدريجيًّا عن مرأى عيني، بدأت أضع نفسي مكانها، وأتخيل خوفها من إبعادها المفاجئ هذا عن كل شيء عرفته في حياتها، من وجودها في تلك السيارة ذات الرائحة الغريبة عليها، والانزعاج الذي قد تتسبب به حركة السيارة نفسها.

سألت نفسي: أهي تتساءل عن مكاني يا ترى؟ ألا تشتاق إلى ملمس أناملي على بشرتها الحريرية، أو نبرة صوتي وأنا أهمس لها بكلمات الحب؟ أهي تبكي؟ هل ستلتقي بأبويها الجديدين ووجهها ملطخ بالدموع؟

وكان السؤال الأخير الذي تردد صداه في ذهني طويلًا هو: كم من الوقت ستحتاج ابنتي كي تنساني؟

# الفصل الخامس والثلاثون

قدم أبي لاصطحابي في عصر ذلك اليوم، بعد أن استعار سيارة جارنا. إنني في الواقع لا أذكر أي شيء يمكن أن نكون قد قُلناه في تلك الرحلة، هذا إن كنا تحدثنا أصلًا، فكل شيء حدث من بعد اللحظة التي حُرمت فيها من ابنتي اكتنفه ضباب كثيف، وصار في ذاكرتي مشوشًا تمامًا. لا بد أني ودعت بعض الفتيات، وتوجهت إلى المشرفة بالشكر، بيد أني لا أتذكر أيًّا من هذا. بل إني غير قادرة بأي وسيلة على تذكُّر شكل تلك الأيام التي قضيتها في منزل أبي قبل أن أبدأ عامي الدراسي الجديد. كنت غارقة في الحزن والكآبة، وبدا لي أنني في كابوس طويل لا أستطيع الإفاقة منه أبدًا، كابوس كل ما فيه يمنيني بالخسارة، ولا أرى فيه إلا وجه طفلتي أينما وليت بصري.

بيد أني متأكدة من أن أمي أخذتني إلى المدينة لشراء زي مدرسي جديد. أعلم أن هذا لا بد وأن يكون قد حدث، ففي الليلة التي تسبق ذهابي إلى مدرستي الجديدة، كان الزي المدرسي معلقًا على مشجب الملابس الواقع خلف باب غرفة نومي، جاهزًا ومكويًّا وينتظرني كي أرتديه.

على المشجب علَّقت أمي تنورة رمادية، وبلوزة بيضاء جديدة، وسترة زرقاء، وعلى الأرض تركت لي حذاءً مدرسيًّا أسود جديدًا، وجوربًا أبيض جديدًا مطويًّا بداخله. وبدا لي أن والديَّ قد أرادا لي هذه المرة أن أبدو مهندمة نظيفة مثل بقية الفتيات.

إلا أن أكثر ما أثار دهشتي كان توصيل أبي لي إلى المدرسة الجديدة في أول يوم دراسي.

وقد قال لي يومها على سبيل التفسير:

- يجب أن تكوني هناك في وقت مبكر، فمديرة المدرسة تريد مقابلتكِ قبل البدء في الدراسة.

شعرت بموجة من الخوف تجتاح نفسي. هل تعلم المديرة بأمري؟ هل تعلم أنني طُردت من مدرستي السابقة منذ ما يقرب من تسعة أشهر؟ والأسوأ من كل ذلك، هل أخبروها عن السبب؟ أردت أن أستفسر من أبي عن كل هذا، أن يطمئنني بأنها لا تعلم شيئًا، لكن كلمات مثل «حبلى» و «طفلة» و «تبني» لم تكن قط ضمن الكلمات الموجهة إليَّ من أبي أو أمي، كأن الأمر لم يحدث قط.

انتهت رحلتنا القصيرة في وقت أبكر من اللازم في رأيي. ودون كلمة تشجيع واحدة، توقف أبي أمام بوابة المدرسة، ونظر أمامه في صمت، وانتظر أن أغادر. أحسست بركبتيَّ رخوتين من التوتر، وارتعشت ساقاي لا إراديًا وأنا أنزل من باب السيارة، وأتوجه إلى المدرسة.

وجدت مدرستي الجديدة أكبر بكثير من السابقة، واستطعت رؤية ملعب تنس، ومروج خضراء، إلا أن شيئًا من هذا لم ينجح في تشتيت انتباهي عن مشاعر القلق والتوجس التي تخللت جسدي وأربكت معدتي. رفعت حقيبتي فوق كتفي، ودخلت على مضض من بوابة المدرسة، وسألت عن مكتب المديرة.

تنفست الصعداء عندما استقبلتني امرأة صغيرة الحجم تعلو الابتسامة محياها، ودَعَتْني بلطف إلى الداخل. حمدت ربي على أنها لم تكن المرأة الصارمة العابسة التي تصورتها في مخيلتي. أوضحت

لي أنها على الرغم من علمها بأمر حملي، فإنها ليست لديها أي أحكام مسبقة عني.

كانت أول كلمات تخرج من فِيها هي:

- أهلًا يا ماريان! تعالي واجلسي يا فتاتي. أعلم أنك مررتِ بوقت عصيب، ولكني آمل من قلبي أن تصبحي سعيدة هنا.

إزاء لطفها غير المتوقع، فإن الدموع التي رفضتُ مذ عدت إلى المنزل الاعتراف بوجودها، وكتمتها في صدري عامدة متعمدة، بدأت تتساقط في قطرات ثخينة ساخنة. وكانت المديرة كيِّسة فطنة، فلم تعلق على حالتي العاطفية الواضحة.

لكنها أعلنت بهدوء:

- حان الوقت للتطلع إلى مستقبلكِ يا ماريان.

وقبل أن تسألني عما إذا كنت قد فكرت فيما أريد القيام به عندما أبلغ الخامسة عشرة من عمري، أبصرت على مكتبها جميع ملفاتي من مدرستي القديمة، والتي كانت تحتوي على تقاريري المدرسية، بالإضافة إلى جميع الملاحظات المتعلقة بطردي طبعًا.

لم يسبق لي أن حلمت بوظيفة معينة من قبل، ولكني أدركت فجأة وللمرة الأولى ما رغبت في فعله حقًّا: التدريب على تمريض الأطفال.

أعلنت لها عن طموحي، وانتظرت أن تخبرني بما كنت أعلمه بالفعل، وهو أن درجاتي لم تكن مرتفعة بما يكفي، وأنني أضعت على نفسي الكثير من الوقت بلا تعليم أو دراسة. سمعتني مديرة مدرستي الجديدة دون مقاطعة ومنحتني ابتسامة مشجعة.

ثم بدأت تخبرني بتهذيب عن درجاتي المنخفضة، وتؤكد لي أن أدائي الدراسي كان بحاجة إلى تحسين بالفعل. لكنها أتبعت ذلك بقولها

إنها لم تكن ترى أي سبب يمنعني من تحقيق أمنيتي إذا قررت العمل بجد. أوضحَت أنني إن اجتهدت في دراستي، فقد يُتاح لي الذهاب إلى مستشفى تعليمي، والعيش في نزل الممرضات، والبدء في التدريب كممرضة مساعدة. ومن هذه النقطة، وعبر العمل الشاق واكتساب الخبرة العملية، يمكنني أن أترقى في سلم التمريض. وأوضحت أنه في حين قد تساعدني المؤهلات الأكاديمية على التأهل بشكل أسرع، فإن هناك طريقًا آخر للفتيات، لذا كان عليَّ أن أطمئن.

في الأسابيع القليلة الأولى التي بدأت فيها مدرستي الجديدة، كنت قلقة من أن يعلم شخص آخر غير المديرة بشأن الماضي الخاص بي. كنت أخشى أن يطرح أحدهم أي أسئلة حول مدرستي القديمة، ولمَ كان عليَّ تركها. ولكن على ما يبدو لم يكن من أحد يشعر بفضول كافٍ تجاهي.

وجعلني هذا أسترخي تدريجيًا. منحني الزي الجديد المهندم ثقة أكبر من تلك الملابس التي كانت لدي في السابق، وساعدني هذا على الاختلاط مع التلاميذ الآخرين. بدأت العمل بمزيد من الجد والاجتهاد، فللمرة الأولى كان لدي هدف، وكان هذا الهدف قابلًا للتحقيق بشرط رفع درجاتي. بدأت أتجاذب أطراف الحديث مع الفتيات الأخريات، وأسألهن عن طموحاتهن، بعضهن كن يرغبن في الالتحاق بالجامعة بعد الانتهاء من المرحلة الثانوية، ولكن معظمهن كن يتطلعن إلى الاستقلال الذي سيحظين به فور الالتحاق بوظيفة والحصول على مرتب.

لقد رغبت هذه الفتيات في التحرر من قيد الدراسة، والشعور بأنهن غير مضطرات إلى أداء الواجبات المنزلية أو المذاكرة مجددًا، والتمكن من شراء الماكياج والملابس من مرتباتهن، والعثور على حبيب بسرعة، والبقاء في المنزل إلى أن يتزوجن بأحبائهن. وعلى عكسهن؛ كنت أعلم

أنني أريد مغادرة منزل أبي في أقرب وقت ممكن، وأن أفعل شيئًا نافعًا في حياتي. كان طموحي أن أقضي ما شاء الله لي أن أقضي من السنوات القادمة في التدرب على مهنة التمريض، وصعود السلم الوظيفي خطوة بخطوة. كنت لا أزال أفتقد طفلتي، لكنني أبقيت حسرة خسارتها في قلبي، وداريت مأساتي بعيدًا عن الأعين، وحاولت بقدر الإمكان إبعادها عن ذهني وتجنب التمعن فيها، فالجرح كان لا يزال مفتوحًا.

وحدث أن وجدتُ فتاة مثلي تريد أن تصبح ممرضة. وقد أخبرتني مبتسمة:

- قد تلتقي الواحدة منًّا بطبيب حسن المظهر. هذا هو الهدف الأسمى، لكن الممرضات يتزوجن برجال الشرطة ورجال الإطفاء كذلك. على الأقل هذا هو ما تقوله أمي.

وجدت نفسي أبتسم، ليس لأنني كنت أشاركها الحلم نفسه، بل لأنني شعرت للمرة الأولى أن لدي صديقة.

أخبرتني أن اسمها سوزان، وأن لديها أختًا أصغر، لكنها كانت تتمنى دائمًا أن يكون لها أخ. أخبرتني أنني محظوظة لأن لدي ثلاثة إخوة. أتقول محظوظة؟ حسنًا، هذا شيء لم يخطر لي على بال من قبل. لقد عني لي وجود ثلاثة أشقاء في المنزل الحرمان من الراحة. كنت دائمًا محاطة بالضوضاء والفوضى، مكلفة بتأدية عدد لا يُحصى من الأعمال المنزلية، مبتلَية بالتدخل في كل صغيرة وكبيرة في حياتي. كانت هذه هي حياتي كأخت كبرى في بيت يحتوي على أطفال صغار.

بدت لي سوزان، بشعرها الأشقر الطويل وجسدها الممشوق الفارع، الفتاة التي أردت أن أكون عليها بالضبط في تلك السن. لقد تبعتها أعين الأولاد أينما سارت، لكنها كانت تهز كتفيها في استهانة، ولا تبدي لهم

اهتمامًا يُذكَر. كانت تقابل جميع محاولاتهم في التودد بالرفض، مؤكدة أنها لا ترى في أي منهم فتى أحلامها، الذي سيصبح طبيبًا في المستقبل. أرادت معظم الفتيات اتخاذها صديقة لهن، إلا أنها اختارتني أنا. بدأنا نجلس معًا في حجرة الدراسة، ونقف معًا في التجمعات، ونقضي وقتنا معًا في الفناء، ونتناول الغداء في المدرسة معًا على الطاولة نفسها.

بل إن سوزان كانت تسير معي وتوصلني إلى محطة الحافلات قبل استئناف السير إلى منزلها. ثم دعتني بعد بضعة أسابيع إلى منزلها لتناول الشاي.

هتفَتْ بحماس:

- تعالي إلينا في الغد. لقد أخبرت أمي أنني صادقت فتاة في صفي، وقالت إنني أستطيع دعوتكِ إلى المنزل.

قلت لنفسي ببعض الحماس: «إنها المرة الأولى التي يدعوني فيها أي شخص لتناول الشاي!». وتراجع الحزن الذي حملته في أعماقي بعض الشيء.

سألتني سوزان:

- هل تحبين هذا الفريق الجديد، ذلك الذي يدعونه البيتلز؟

ورغبة في نيل قبولها، أومأت برأسي بحماس، على الرغم من أنني لم أكن قد سمعت بهم أو بموسيقاهم.

حسن. لقد اشترينا للتو أسطوانة «Please Please Me». يمكننا الاستماع إليها في غرفتي بعد الشاي.

قلت لأمي في صباح اليوم التالي:

- سأذهب لتناول الشاي بعد انتهاء اليوم الدراسي.

تطلعت إلى وجهي بارتياب.

- إنها دعوة من سوزان. أتذكرينها؟ إنها تلك الفتاة التي أخبرتك عنها. لقد دعتني إلى منزلها.

وحينها قالت أمي:

- حسنًا، حسنًا، لكن لا تتأخري عن السابعة والنصف ولو بدقيقة واحدة. لا تزال لديك واجباتكِ المدرسية. ولا يمكنكِ تفويت موعد آخر حافلة ستتوجه إلى هنا اليوم.

في ذلك اليوم شعرت بدفقة صغيرة من الإثارة تعتمل في داخلي. ها قد تعرفت أخيرًا على صديقة في نفس سني. في اللحظة التي رن فيها جرس المدرسة معلنًا انتهاء دروسنا في ذلك اليوم، التقطت حقيبتي في عجلة، وتبعت سوزان خارج الفصل.

كان منزلها على مسافة قريبة، وبدا لي ضخمًا بنوافذه الواسعة، وبابه الأمامي الخشبي المتين. بعد عشرين دقيقة كنت أقف في غرفة الجلوس، وسوزان تقدِّمني إلى والدتها بصفتي ماريان، الفتاة الجديدة في المدرسة.

بيد أننا عندما جلسنا لتناول الشاي، حدث ما لم يكن في الحسبان.

سألتني والدة سوزان عن مهنة أبي، وأخبرتها أنه يعمل في مزرعة، وبدا لي أن جوابي لم يحظَ برضاها، حتى على الرغم من بقاء ابتسامتها مرسومة على وجهها، فإن تلك الابتسامة سرعان ما تلاشت من على وجهها بمجرد أن أجبتها عن سؤالها التالي.

- وأين تعيشين إذن يا ماريان؟

أخبرت والدة سوزان باسم الشارع الذي نعيش فيه، وأنا أتمنى في قرارة نفسي ألا تكون على معرفة بأي شخص فيه. إلا أن أمنيتي لم تتحقق. سألتني المرأة ببطء:

- أيمكن أن تخبريني بلقبكِ؟

غاص قلبي في صدري وأنا أخبرها. وقع طبق الحلوى الذي كان في منتصف طريقه إلى الطاولة، وأحدث ضجة قوية. صاحت المرأة في ابنتها:

- سوزان، تعالي إلى المطبخ! الآن!

أطاعت صديقتي الجديدة أمها وهي في حيرة من أمرها. كانت أختها الصغرى تجلس معنا، وأخذت تحملق فيَّ بعينين متشككتين. لقد استشعرت التغيير في جو الغرفة، وخمنتْ أن ما قلته هو الذي تسبب في ذلك. تململت فوق مقعدي بضيق، ورغبت بشدة في المغادرة. سمعت بعض الكلمات التي لم يستطع الباب المغلق كتمانها: «عاهرة»، و «ليس في منزلي»، و «لا يمكن أن تختلطي بأمثالها». وضعت فنجان الشاي جانبًا، والتقطت حقيبتي، وتوجهت نحو الردهة، فتحت الباب الأمامي بأقصى قدر ممكن من الهدوء واندفعت خارجة منه بأقصى سرعة ممكنة.

وجدت سوزان تركض خلفي، وقررت أن تسير معي إلى محطة الحافلات. حاولَتْ الاعتذار عن ثورة والدتها، وأكدت لي أنها لا تزال صديقتي.

قلتُ لنفسي: «لن تكوني كذلك في الغد»، وكنتُ على حق.

اتضح أن والدة سوزان كانت تعرف دورا، وأن دورا أخبرتها بنسخة مشوهة من القصة. لقد أخبرَتْها أنها كانت طيبة معي دائمًا، وأنني قررت

رد دينها الذي أدين لها به بأن أنام مع زوجها، وأحبل منه، وأعرض الطفلة للتبني.

عندما أخبرَتْ الأم ابنتها برواية دورا الكاذبة، لم تعد بحاجة لأن تمنعها من الاختلاط بي. أصبح هذا قرارها هي. لكن ما كان أسوأ من خسارة صداقة سوزان هو إخبارها جميع من في صفنا بسبب توقفها عن التحدث إليَّ. غيرت سوزان مقعدها في حجرة الدراسة، وتركتني أجلس وحيدة. حاولت التحدث معها في الفناء لكنها رمتني بنظرة احتقار ممزوج بالشفقة.

ثم هتفت بصوت عالٍ كفيل بأن تسمعه جميع الفتيات المحيطات بنا:

- تقول أمي إنكِ عاهرة صغيرة رخيصة، وإنني ممنوعة من مخالطة أمثالكِ.

وبعدها عقدت ذراعها في ذراع فتاة متملقة ذات شعر بني، وسارت بها مبتعدة. فما كان من صديقتها الجديدة إلا أن ألقت عليَّ نظرة انتصار خبيثة، سمعتهما بعدها تتضاحكان. احتقن وجهي من الحرج والحزن، وكنت أعلم تمام العلم أنني موضوع حديثهما. وأردت ساعتها أن تنشق الأرض وتبلعني.

طوال ذلك الأسبوع، كنت أرى الفتيات يتحلقن في كل مكان بالمدرسة، وأسمعهن يتهامسن بشأن هذه الفضيحة، وكلما رآني الأولاد سخروا مني بالكلمات والإشارات البذيئة.

وكان أن ناداني ولد منهم، والذي كان أكثر جرأة من البقية للتحدث إليَّ مباشرة، فقال وهو يختال كالطاووس:

- هيه يا ماريان! كيف كان شعوركِ وأنتِ تحملين طفلًا يتلوى ويتقلب داخلكِ؟

وقال آخر متشجعًا بكلمات صاحبه:

- لا بد أنك استمتعت لحدوث هذا، ألست محقًّا؟

وأُغرقت المجموعة في الضحك والقهقهة. احتاج الزملاء إلى ستة أشهر قبل أن يملوا من السخرية مني في النهاية، ستة أشهر ناضلت فيها كي أبقي رأسي مرفوعًا، وأتجاهل كل تلميح خبيث وضحكة هازئة، ستة أشهر كنت أبكي فيها كل ليلة، وأغرق وسادتي بدموعي. كنت آمل من قلبي أن أجد مكانًا أنتمي إليه، بيد أني عدت وحدي مجددًا بكل أسف.

# الفصل السادس والثلاثون

بمجرد أن انهارت حياتي الجديدة السعيدة في المدرسة، كانت الهدنة المؤقتة التي كانت قد عُقدت بيني وبين أبي دون اتفاق بيننا قد وصلت إلى نهايتها. منذ أن سرت على روتين نزل الفتيات الصارم في الترتيب والتنظيف، وقد صرت ما عدَّه والداي فتاة مهووسة بالنظام. في عطلات نهاية الأسبوع، كانت معدتي تتقلص تقززًا، وأنفي يتجعد اشمئزازًا، وأنا أرى الأسطح المزيتة، والأرض المبقعة، وأكوام الأطباق غير المغسولة، والدلاء الملآنة بحفاضات أخي الأصغر القذرة. وقررت حينها أن أفعل شيئًا حيال ذلك.

في أحد أيام السبت، بمجرد أن غادر أبي للعمل، وذهبت أمي إلى المدينة مصطحبة معها أخي الأصغر، أرسلت إخوتي وأختي إلى الفناء للعب، وشمرت عن أكمامي، وبدأت حملة تنظيف قوية. لم يقتصر الأمر على رغبتي في جعل المنزل يبدو جميلًا بقدر الإمكان، فالعمل كان يلهيني كذلك عن التفكير في سوزان ونظرات الازدراء التي ترسلها في طريقي كلما تقاطعت سبلنا.

أولًا: وضعت الحفاضات في أكبر قِدر وجدته، وغليتها، وبعدها بدأت في غسل كومة الملابس قطعة قطعة، وتبعت هذا بمسح كل الشحوم والزيوت عن أسطح العمل، وفي النهاية، نزلت على يدي وركبتي لتنظيف الأرضية. وبحلول الوقت الذي عادت فيه أمي إلى المنزل، كان المطبخ يلمع. إلا أنها حالة لم تستمر طويلًا، فبحلول نهاية الأسبوع

التالي، كانت الأرض ملآنة ببقع الزيوت وفتات الطعام، وكانت بقايا ما انسكب من سوائل ملتصقة بالطاولة والموقد من جديد، كما عادت كومة الحفاضات المقرفة إلى مكانها في الدلو. وهكذا، كنت في كل مرة أبدأ من جديد بكل بساطة.

وخلال عملي المنزلي هذا، كنت أترك ذهني يشرد في تلك الحياة التي سأعيشها بمجرد أن أنتهي من سنتي الأخيرة في المدرسة. كنت أحلم بأنني غادرت المنزل أخيرًا، وبدأت في التدريب كممرضة، مرتدية ذلك الزي الأنيق ذا اللونين الأزرق والأبيض. ومع ذلك، لم يكن تنظيف مباول المرضى ومسح أرضيات المستشفى جزءًا من هذا الحلم. عوضًا عن كل ذلك، تصورت وجوهًا صغيرة تتطلع إليَّ بثقة، وآباء ممتنين يخبرونني كم كانوا شاكرين لأنني أنا من اعتنيت بأطفالهم.

آه يا ربي! كم ستصبح حياتي مختلفة عندها! فكرت في تفاصيل حياتي الجديدة هذه في نزل الممرضات، عوضًا عن مشاركة الغرفة مع أختي، التي كانت تترك ألعابها منتشرة في أرجاء المكان، ستكون لدي غرفة خاصة بي. وعلى سريري ستكون هناك ملاءات نظيفة، وبطانيات صوفية ذات رائحة عطرة، عوضًا عن تلك الملابس القديمة التي نفرشها كي تساعد على تدفئتنا في أثناء الليل. ستكون ملابسي معلقة بترتيب ونظام، وستكون ثيابي الداخلية جديدة ونظيفة، والأفضل من ذلك كله أنه ما من أصابع صغيرة ستلمس أدوات نظافتي الشخصية.

تلك الأفكار كانت هي التي منحتني الأمل، وهذا الأمل هو ما جعلني أكدُّ في دراستي. في المساء، كانت كتبي المدرسية تنتشر على طاولة المطبخ حيث أعمل بجد كي ألحق بما فاتني من دروس. وقد سخر أبي من كل هذا الاهتمام بالمذاكرة، ولكن ليس بقدر ما سخر من تنظيف المنزل. إذا توهمتُ للحظة بأن والديَّ سيكونان مسرورين بجهودي في

النظافة والترتيب، فقد كنت جد مخطئة. عوضًا عن ذلك، بدا أن ما كنت أفعله يشعرهما بالإهانة، كما لو كنت في كل مرة ألتقط فيها فرشاة أو ممسحة، أنتقد طريقة عيشهما.

علق أبي بنبرة هازئة عندما رآني ذات مرة أقوم بكي زيي المدرسي:

- أعتقد أنكِ صرتِ أفضل منا الآن. ها قد أصبحتِ سيدة صغيرة محترمة.

نظرت إليه بهدوء، وتجاهلت ما قاله تمامًا، لكن هذا لم يمنع الأفكار الخائنة من أن تدور في رأسي.

كنت أتوق لأن أقول له: «إذا كنت تريد أن تعيش مثل الخنازير، فأنا لا أريد»، لكن شيئًا من الحكمة منعني من تحويل أفكاري تلك إلى كلمات منطوقة. ربما شيء ما في تعبيرات وجهي أخبره بما يدور في ذهني، لأن سيل تعليقاته الساخرة على جهودي لم ينقطع قط.

وتابع يقول باستهزاء:

- وجدتُ أنكِ قمتِ بتنظيف حمامنا أيضًا. قد ترغبين في تنظيفنا جميعًا بعد ذلك.

فعندما توجه أبي إلى المرحاض الخارجي، وجد أنه لم يتم تنظيفه فحسب، بل تطهيره بالمطهرات أيضًا.

قالت أمي ببرود بعد أن خرج هائجًا في إحدى نوبات غضبه:

- لا عليكِ يا ماريان. لا تنتبهي لما يقوله.

إلا أنني لاحظت أنها لم تشكرني على أي شيء فعلته.

لم يحتج أبي سوى بضعة أسابيع قبل أن يطلعني بوضوح على رأيه في جهودي لتحسين صورة منزلنا. في ذلك الصباح، كنت جاثية على

ركبتي أفرك الأرض عندما عاد من العمل في وقت مبكر. في طريقه إلى الفناء الخلفي، سار أبي عبر الغرفة بحذائه الموحل، تاركًا أثرًا قذرًا في أعقابه.

كان هذا أكثر من قدرتي على التحمل. لم أستطع البقاء صامتة كالعادة. وقفت أحدق إليه بضيق، ثم هتفت:

- أرجوك يا أبي، لقد أمضيت ساعة في تنظيف هذه الأرضية. ألا تخلع حذاءك من فضلك؟

احتقن وجه أبي من الغضب. كنت للحظات قد نسيت كيف كانت تهب عواصفه بسرعة البرق.

صرخ أبي في وجهي قائلًا:

- من تظنين نفسكِ؟ هل تتوهمين أنكِ قادرة على إصدار الأوامر في هذا المنزل؟ أتتأمرين على والدكِ أيتها الساقطة؟

عندما أبصرت وجهه وقد اسود غضبًا، وذراعه وقد ارتفعت عاليًا في تهديد واضح، تراجعت إلى الوراء في رعب، إلا أنني لم أستطع التراجع بالسرعة الكافية.

سقطت الضربة على كتفي بقوة أفقدتني توازني، فوجدت نفسي ملقاة على الأرض التي لا تزال مبللة بالماء. وبعدها ضرب أبي الدلو بقدمه، مبعثرًا خرق التنظيف والمسح في أرجاء المطبخ.

وحينها استكمل صرخاته المنذرة وقال:

- حسنًا، يمكنكِ الآن تنظيفها مجددًا. فعلى ما يبدو هذا هو أكثر شيء تحبين القيام به هذه الأيام.

كم كرهته في ذلك الوقت! كنت أنتحب من الألم والصدمة، لكني تمالكت نفسي، وجثوت مجددًا على ركبتي كي أنظف من بين شهقاتي الفوضى التي أحدثها.

وبمجرد انتهائي من المسح والتنظيف، أويت إلى غرفتي. فكرت بينما أستلقي على سريري أخيرًا: «دعي الأطفال يعتمدون على أنفسهم ولو لمرة واحدة». وقررت اللجوء إلى أحلامي الخاصة بمغادرة المنزل، والفرار بعيدًا عن هذه العائلة التي تشعرني مع كل يوم جديد أنني لا أنتمي إليها، والذهاب إلى مكان لا أضطر فيه إلى سماع ضحكات الأولاد والبنات القاسية في المدرسة. أردت أن أذهب إلى حيث لا يعرفني أحد، أو يعرف أبي، أو يعرف بأمر طفلتي.

# الفصل السابع والثلاثون

فلنعد إلى ذلك اليوم الذي جلست فيه أطالع الصور وأقرأ رسالة ابنتي. في ذلك اليوم، شعرت برغبة ملحة في الإمساك بالهاتف والتحدث إلى أمي. كنت أرغب في الحصول على إجابات عن بعض الأسئلة، الأسئلة نفسها التي عرفت أن ابنتي تريد إجابتي عنها.

هل سبق لكِ أن أحببتِني يا أمي؟ عندما عرفتِ بأمر حملكِ بي، هل كنتِ تريدينني؟ أم أنني لم أكن إلا السبب في زواجكِ وبداية حياتكِ البائسة؟

وكان السؤال الوحيد الذي أردت الإجابة عنه أكثر من أي سؤال آخر هو: وإن لم تفعلي، إن لم تحبيني في البداية، أو تشعري بشيء نحوي عندما كنت في أحشائكِ، فهل يا ترى نما حبي في قلبكِ، أنا ابنتك الكبرى، مع الوقت؟ أعلم أنك تحبين إخوتي وأختي، لكن هل أحببتني أنا يومًا؟

كانت تلك الأسئلة تطن في رأسي دون أن ينطقها لساني، أسئلة لم أجد في نفسي الشجاعة لطرحها قط. وها قد عادت تؤرق ذهني مجددًا.

بيد أن الأوان كان قد فات على طرحها، فقبل سنوات عديدة حُرِمَت أمي القدرة على تذكر أي شيء، بما في ذلك أنا وكل ما يتعلق بطفولتي.

ارتسمت صورتها أمام عيني، امرأة عجوز محنية الظهر تحدق إلى الفراغ، تعيش في عالمها الخاص، تنظر إليَّ ولا تعلم من أنا. لم أعد حتى ولو مجرد أثر في ذهن أمي، فقد كان الخرف الذي أصابها حقًّا ذكيًا، إذ محا جميع ذكرياتها عن تلك الحياة التي لم تعرف فيها إلا النذر اليسير

من السعادة. وعلى الرغم من كل هذا فإنه استثنى شيئًا واحدًا: زوجها. كانت تتنهد كلما تخلل ملامح وجهه الضباب الذي يغشى حياتها وتهتف بحنين:

- آه! كم كان وسيمًا! كم كان رجلًا وسيمًا!

وهنا فهمت أخيرًا السبب الذي جعلها تبقى مع أبي كل تلك السنوات. كنت حينها أهش في وجهها، وأحنو عليها، وأغطي بالبطانية ركبتيها الذابلتين، وأحاول طمأنتها بأن أربت على كتفيها المرتعشتين، أو أملِّس على شعرها الهائش، أو أطوق براحتي وجهها بلطف؛ أي شيء يثبت أن بقايا حب طفولتي لها لا تزال موجودة.

بعدما كبرتُ وتزوجتُ، قررتُ مسامحة أمي على كل ما حرمتني منه من حب وحنان ورعاية. لقد جلب النضج معه قدرة على التفهم لم تستطع الطفلة الغاضبة المهمَلة التي كنت عليها في الماضي أن تمتلكها. استطعت أن أرى في نهاية المطاف أن البؤس لم يصب حياتي أنا وحدي، بل حياتها هي أيضًا.

كان كل ما بداخل قلب أمي من حب موجهًا بالأساس إلى زوجها، فأغدقته عليه بسخاء، أما ما تبقى منه فقد خصت به إخوتي الأربعة. وبالنسبة إليَّ أنا، فقد حاولتْ أمي أن تمنحني أي فتات متبقٍّ من مشاعرها، ولم يترك لها هذا أي قدر من الحب يمكن أن تقدمه لنفسها.

وهنا شردت أفكاري في أبي، الذي شاخ وذبل مع التقدم في العمر والاستمرار في تعاطي الكحول، ومات قبل بضع سنوات من إصابة أمي بالخرف، وانتقالها إلى دار للرعاية. تذكرت نوبات غضبه، وعنفه، وبطشه، كما تذكرت تلك اللحظات النادرة التي أظهرت لي أن هناك

شخصًا ألطف بداخله، وأن هذا الشخص عاش في زمن ما، قبل أن أجيء إلى هذا العالم.

لا، لقد فات الأوان على أسئلتي. ولم يعد يُجدي طرحها. بيد أن ابنتي لم تتأخر بعد، ولا تزال الفرصة متاحة، لذا كان عليَّ أن أجيب عن جميع أسألتها.

عدت بذهني إلى السنوات الماضية، وسألت نفسي عما إذا كان هناك أي شيء كان بإمكاني القيام به بشكل مختلف. لو كنت أعلم ما أعلمه الآن، ربما كان بإمكاني فعل شيء فعلًا! بيد أنني لم أكن أعلم، لعل جهلي وعجزي كانا هما السبب في قدومكِ إلى هذه الدنيا يا بنتي!

فكرت في تلك الكذبة التي أخبرت بها مشرفة نزل الفتيات، وموظفة الخدمة الاجتماعية، تلك الكذبة التي حددت المسار الذي كان عليَّ اتباعه مذ كنت في الثالثة عشرة من عمري.

بيد أنني حتى ذلك الحين، وبعد مرور ما يقرب من ربع قرن، كنت لا أزال عاجزة عن مسامحة نفسي، لأنني لم أكتفِ بإنجاب طفلة واحدة فحسب، بل طفلتين، حملت كلتيهما في أحشائي تسعة أشهر، وأحببت كلتيهما حتى قبل أن تجيئا إلى هذا العالم، ثم بعد أسابيع قليلة من ولادتهما، سلَّمت ابنتيَّ لغرباء، وعرضتهما للتبني.

كانت تلك الصور الخاصة بزمن آخر تجيء لزيارتي في العديد من الليالي. كنت في نومي أحررها من عقالها فتحتل أحلامي، وتوقظ ذلك الحزن الدفين في صدري، وفي كثير من الأحيان كانت تبقى معي حينما أستيقظ، وتطالبني بإحياء ذكراها، وهو الشيء الذي حاولت مرارًا أن أتوقف عن فعله.

# الفصل الثامن والثلاثون

خلال الوقت الذي تبع عودتي إلى منزل أبي، ومحاولاتي للتعايش مع الأسى الذي كان يعتمل بداخلي، بدا لي أن جارنا قد صار شبحًا. لم أعد أرى سوى لمحات سريعة لمؤخرة رأسه وهو يدخل إلى بيته، أو هيئته من الخلف في أثناء ترجله من سيارته. كان الجار يختفي من أمامي بسرعة البرق، قبل أن أتمكن من تبين ملامحه أو نداداته. وقد تكرر هذا لدرجة أنني بدأت أتساءل عما إذا كان خيالي هو الذي يصوره أمامي في تلك اللمحات المقتضبة.

بين الحين والحين، كنت أسمع طفليه يناديانه «أبي»، أو أرى دورا تنظر من نافذة منزلها منتظرة رجوعه من العمل، وذات مرة حسبت أنني رأيته يمشي في الشارع، إلا أنني عندما أسرعت الخطى، واقتربت منه لأحدثه، اكتشفت أنه لم يكن الجار، بل شخصًا آخر لا أعرفه. وباستثناء تلك الحوادث العرضية، بدا أن الجار قد اختفى كلية من حياتي. كنت أقول لنفسي إن هذا بالتأكيد يشعرني بالراحة وهدوء البال. وأؤكد على نفسي كل يوم بأنني لم أعد أحبه أو أهتم لأمره. بيد أني كنت لا أزال أتساءل من حين إلى حين عما إذا كان يفكر بي، أو يشتاق إلى رؤيتي.

كانت الساعة الرابعة عصرًا عندما تمت إجابة هذا السؤال. في ذلك اليوم، كنت في محطة الحافلات، وفجأة سمعت صوت سيارة مألوف. بدأت السيارة من خلفي تهدئ من سيرها.

وعندئذ علا صوت من داخلها يقول:

-     مرحبًا أيتها السيدة الصغيرة.

استدرت ووجدتني وجهًا لوجه أمام جارنا. ما زاد من دهشتي يومها أنه انحنى وفتح باب الراكب، وهتف:

-     ادخلي.

تطلعت إليه بذهول، وبدأ الألم الذي كتمته في داخلي طوال المدة الماضية يتحرر من محبسه. ثم أدرت وجهي، وسرت مبتعدة في طريق آخر. بيد أنه اختار أن يتبعني.

قلت:

-     اذهب بعيدًا عني. اتركني لحالي. لا أريد التحدث معك.

أجاب:

-     ولكني لدي ما أقوله لك (ومنحني ما بدت لي ابتسامة ظافرة). هيا يا ماريان، اركبي.

في تلك المرة لم أفعل، وهكذا كان الحال في اليوم التالي والذي يليه. إلا أنني في اليوم الرابع قررت الركوب والتحدث معه.

بادرني بقوله:

-     أنا آسف جدًّا. لم يكن لدي خيار. لكنكِ لم تغيبي عن بالي قط يا ماريان.

حاولت ألا أنصت له، ولكن عندما بدأت الكلمات الحنون التي كنت أتوق لسماعها في التدفق منه، بدأت أصدقه ولو لبعض الوقت. عاودتني حينها ذكرياتنا القديمة، وكيف كان معي عندما التقيت به في تلك المرات القليلة الأولى، حينما كان يستمع إلى حكاياتي ويشعرني أنني الأثيرة لديه. وسرعان ما بدأت تلك الذكريات المعدودة تفرض وجودها على ذكرياتنا الأخرى المؤلمة، الأكثر عددًا بكثير. في ذلك اليوم، عندما عاد للتحدث إليَّ للمرة الأولى بعد أشهر عدة مضت، بدأت أتناسى كل ما سببه

لي من آلام، وأتغافل تهديداته وابتزازه وقسوته. لم يكن بإمكاني نسيانها بالطبع، لكنني قررت أن أنحيها جانبًا وأغض الطرف عنها ولو مؤقتًا.

في ذلك اليوم، قدم لي هدية، كانت سلسلة فضية جميلة. قال الجار مبتسمًا:

- ارتديها تحت بلوزتكِ.

في كل مرة كنت ألتقيه فيها، كانت الشكوك التي أوغرت صدري عليه في السنوات الأخيرة تبدأ في التضاؤل رويدًا رويدًا، وببطء عاد الجار صديق طفولتي مجددًا، الشخص الذي أستطيع إخباره بجميع أحلامي ومخاوفي. وكان الجار يستمع لي، وبعكس أبي؛ كان يبدي اهتمامه بكل كلمة أقولها. لقد تبدى القلق جليًا على وجهه عندما أخبرته بما قالته سوزان وأمها. يومها وضع ذراعه على كتفي عندما أوضحت له كم كنت أشعر بالاختلاف عن عائلتي، وضمني إليه يواسيني هنيهة عندما أخبرته عن الجدال الأخير مع أبي وكيف كان يعاملني. بيد أنني لم أتحدث قط عن نزل الفتيات أو طفلتنا، ولم يسألني هو عن ذلك قط. أخبرت جارنا عن طموحي، وأنني أريد التدرب كي أصبح ممرضة، وأنني ملهوفة أشد لهفة على انقضاء الأشهر القليلة المتبقية.

قال الجار:

- سأفتقدكِ يا ماريان.

فكرت حينها أنه الشخص الوحيد الذي سيفعل. ولكن فيما بعد، عندما كنت أعود وحيدة ومتحررة من سطوته عليَّ، كنت أتذكر من جديد كيف كان معي، وكيف هجرني عندما حبلت في طفلته. قلت له في مرة من المرات:

- لقد كذبت عليَّ وخدعتني. إن الفتيات لا يُسَقن للشنق عندما يصادقن الرجال. لقد أخبروني بهذا في النزل.

أخبرني أنه لم يقل هذا إلا من أجلي أنا. واستطرد قائلًا إنني من المؤكد علمت بالمشكلات العديدة التي كان يمكن أن أقع فيها إذا كنت قد أتيت على ذِكر علاقتنا. ألم أكتشف ذلك بالطريقة الصعبة بالفعل؟

وقد كان الجار محقًّا. عندما اكتشف الناس أمري لم يعد أحد منهم يريد التحدث معي. كانوا يكتفون بالتحدث عني فحسب!

كنت لا أزال ساذجة بما يكفي لتصديقه، أولًا لأنني أردت ذلك، وثانيًا لأنني لم تخطر لي حقيقة أنه هو الذي كان سيقع في ورطة أشد جرَّاء فعلته.

لم أكن أعي وقتها أن الجار كان قد بدأ في محاولة استمالتي من جديد، وأن لعبته كانت بالأساس لعبة صبر ومهارة، لعبة استطاع الإعداد لها بمكر بسبب معرفته الحميمية بي، وبجميع نقاط ضعفي. كان يعلم بأمر وحدتي ومدى شعوري بالعزلة في المنزل والمدرسة. ألم أخبره بكل شيء عن هذا بلساني؟ لم أكن أعلم حينئذٍ أنني في كل مرة كنت أعري فيها قطعة جديدة من روحي أمامه، كنت أسلمه بذلك الأدوات المطلوبة للسيطرة عليَّ مجددًا.

تمثلت المرحلة الأولى من خطة الجار في أن يجعلني سعيدة برؤيته. وكان ذلك أمرًا شديد البساطة: أن يجيء لمقابلتي في بعض الأيام، وفي بقية الأيام الأخرى لا يجيء. وبعد وقت قصير سرعان ما بدأت أتلفت بحثًا عن سيارته، وكان هو يعرف هذا بالطبع. أما المرحلة الثانية فلم تكن صعبة أيضًا. لقد تمثلت في أن يجعلني أؤمن بأنه كان الشخص الوحيد الذي يهتم لأمري، وهو شعور كان يعززه بمكر في كل مرة كنا نلتقي فيها. لم يحاول الجار في تلك الأثناء أن يلمسني، لا، ليس في ذلك الحين قط. وهكذا تدريجيًا، بدأت أثق به من جديد، بينما كان هو يستعد للمرحلة الأخيرة من اللعبة.

# الفصل التاسع والثلاثون

وأخيرًا بلغت الخامسة عشرة من عمري، ووصلت بهذا إلى السن التي كنت أتطلع إليها منذ سنوات؛ سن الحرية التي طال انتظارها. إلا أنني كنت أغفل شيئًا مهمًّا في ذلك الحين. على الرغم من أنني كنت بوصولي إلى هذه السن كبيرة بما يكفي لترك المدرسة والعمل بموجب القانون، فإنني كنت بحاجة إلى إذن أبي كي أستطيع العيش في أي مكان آخر غير المنزل.

قبل أيام قليلة من عيد ميلادي الخامس عشر، والذي عددته منعطفًا مهمًّا في حياتي، دعتني مديرة المدرسة إلى مكتبها، وأنبأتني بأن حلمي الذي كنت أطمح إلى تحقيقه أصبح قاب قوسين أو أدنى. أبلغتني المديرة بوجه بشوش أن هناك مستشفى في شمال إنجلترا قد أبدى موافقته على أن ألتحق ببرنامجه التدريبي، وأن بهذا المستشفى نُزل للممرضات يمكن أن أعيش فيه. وعلى الرغم من أنه كان عليَّ أن أبدأ عملي هناك بمرتب ضعيف، فإن المستشفى كان سيوفر لي شهادة «البورد»، ومن ثم سيتم اعتمادي كممرضة متخصصة. بيد أنني وجدت أن أفضل ما في ذلك كله كان أن أحدًا من الزملاء أو الزميلات في المدرسة لم يتقدم بطلب التحاق إلى أي مكان في تلك المنطقة، وهو الشيء الذي ألمحت إليه المديرة بكياسة. وحين نضيف إلى هذه المعلومة حقيقة أن المستشفى كان يقع في منطقة تبعد عن منزلي بمسافة شاسعة، فإن احتمال أن أقابل أي شخص يعرفني هناك يصبح شبه منعدم.

قالت مديرة المدرسة بلطف:

- ستكون بداية جديدة لكِ يا ماريان، وأنتِ تستحقين ذلك. لقد عملتِ بجد طوال هذا العام لرفع مستوى درجاتكِ. وأنا جد مسرورة لأجلكِ.

أدركت عند التطلع إلى تعبير وجهها أنها كانت ملمة بما يحدث لي في المدرسة من نبذ وتعنيف وسخرية، وتعرف إلى أي مدى كنت أعاني معاملة زملائي وزميلاتي القاسية، حتى وإن لم تكن تعلم الكثير عن حياتي العائلية، وطبيعة حياتي البائسة في بيت أبي.

إلا أن عبارتها التالية كانت الصدمة الكبرى. فجأة وجدت نفسي أقف عزلاء في مواجهة الحقيقة المرعبة؛ حقيقة ما كان يتطلبه ذلك العرض الوظيفي.

- بالمناسبة يا ماريان، سيتعين على أبويكِ أن يكتبا خطابًا يمنحانكِ فيه الإذن للذهاب إلى هناك.

تلعثمت وأنا أتوجه إليها بسؤالي وأقول:

- ولكن ماذا.. ماذا سيحدث إن لم يفعلا؟

- دون هذا الخطاب لن يقبل المستشفى طلبكِ يا ماريان. من المؤكد أنك ناقشتِ فكرة سفركِ وعملكِ بالتمريض مع عائلتكِ.

أجبت كاذبة:

- آه! نعم، بالطبع فعلت.

انتظرت حتى حان موعد العشاء كي أخبر أبي.

صاح أبي مهتاجًا:

- ماذا؟ أذهبتِ من وراء ظهورنا، ورتبتِ لكل هذا؟ أكنتِ تظنين أن بإمكانكِ فعل كل هذا دون التحدث إلى أمكِ أو إليَّ؟ هل

افترضتِ أن رأينا بلا أهمية؟ نحن من نطعمكِ ونكسوكِ أيتها الجاحدة. حسنًا، إن كنت تظنين أنني سأمنحكِ الإذن كي ترحلي عن هذا البيت، فكري مجددًا.

لم تنبس أمي ببنت شفة، وراحت تلهي نفسها بتفحص يديها، وإدارة خاتم زواجها الرفيع ذات اليمين وذات الشمال.

تابع أبي بالصوت الغاضب نفسه:

- لقد حان الوقت لرد الدين إلى عائلتكِ يا فتاة! ستحصلين على وظيفة هنا، وتبدئين في المشاركة في المصاريف، وإظهار ولو بعض الامتنان لكل ما قمنا به من أجلكِ، وكل ما كان علينا تحمله. إنه أقل ما يمكنكِ فعله لرد هذا الدين الثقيل.

حاولت أن أوضح له أنه لن يضطر إلى الصرف عليَّ حينما أسافر وأترك المنزل، إلا أنه رفض الاستماع لأي كلمة أقولها.

توسلت إليه، بكيتِ بكاء طويلًا مرًّا، إلا أن أيًّا من ذلك لم يكن له فائدة تُذكر. توجهت إلى أمي أستجديها كي تدعمني بأي شكل، إلا أنه هتف بصرامة:

- لا جدوى من التحدث إليها يا ماريان، فأمك تتفق معي في كل شيء أقوله. ألست محقًّا؟

والتفت إليها وعيناه تقدح شررًا، وأدركتُ أنها ستكون أشد خوفًا من أن تحاول أن تجادله ولو بكلمة.

وهنا استأنف حديثه بالنبرة الصارمة نفسها:

- لا يمكنك الذهاب ما لم نكتب لهم خطابًا نقول فيه إننا لا نمانع أن تغادري هذا المنزل. أليس هذا صحيحًا أيتها الفتاة؟

أومأت برأسي في بؤس، فاستمر يقول بنبرة منتصرة:

- عظيم، وأنا لن أفعل شيئًا كهذا أبدًا. ليست لديكِ أي فرصة! هل تفهمين؟

توقف لحظة ليدفع بلقمة أخرى في فمه، ثم تطلع إلى وجهي المكروب بعينين قاسيتين، وهتف بنبرة قاطعة:

- أتعرفين ماذا ستفعلين في الغد؟ إنكِ ستحصلين على وظيفة في المصنع الجديد. لقد علقوا لافتة تقول إنهم يريدون عمالًا وعاملاتٍ جددًا. وهم يدفعون أجرًا سخيًّا هناك، هذا شيء أنا متأكد منه. العمل هناك فرصة جيدة لكِ إذن. أما الآن فأنا لا أريد سماع كلمة أخرى.

قبل أن أتمكن من فتح فمي بأي كلمة احتجاج، وجه هجمته الأخيرة لي، والذي كان يعلم تمام العلم أنها ستصيب الهدف:

- وعلى أي حال يا ماريان، فإنكِ تسببتِ لنا بما يكفي من المشكلات. لن تغادري المنزل في الخامسة عشرة من عمركِ، وتدخلي نفسكِ في ورطة جديدة. لقد اكتفينا! أتفهمين ما أقول؟

***

لم أعد إلى المدرسة في صباح اليوم التالي، وعوضًا عن ذلك ذهبت إلى المصنع الجديد، وطلبت لقاء الشخص الذي كان يجري مقابلات العمل الشخصية مع الفتيان والفتيات الذين تخرجوا في المدرسة ويبحثون عن عمل. وقد أخبرني أن عليَّ التقدم لاستلام العمل بدءًا من يوم الاثنين التالي. كانوا يدرِّبونني على أن أصبح عاملة على ماكينة لف المحركات. كان أبي على حق، فالأجر كان جيدًا. إلا أنه لم يكن هناك أي مبلغ من المال يمكن أن يعوضني عن حلمي الذي حطمه في لحظة بيده الباطشة.

# الفصل الأربعون

كنت أعمل في مبنى ضخم حديث في المنطقة الصناعية، واحد من العديد من المباني التي تمت إقامتها في بلدتنا. بدأ مشرفي -وهو رجل هزيل، بني الشعر، خفيف، يرتدي عوينات بإطارات سلكية، ويتحدث بلهجة أهل لندن القوية- يشرح لي المتوقع مني في هذا العمل.

في صباح الاثنين التالي، كان عليَّ الحضور إلى مكتبه في الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة، ليريني الغرفة التي ستُعقَد فيها الدورة التدريبية الأولية التي ستستمر لمدة أسبوعين. كنت على وشك تعلم كيفية العمل على آلة لف المحركات والمحولات الكهربائية، ففي ذلك الوقت كان مجال الاتصالات السلكية واللاسلكية في طور النمو. كما كان عليَّ أن أتعلم كيفية استعمال كاوية اللحام، وطريقة تحديد مقاسات الأسلاك المناسبة لكل استخدام. كنت وقتها في حيرة من أمري، أحاول التفكير في الزي المناسب الذي يمكنني ارتداؤه في العمل، وكل ما استطعت الاستقرار عليه هي تنورة زيي المدرسي وسترة مصنوعة يدويًّا اشتريتها من متجر الملابس المستعملة. وقد قمت في الليلة السابقة على استلام العمل بغسل وكي كل قطعة ملابس سأرتديها، بحيث حتى لو بدت قديمة الطراز وأشبه بملابس الصغار، فإنها على الأقل تبقى ملابس نظيفة مهندمة. في صباح اليوم التالي، توجهت إلى مقر عملي مضطربة البال، ولما استلمت العمل وجدت نفسي في صحبة مجموعة من النساء الأكبر سنًّا مني، وكان هذا هو يومهن الأول في ذلك المصنع

مثلي. تم نقلنا إلى مبنى خارجي صغير، حيث بدأنا بعد بضع دقائق من التعارف درسنا الأول. وعلى الرغم من أنني وجدت العمل باعثًا على الملل، فإنني وجدته سهلًا كذلك بسبب حجم يدي الصغيرتين. دُهِشتُ أيما دهشة حينما أمطروني بالثناء في اليوم الأول؛ وإذ فجأة لم يعد العمل في المصنع بالسوء الذي كنت أظنه عليه.

كنت أصغُر هذه النساء بخمس سنوات على الأقل. كانت معظم زميلاتي الأخريات في المصنع متزوجات، وأزواجهن يعملون مثلهن في بعض المصانع القريبة. انتقل بعضهم من أحياء لندن الداخلية إلى هنا، بعد أن أغوتهم الفرص الواعدة بوجود مدارس أفضل لأطفالهم، والتمكن من شراء منازل جيدة بأسعار معقولة، والتي بدأت تنتشر عندنا حتى كادت تطغى على المناظر الطبيعية في إسيكس. كانت زميلاتي ودودات لطيفات، وعندما انطلقت الصافرة تُعلمنا بموعد استراحة الشاي الذي لا يزيد على خمس عشرة دقيقة، وجدت نفسي جالسة بصحبة زميلتين تعملان في ذلك المصنع منذ مدة، وبدت الاثنتان عازمتين بكل السبل على الاعتناء بي، والعطف عليَّ.

بادرتني إحداهما بالحديث، وأخبرتني أن اسمها بيف. كانت امرأة داكنة الشعر بعينين بنيتين مبتسمتين، وقد تناثر نمش لطيف على أنفها. هتفت بيف تحدثني قائلة:

- أنتِ صغيرة جدًّا! متى تركتِ المدرسة يا حلوة؟

أجبتها:

- غادرتها لتوي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وشعرت بعدها بالخذلان يسري بداخلي كالسم، لأنني حُرِمت من تحقيق حلمي، وأُجبرت على العمل في ذلك المصنع، بدلًا من أن أكون في طريقي إلى المستشفى التعليمي.

عقبت صديقتها التي أخبرتني أن اسمها جان:

- حسنًا، هذا يفسر هيئتكِ وملبسكِ.

لم تكن نبرة جان عدائية، فلم يضايقني كلامها.

ثم بدأت أتململ قليلًا. كنت مدركة تمامًا أنهما، بشعرهما المصفف جيدًا ووجهيهما المرسومين بالمكياج الثقيل، يمثلان صورة مختلفة عني تمامًا، بشعري المعقود للخلف، وملابسي شديدة البساطة، ووجهي الخالي من أي مكياج. وعلى الرغم من أننا كنا جميعًا نرتدي شكلًا من أشكال الملابس الواقية، فإنني استطعت أن أرى من خلف هذه الواقيات أن بيف وجان كانتا ترتديان ثوبين أجمل من جميع ما أمتلك في خزانة ملابسي شبه الخالية. غاص قلبي في صدري، وشعرت بالحسرة وأنا أفكر في أنني لن أجد مكانًا أنتمي إليه أبدًا. فبصرف النظر عن الزي المدرسي، كان كل ما أملكه هو بعض الثياب المستعمَلة، وبسبب صغر حجمي لم أستطع أن أجد منها ما يناسب سني أو مقاسي، وكنت أحاول بلا جدوى البحث فيما بينها عن قطع تناسبني، فلا أجد.

كنت أعلم كم كان سيكلفني شراء ثياب جديدة. كنت أتطلع إلى واجهات المحلات بحسرة، فالأسعار لم تكن في متناول يدي بأي حال. كنت أتوق سرًّا لارتداء شيء جديد وعصري، غير أني أدركت أني سأحتاج إلى وقت طويل لتوفير المال الكافي لشراء قطعة واحدة مثل تلك الملابس التي ترتديها زميلاتي العاملات. أخبرني أبي بالمبلغ الذي

يتوقع مني أن أعطيه لأمي كل أسبوع، وبعد أن اطَّلعت على مفردات مرتبي، أدركت أنه لن يتبقى لي إلا أقل القليل.

هتفت بيف عندما أبصرت الإحباط باديًا على وجهي:

- اسمعي يا حلوة، إنني أفصِّل معظم ثيابي بنفسي، وعندي ماكينة خياطة كهربائية في منزلي. ما رأيكِ في أن أحوك لكِ بعض الملابس الجميلة. ليست لدي أي مشكلة في هذا. كل ما عليكِ فعله هو شراء القماش.

قبل أن أستسفر منها عن تفاصيل هذا الأمر، وعما إن كانت تعني ما تقوله حقًّا، وجدتها تستمر في الحديث، كما لو كانت تتكلم عن شيء عادي وطبيعي، يحدث في حياتي كل يوم.

تابعت بيف حديثها تقول:

- يمكننا الذهاب للتسوق ما إن تحصلين على أول أجر لكِ في يوم الجمعة. إنني أعمل وردية إضافية في يوم السبت. يمكنكِ إضافة اسمكِ في تلك الوردية بمجرد الانتهاء من التدريب. وبعد الانتهاء منها، يمكننا أن نذهب إلى المدينة، ونزور ذلك المتجر الجديد الذي افتُتح للتو، ونشتري بعض الأقمشة الجميلة.

قلت لها عابسة:

- عليَّ أن أعطي معظم راتبي لأمي. هناك أربعة أطفال أصغر مني في المنزل بحاجة إلى الطعام والكساء.

إلا أن بيف طمأنتني قائلة:

- لا تقلقي. لن يكلفكِ هذا كثيرًا. لن نحتاج سوى مترين أو أكثر قليلًا كي نكسو جسدكِ الصغير. اسمعي، يمكنكِ المجيء إلى

منزلي وتناول العشاء ريثما آخذ قياساتكِ، وبعدها سأقوم أنا وزوجي بتوصيلكِ إلى منزلكِ.

لم أصدق نفسي من الفرح، وأعربت لها عن جزيل شكري وامتناني. ولم أكن أعلم في ذلك اليوم، أن هذه ستكون بداية صداقة متينة بيننا، وأن هذه الصداقة ستكون خلال الأشهر التالية إحدى أهم الصداقات في حياتي.

تسلمت أول مرتب لي بعد ظهر يوم الجمعة. كان المال موضوعًا في مظروف بني مغلق، وقد كُتبت تفاصيل أجري عليه من الخارج، وذُكرت عدد الساعات التي عملتها في المصنع، وكم كان في الداخل بالضبط. عدت بالمظروف إلى المنزل وأعطيته مغلقًا كما هو لأمي. أخرجت أمي منه عملة ورقية وبعض العملات المعدنية، فأخذت الورقية لنفسها، وأعادت لي القروش.

قالت أمي بلطف:

- إنها لكِ يا ماريان. أنفقيها على أي شيء تريدينه.

أخبرتها في ذلك اليوم عن إمكانية العمل الإضافي، فأعلنت أنني أستطيع الاحتفاظ بهذا المال الإضافي لنفسي. وجدت الابتسامة طريقها إلى وجهي، وبدأت أسائل نفسي عما إن كنت سأستطيع توفير ما يكفي من المال كي أذهب للتسوق وابتياع القماش في نهاية المطاف.

بعد ظهر يوم السبت، ذهبت إلى المدينة بصحبة بيف، وقصدنا متاجر الأقمشة. وجدنا بغيتنا في فضلة قماش من خامة الباستيل، منقوش عليها زهور صغيرة، حيث قالت بيف إنها تصلح لأن تكون بلوزة لي. وبعدها استطعنا العثور على قطعة ذات حجم معقول من القماش

الأزرق الداكن، يمكن حياكتها وتحويلها إلى تنورة جميلة، ضيقة على الخصر وترفل حول ساقي في أثناء السير. ابتسمت بيف وقالت:

- ستظهِر هذه التنورة جمال خصركِ الصغير.

فهززت رأسي أوافقها بسعادة. استطاع المبلغ الهزيل الذي كان معي أن يكفي ثمن القماش، ما أثار حماسي وفرحي. احتفلنا بتناول الشاي وقطعتين من كعكة الكريمة قبل أن نعود إلى المنزل. كانت بيف هي من دفعت حساب الحلوى، بعد أن أكدت لي بلطف:

- يمكنكِ رد العزومة في المرة القادمة عندما تحصلين على أجر ورديتكِ الإضافية.

بعد ساعتين كنت في منزل صديقتي الجديدة. انطلقت بيف إلى العمل مباشرة، فأخذت جميع قياساتي، كي تتمكن من حياكة القماش بما يناسب تفاصيل جسدي ويظهرها بشكل متناسق. أحببت منزلها منذ المرة الأولى التي رأيته فيها، واستملحت عيناي كل ما به. أعجبني طقم الجلوس الوثير الذي كان مكونًا من ثلاث قطع، وسجادتها الناعمة المنقوشة بالزهور، وطاولة الطعام والكراسي المصنوعة من خشب الساج. وحينما قارنت منزل أبي بهذا المنزل الجميل، بدا لي أكثر وضاعة مما كان عليه.

- منزلي جميل، أليس كذلك يا ماريان؟ لكن طاولة القهوة هي المفضلة لدي. إنها ماركة إركول، وعلى الرغم من أنها باهظة الثمن فإن جودتها عالية وتستحق! ابتعت كل شيء ترينه بالتقسيط! أردت أن يكون كل شيء جديدًا قبل أن نبدأ في تأسيس عائلتنا.

كان زوجها، وهو رجل مكتنز الجسد أشقر الشعر في أواخر العشرينيات من عمره، يعمل في مصنع آخر يدفع أجورًا أعلى من التي كنا نتحصل عليها في مصنعنا.

في غضون فترة وجيزة، وجدت نفسي أتناول الطعام مع بيف وزوجها مرة كل أسبوع، وأتسامر معهما قليلًا، قبل أن يوصلاني بسيارتهما إلى باب المنزل. في المرة الأولى، عندما دخلت سيارتهما إلى الحي الذي كنت أعيش فيه، كنت أدري كيف كان منزلنا يبدو للعين الغريبة، بستائره البالية المعلقة على النوافذ وطلاء بابه الأمامي المتقشر. لكن بغض النظر عن أي أفكار قد طرأت على ذهنيهما بخصوصي، فإنهما لم يقولا أي شيء. كانا يوصلانني، ويتمنيان لي ليلة سعيدة بلطف، ولا يزيدان على ذلك بحرف.

كانت علاقتهما هي العلاقة الأولى التي أوضحت لي معنى الزواج الحديث، كما يطلقون عليه الآن. كان كلاهما يعمل ويكسب المال، وكلاهما يقرر بالاتفاق كيف سيقومان بإنفاقه. كما كانا يخرجان معًا في المساء، بعد أن يناقشا ما يريدان القيام به أولًا. في بعض الأحيان كانا يذهبان إلى السينما أو الحانة، ومرة في الشهر كانا يرتديان أفضل ملابسهما، ويخرجان لتناول العشاء والرقص. وفي أيام الآحاد، كانت بيف تطهو عشاءً من المشويات، بينما يغسل فيل السيارة ويباشر العمل في حديقة المنزل. وكانت مهمة فيل هي غسل الأطباق بعد ذلك، ثم يشرع الزوجان بعد هذا في مشاهدة التلفاز معًا، والتحدث معًا في أي شيء يحبانه. قبل أن أعرفهما، لم أكن قد سمعت قط عن رجل يساعد في الأعمال المنزلية. كانت هذه هي أول معرفتي بما يمكن أن يكون عليه الزواج السعيد.

أخبرتني بيف أن الشيء الوحيد الذي ينقصهما هو وجود طفل. لقد انتهيا من دفع جميع الأقساط بالكامل، كما كان من المقرر ترقية فيل إلى وظيفة أفضل، يعمل فيها كمشرف. وكان هذا يعني أنه لم تعد هناك ضرورة فعلية من عمل بيف، وكلاهما كان يشعر أن الوقت المناسب لتأسيس عائلتهما قد حان. واستمرت تخبرني بعينين تملؤهما الأسى أنهما كانا يحاولان الإنجاب دون نجاح حتى تلك اللحظة. ولما انتهت من كلامها بدأ الشعور بالذنب يعتمل بداخلي. كيف سيكون رأيها فيَّ يا ترى لو علمتْ أنني لم أكتفِ بإنجاب طفلة، بل وتخليتُ عنها كذلك؟

خلال تلك الأسابيع الأولى من معرفة بيف وزوجها فيل، بدأ خاطر جميل يتردد في ذهني، ربما، ربما ألتقي بفتى لطيف ذات يوم، فتى يقبل الزواج بي، فنستقر معًا في منزل جميل ذات يوم. بيد أني سرعان ما أبعدت هذا الخاطر عن ذهني، وقلت لنفسي إن هذا مستحيل. لطالما أخبروني أن الرجال يحبون أن تكون زوجاتهم صالحات شريفات، لا ماضي لهن أو أطفال متبنين، فمن ذا الذي سيقبل بي وأنا لدي مثل هذا الماضي التعس؟

كيف يمكنني أن أخبر أي شخص أنني لست عذراء فحسب، بل لم أكن كذلك مذ كنت في الثامنة من عمري؟

# الفصل الحادي والأربعون

في اليوم الذي تلى يوم قُبولي في المصنع، مررت على المدرسة، وأخبرت المديرة بقرار أبي آسفة. عزتني المرأة الرؤوف بكلمات لطيفة، وحاولت منحي بعض الأمل بقولها:

- ربما تحققين حلمك عندما تكبرين قليلًا.

إلا أن كلينا كان يعلم أن شيئًا مثل هذا لن يحدث. بمجرد انتقال الفتيات للعمل في المصنع، فإنهن نادرًا ما يعدن للدراسة أو يحصلن على مؤهل. لقد قرأت الحقيقة في عينيها؛ ما كانت هذه إلا كلمات تشجيع جوفاء. كرهت أن أخذل مديرتي الطيبة، وكرهت أكثر جهل أبي وتعسفه، وامتناعه عن مساعدتي على تحسين وضعي ومستقبلي.

في ذلك اليوم بالتحديد ظهر جارنا من العدم، وقد أنصت لي وأنا أخبره بالدموع بما فعله أبي، وكيف رفض السماح لي بمغادرة المنزل والتدرب للعمل في التمريض. أبدى الجار تعاطفه الشديد معي، وأسفه على عجزي عن تحقيق طموحي، بل وأخبرني أن شيئًا مشابهًا حدث له في الماضي. قص الجار عليَّ كيف كان يريد البقاء في المدرسة، واجتياز امتحان الباكالوريا، ومن ثم الالتحاق بالجامعة، إلا أن والده أصر على أن يتعلم صنعة عوضًا عن ذلك.

لقد أعلن والده بحزم:

- العلم والكتب لا نفع فيهما. لن يُمكناك من شراء منزل لائق أو عيش حياة كريمة.

ورأيت في مأساته مأساتي، وكيف أنه كان لكلَينا حلم تحطم على يد والده. صدقت حكايته المؤسفة، ثم تابع يخبرني أنه بمجرد أن أنهَى تدريبه التقى بدورا، وهكذا كان الأوان «قد فات» على تحقيق أي أمنية يحملها في صدره.

وقد تساءلت فيما بعد عما إن كانت قصته صحيحة، أم كانت مجرد خدعة جديدة يكسب بها تعاطفي ويوهمني بوجود ما يربط بيننا.

مرت عدة أسابيع قبل أن أراه مجددًا، وفي ذلك الوقت كنت قد اعتدت روتين المصنع، حتى وإن لم أستطع أن أجبر نفسي على حبه. وقد كنت سعيدة بتوطد أواصر الصداقة بيني وبين بيف، كما سررت للجلبة التي أحدثتها بقية الزميلات إزاء مظهري الجديد. من خلال ما كسبته من مال إضافي، اشتريت ملابس داخلية جديدة، وحذاءً لامعًا جديدًا، وقصصت شعري، وزينت وجهي بالمكياج لأول مرة. لكن الاختلاف الحقيقي حدث عندما بدأت في ارتداء الملابس الجديدة التي حاكتها بيف لي في العمل.

قالت بعد انتهاء الزي الأول:

- لا تدخري هذا الثوب للمناسبات. أعدكِ أنك ستصبحين فتاة أخرى كليًّا بمجرد شراء المزيد من الأقمشة وتفصيل المزيد من الملابس.

كان اليوم سبتًا عندما ظهر أمامي جارنا من جديد. كنت قد انتهيت لتوي من وردية صباحية إضافية، وعندما خرجت من المصنع سمعت صوته يناديني. هذه المرة وجدته يسير ورائي.

- تبدين جميلة جدًّا اليوم يا سيدتي الصغيرة.

في ذلك اليوم كنت غاضبة منه. أين كان طوال هذه المدة؟ لم يكن يظهر إلا عندما يريد فحسب. ضحك لما رأى التعبير المرتسم على وجهي، وقرأ عليه المشاعر المتضاربة التي كانت تعتمل بداخلي.

هتف الجار بابتسامة صغيرة:

- لقد اشتقتِ إليَّ، أليس كذلك؟

أجبت بسرعة:

- لا! بالطبع لا.

لكن سواء اعترفت بحقيقة مشاعري أم لا، كان الجار يعلم الحقيقة؛ لقد اشتقت إليه فعلًا.

هتف الجار بعدها يقول:

- سمعت أنكِ اكتسبتِ الكثير من الأصدقاء الجدد.

وافترضت أن أمي أخبرت دورا بأمر بيف وزوجها، وأن دورا أخبرته بدورها. ولعله كان هو الشخص الذي يراقبني من خلف الستائر عندما كانت بيف وفيل يقومان بتوصيلي كل سبت.

تطلع إليَّ بنظرات متحدية، وأضاف:

- ستنسينَني قريبًا، ألست محقًّا؟

وحصل على الجواب الذي كان ينتظره؛ وهو النفي والإنكار طبعًا.

أخذني من ذراعي، وقادني في اتجاه سيارته. وبثقة فتح باب الراكب، فصعدت إلى السيارة وجلست. في تلك المرة، عوضًا عن إعادتي إلى المنزل مباشرة، انطلقت السيارة متخذة طريق الغابة.

مد ذراعيه نحوي، وناداني قائلًا:

- تعالي إلى هنا يا ماريان.

واستطاع أن يفسِد يومي كله. جعلني ما فعله بي أدرك كم كنت عازفة عن العودة إلى فعل كل تلك الأشياء التي أكرهها كثيرًا، بل والأدهى أنه جعلني أدرك كم كانت خاطئة ومقرفة.

بكيت قليلًا، وراح بلطف مزيف يربت على ظهري. قلت له إنني لم أرغب سوى في التحدث فقط.

أحاط كتفي بذراعيه، وربت على رقبتي بأصابعه الخشنة، وعقب على كلماتي قائلًا:

- وماذا عن هذا؟ إنكِ تحبين هذا، أليس كذلك ماريان؟

لقد كان محقًّا بطريقة ما، فأنا كنت أحب ما بيننا فعلًا، وكي أكون دقيقة، فلقد كنت أحب شعوري وأنا بين ذراعيه. لقد كان الجار في جميع الأحوال هو الشخص الوحيد الذي يظهر لي بعض المودة. مذ كنت صغيرة وأنا أشاهد عاطفة أبوي التي يبديانها لأشقائي الصغار، وكنت أرغب في عاطفة كهذه لنفسي. بيد أني لم أكن راغبة في الشيء الآخر، ذلك الشيء الذي كنت أعلم أنه يريده.

وعلى مدار الأسابيع الثلاثة التالية، كنت أرفض أي محاولات أخرى منه.

هتف الجار ذات مرة وقال:

- بم أخبرتِ الناس عن الأب يا ماريان؟

كان سؤالًا لا بد أنه كان على علم تام بإجابته.

وكان ردي:

- إنك تعلم جيدًا ما قلته. لقد أخبرتهم أنني لا أعلم مَن كان أبا الطفلة.

كنت آمل ساعتها أن يُظهر لي بعض الامتنان بما أنني حافظت على وعدي، واستمررت في حمايته.

وهنا سألني مستفسرًا:

- حسنًا، ولكن عندما ملأتِ الأوراق الثبوتية الرسمية، تلك الخاصة بتبني الطفلة، ماذا كتبتِ فيها؟ أكتبتِ أن الأب مجهول؟

أجبته:

- نعم. (مؤكدة له أنني لم أخنه).

وهنا أعلن بصرامة أن ما فعلته كان غير قانوني. لقد كتبت شيئًا لا يمت للحقيقة بصلة في ورقة رسمية. لقد كذبت على الحكومة! كان وجهه قاتمًا وجادًّا وهو يضيف:

- ألا تعرفين مدى خطورة شيء كهذا يا ماريان؟

قلت بسخط:

- لكنك أنت من نصحتني بألا أذكر اسمك لمخلوق، بأن أخبر الجميع أنني لا أعرف من كان الأب!

إلا أن الرعب كان قد بدأ يستبد بي، وهلعت لفكرة أنني ارتكبت بهذا جريمة ضد القانون.

كنت أعلم حينها أن هذا لم يكن هو الجواب الصحيح، لكن ما لم أكن أعلمه هو أنه لم يكن هناك جواب صحيح يمكنني تقديمه.

كانت ردة فعله أن ثار في وجهي ثورة عارمة، وصاح بانفعال مزيف:

- لم أطلب منكِ أن تكذبي على الحكومة!

انفجرت في البكاء بسبب تصرفاته وكلماته الظالمة.

وهنا هدأت الثورة كما بدأت، وأخذ يؤكد لي أنه لن يدع أي شيء يصيبني بسوء. أصبح صوته خافتًا بسرعة، وراح يهمس في أذني ويؤكد لي أنه لم يفعل هذا إلا لأني كنت مميزة جدًّا بالنسبة إليه. ومن جديد شعرت بأنني محاصَرة، عاجزة عن الابتعاد عنه.

في ذلك اليوم لم أرفض أي شيء رغب في فعله بي. لم تخرج من فمي كلمة لا.

كتمت مشاعر الخزي والعار داخلي. كنت لا أزال بحاجة إلى سماع الكلمات التي تخبرني بأنني مميزة.

كان يعرف الكلمات التي يحتاج إلى استخدامها معي للتلاعب بمشاعري. كان يعي تمام الوعي جميع مخاوفي ونقاط ضعفي. ألم أمنحه إياها طوعًا؟

لكن لمَ سمحت له بأن يسيء إليَّ مجددًا؟ لمَ تركته يفعل هذا بي؟ طرحت هذا السؤال على نفسي مرارًا. لم أكن أحبه. كنت أعلم هذا جيدًا. بل إنني كنت أخاف منه في واقع الأمر، وأمقت ما كان يفعله بي مقتًا شديدًا. لكني أيضًا كنت أخشى من فكرة أن يتوقف عن حبي. كنت أدرك أنه أقوى مني، وأن تصميمه على جعلي أستسلم كان أقوى من تصميمي على رفض محاولاته. شعرت وقتها أنه ليس لدي خيار.

لم أكن أفهم في ذلك الوقت أن السبب الحقيقي لتركي له يعتدي عليَّ مرة بعد أخرى هو أنني على الرغم من سنوات عمري الخمسة عشرة، كنت مجرد طفلة، طفلة وحيدة حرمت منذ ولادتها من الحب والعطف والحنان.

كان الجار حذرًا هذه المرة، وحريصًا على ألا يراه أحد بصحبتي. لم يحاول قط المجيء إلى منزلنا أو انتظاري في مكان قريب من المنزل. كان ينتظرني دومًا في مكان ما على الطريق الممتد بين المصنع ومحطة الحافلات، فيتطلع إليَّ بابتسامته الودود، ويختار من الكلمات أرقها وألطفها، كي يشعرني أن هناك من يهتم بي، من يصغي إلي، من يراني فعلًا.

بيد أني عندما بدأت أتقيأ في أحد الصباحات، أدركت أنه لم يكن حذرًا كما كان يظن.

# الفصل الثاني والأربعون

قررت الانتظار لبضعة أيام على أمل أن يكون التقيؤ بسبب شيء أكلته. ولكن بعد مرور ثلاثة أيام أخرى من التقيؤ قبل الإفطار، كان عليَّ أن أواجه الحقيقة. هذا ليس تسممًا من الطعام. كما كانت هناك حقيقة أخرى عليَّ مواجهتها: لقد انقضت ثلاثة أشهر على آخر مرة جاءتني فيها عادتي الشهرية. أخذ مني الذعر كل مأخذ، وبدأتُ أوازن الخيارات المتاحة أمامي. منيتُ نفسي بأن الجار سيساعدني هذه المرة بالتأكيد. وللمرة الأولى منذ عدة سنوات كنت أنا التي تتبع أثره، وتبحث عنه.

عندما تأكدت من خلو ورشته من أي مخلوق، تسللت إليها، وتركت له ملاحظة تخبره بأنني كنت بحاجة إلى رؤيته.

في اليوم التالي كان ينتظرني بالقرب من المصنع، وعندما صعدت إلى سيارته، أنبأته بأنني لم أحِض منذ ثلاثة أشهر كاملة، وأنني كنت أتقيأ مع بداية كل صباح. كانت أول كلمة خرجت من فيه في ذلك اليوم هي: «اللعنة»، والمضحك أنه أتبعها بالسؤال نفسه الذي طرحه عليَّ قبل عامين:

- هل أنتِ متأكدة أنه ابني؟

وعندئذ بكيت بكاءً مرًّا، غضبًا من شكوكه غير المبررة، ومرتاعة من المأزق الذي أوقعت نفسي فيه.

هتفت في يأس:

- لا يمكنني أن أخوض هذا مجددًا.

لكنه طمأنني قائلًا:

- لا تقلقي. لن تضطري إلى ذلك.

ثم وضع ذراعه حول كتفي.

في ذلك اليوم، عوضًا عن التماس الراحة بين ذراعيه، شعرت بثقل ذراعيه عليَّ وكأنهما تزنان طنًّا، وبدا لي كأنه يحتجزني بهما في مقعدي.

أكد الجار أنه سيفكر في حل، وأنه سينتظرني بعد انتهاء مناوبتي في اليوم التالي.

مر الوقت في ذلك اليوم بطيئًا ثقيلًا على النفس، وعندما انطلقت الصافرة تعلن نهاية يوم العمل، فإنني عوضًا عن التلكؤ والتحدث إلى بيف كالمعتاد، ودعتها سريعًا، والتقطت حقيبتي، وغادرت على الفور. وجدت سيارته إلى جانب الطريق قبل أن أستطيع اتخاذ أكثر من بضع خطوات في اتجاه محطة الحافلات، وسمعت صوته يأمرني بالصعود بسرعة. أدركت حينها أن إلحاحه هذا نابع من خوفه من أن يرانا أحد معًا.

إلى الغابة ذهبنا، هذه المرة توغلنا فيها إلى منطقة أبعد مما كنا نذهب في المعتاد.

استدار الجار ومد يده إلى المقعد الخلفي، وبوجه علته الكآبة والتصميم أخرج حقيبة تحتوي على قارورة مليئة بالماء، وأنبوب من المطاط الأسود. إنها المعدات نفسها التي كانت على الصينية التي حملتها دورا بين يديها قبل عامين. صرخت ملتاعة:

- لا!

وحاولت بسرعة الهروب من السيارة، إلا أنه كان أقوى مني بكثير، فاندفعت ذراعه وثبتتني بقوة على مقعدي في السيارة، ودفع بذراعه الأخرى خلف ظهري. وقبل أن أتمكن من الإفلات منه، اعتلاني ليقيدني

تحته بوزنه الثقيل، واضعًا إحدى ركبتيه فوقي، بينما ثبتتني ساقه الأخرى في مكاني على مقعد السيارة. لقد كان أقوى مني بكثير، وخشيت أن يؤذيني حقًّا.

رفع الجار ثوبي الداخلي، وباعد ما بين ركبتي، وسرعان ما شعرت بفوهة الأنبوب المطاطي الصلبة وهي تُدفع بداخلي بمنتهى الخشونة، وأطلقت شهقة قوية من الألم والرعب. كان الجار في يأسه وغضبه أكثر خشونة بكثير مما كانت عليه زوجته في المرة السابقة. كما أن الماء والصابون في القارورة كانا أكثر سخونة مما كانا في المرة الأولى. حاولت دفع كتفيه للخلف وأنا أنتحب من الهلع، لكنه لم يبالِ بأي من هذا، واستمر في صب الماء بداخلي، ولم يتوقف إلى أن أنهى السائل لآخر قطرة. وأخيرًا رفع نفسه عني، وأمسك ساقيَّ يضمهما معًا، ورفعهما لأعلى.

أكد الجار بصوت ثابت:

- علينا أن نبقي هذا الماء بداخلكِ لبعض الوقت. أنتِ تريدين التخلص منه مثلي يا ماريان، ألست محقًّا؟ فكري فيما قد يفعله والدكِ بكِ إن كشف أمركِ هذه المرة.

هذه الفكرة وحدها أرسلت شرارات إضافية من الخوف في جسدي، وأخذت أنتفض من الهلع والوجع معًا.

كان الألم الذي حل بجسدي في عصر ذلك اليوم أسوأ بكثير مما كنت أتذكر. في الوقت الذي تمكنت من الوصول فيه إلى بداية الحي الذي نسكن فيه، حيث كان الجار ينزلني دائمًا، كنت أشعر بالإغماء والدوار. كانت آلام التشنج والغثيان في معدتي أقوى من قدرتي على التحمل. بيد أني لم أكن راغبة في أن أثير شكوك أمي، فتعللت بإصابتي بالصداع كي أستطيع الذهاب مباشرة إلى الطابق العلوي بعد أن أكدت على أمي

أنني ذاهبة للنوم. صعدت إلى الأعلى وارتميت على السرير وأنا متهالكة تمامًا. حشوت ورقة في فمي وأخذت أطبق بأسناني عليها، محاولة التنفيس عن وجعي دون صوت. كنت أخشى أن تسمعني أختي وتخبر أبي بما يحدث لي، فتقع الطامة الكبرى. تصبب العرق على جبهتي، وسرى الوجع في جسدي يمزقه تمزيقًا، وبعد أن رأف الألم بحالي قليلًا، وتمكنت من النوم أخيرًا، حلمت بحوض كبير مملوء بالدم، وفي منتصفه كان هناك طفل صغير يطفو على وجهه. فحصت نفسي في الصباح. لم تكن هناك علامة على عودة عادتي الشهرية. كل ما حدث يومها هو أنني تقيأت مجددًا.

ومر أسبوع قبل أن يعود الجار من جديد.

قال فورًا عندما صعدت إلى السيارة:

- حسنًا، ما الأخبار؟

أجبته:

- ليست هناك من علامة.

تدحرجت دموع كبيرة على خدي وأنا أصف له حالي، وأؤكد له أنني ما زلت أتقيأ في كل صباح. مع كل كلمة كنت أنطق بها كنت أبصر كل إشارة على مودة صديق طفولتي وهي تختفي، إلى أن أصبح من يجلس بجواري رجلًا غريبًا تمامًا، رجلًا غريبًا يرمقني بعينين غاضبتين باردتين.

عندما انتهيت من حديثي هتف الجار بحزم:

- من الأفضل أن تلتزمي بالقصة نفسها التي أخبرتِ بها الجميع من قبل. لا يستبدن بكِ الوهم، ويصور لكِ أنك تستطيعين إيقاعي في فخكِ، وتوريطي في هذه القصة. وعلى العموم، لن يصدقكِ أحد. هل تفهمين؟

حاولت الاحتجاج بكل السبل. علا صوتي وأنا أنبئه بأنه لا يمكن التخلي عني هذه المرة كما حدث سابقًا، وأن عليه أن يساعدني ويعينني على ما هو قادم، فما كان منه إلا أن تجاهل باستهانة محاولتي الواهية لطلب دعمه، مخيبًا أي رجاء متبقٍّ لدي.

عندما توقفت لأتنفس بعد الكثير من الصراخ والتوسل، هتف بنبرة واثقة:

- لا تكوني سخيفة يا ماريان. أنا رجل متزوج ومحترم، معروف في كل المنطقة بحسن الخلق. اسألي أي شخص عني وسيخبركِ بنفسه. لكن ماذا عنكِ يا فتاتي الساذجة؟ ألم تعلني للجميع أنكِ نمتِ مع شبان عدة بينما كنتِ لا تزالين في الثالثة عشرة من عمركِ؟ ألم تكتبي في استمارة حكومية رسمية أنكِ لا تعرفين من هو والد طفلتكِ؟ من سيصدق أكاذيبكِ إذن؟

طفقت أتوسل إليه، وأستحلفه ألا يتخلى عني. كان رده على كل هذا مجرد ضحكة هازئة طويلة.

فلما انتهى من ضحكته أردف ببرود:

- إن كنت تطلبين مني أن أساعدكِ في عملية الإجهاض، فطلبكِ مرفوض تمامًا؛ إنه إجراء مكلف وليس لدي أي مال مدخر. وعلى أي حال، هذا غير قانوني. التزمي بالقصة القديمة نفسها يا فتاتي. لا بد وأنكِ أصبحت تتقنين حبكها الآن.

لم يتفوه الجار بكلمة واحدة زيادة. استمر يقود السيارة إلى أن صرنا على بعد ميل من منزلينا، وعندها أوقف سيارته. ولوهلة توهمت أنه غير رأيه، أو ربما اهتدى إلى فكرة يساعدني بها، لكن سرعان ما خاب هذا الوهم عندما مال عليَّ ليفتح باب الراكب.

هتف الجار ببرود:

- هيا اخرجي يا ماريان. لن أخاطر بأن يراني أحد معكِ. وقد يفيدكِ المشي في الواقع، ويحل ورطتكِ بطريقة غير متوقعة.

نظرت إليه لا أصدق ما أسمع. هل قُد هذا الرجل من صخر؟ إنه بالتأكيد لا ينوي أن يتركني على هذه الطريق الريفية المظلمة. أيمكنه هذا فعلًا؟ وجاءني الجواب سريعًا عن هذا السؤال. عندما رأى الجار أنني لا أستوعب ما قاله، وأتطلع إليه بفم فاغر من الصدمة، لكزني بيده، وكرر بقسوة:

- أنا أعني ما أقوله يا ماريان. هيا اخرجي. الآن!

من شدة الصدمة لم أتمكن من الاحتجاج، وصدعت لأمره من فوري. وقفت على العشب بلا حول ولا قوة أراقب الأضواء الخلفية لسيارته وهي تخفت رويدًا رويدًا في ظلام تلك الليلة الشتوية الباردة. رفعت طوق معطفي أحيط به رقبتي، وبدأت أسير وأنا في ذهول كامل.

عندما وصلت أخيرًا إلى باب منزلنا، كانت سيارته متوقفة بالفعل أمام منزله. رفعت رأسي بينما كانت أسناني تصطك من البرد، وتطلعت إلى ستائر نوافذ منزله المنسدلة، وتصورته وهو جالس أمام النار، دافئ، قرير العين، لا يفكر بحالي، أو يهتم بما ورطني فيه مثقال ذرة.

هزتني موجة غضب جامحة. رغبت في أن أنطلق من فوري إلى منزله، فأحطم بابه دقًا وطرقًا، وآمره بمساعدتي. بيد أنني كنت أعلم جيدًا أنه سيسخر مني بكل بساطة، وينفي أي اتهامات قد أوجهها له. لقد استطاع الهروب من المأزق نفسه من قبل، وبمنتهى السلاسة، أليس كذلك؟

كنت بمفردي، وكنت أعي هذا جيدًا.

ولم يدر بيننا أي حديث آخر إلا بعد مرور عامين كاملين.

# الفصل الثالث والأربعون

مرت الأسابيع التالية عليَّ وأنا ذاهلة مضطربة. في النهار، حين أكون في المصنع، كنت أحاول بكل الطرق أن أتجنب التفكير في مصيبتي، فأدفن رأسي في الرمال كالنعامة، وألهي نفسي بالعمل. لكن في الساعات الأولى من الصباح، حينما كانت الكوابيس المفزعة توقظني من سباتي، كنت أجد الكرب مستقرًّا في نفسي. وما إن أفيق قليلًا حتى أشعر بمعدتي تتلوى من الغثيان.

في كل مرة كنت أهرع فيها إلى حمام منزلنا الخارجي لأتقيأ، كنت أتيقن من أنني حبلى. حتى تلك اللحظة كانت قد مرت عليَّ عدة أشهر دون أن يتوقف غثياني الصباحي، بعكس حملي الأول الذي توقفت فيه أعراض القيء الصباحية بعد انتهاء الأشهر الثلاثة الأولى.

ما الذي سيحدث لي الآن؟ كان هذا هو السؤال الذي طفق يصول ويجول داخل رأسي دون رادع ولا وازع. حاولت إبعاده بشتى السبل عن خاطري، إذ كنت لا أجرؤ على التفكير في إجابة عنه. استمررت في إخفاء اتساع خصري وبروز صدري تحت الثياب الفضفاضة، والتمضمض بغسول قوي لإزالة رائحة القيء عن فمي، وإشعال أعواد الثقاب في المرحاض الخارجي لإخفاء أي روائح عالقة فيه.

كانت بيف هي أول من يلاحظ التغيرات التي طرأت عليَّ، ويفطن لما ألمَّ بي من مصاب.

خاطبتني بهدوء في استراحة الصباح وقالت:

-    أنتِ حامل يا ماريان، أليس هذا صحيحًا؟

همستُ في استسلام:

-    بلى.

منحني الاعتراف بعد كل هذا الصمت شعورًا فوريًّا بالراحة. استفسرَتْ مني عن الشهر الذي أنا فيه، وبدت مصدومة عندما أخبرتها أنني وفقًا لحساباتي يجب أن أكون في الشهر السادس. تبع ذلك المزيد من الأسئلة، وتضاعفت صدمتها لما أخبرتها أنني لم أزر طبيبًا حتى تلك اللحظة، والأدهى أنني لم أخبر أبويَّ بأي شيء عن ذلك الموضوع.

كيف كان لي أن أشرح لها ما كنت أعانيه في منزل أبي، أو أفسر لها أنهما لن يكونا الأبوين المتفهمين أو الداعمين؟ كيف أُفهِمها أنني أدرى الناس بهذا، لأنه كان حملي الثاني خلال ثلاث سنوات؟ كلها كانت حقائق لم يكن بإمكاني الاعتراف بها لبيف.

غرزت أظافري في راحتي يدي بينما كنت أنتظر السؤال الذي أخشاه أكثر من أي سؤال آخر.

سألتني بيف:

-    ومَن الأب؟

هذه المرة كنت أعي جيدًا معنى أن أعلن عن جهلي بهوية الأب. خفضت رأسي، وبدأت أنسج خيوط كذبتي. أخبرتها هامسة بأنه كان صبيًّا خرجت معه عدة مرات، وأنه غادر المدينة منذ مدة. وأضفت لأتقن الكذبة:

-    لقد ذهب إلى لندن. هجرني بعد أن أخذ غرضه مني. لم يحدث بيننا شيء سوى مرة واحدة.

تطلعت بيف إليَّ بعينين متعاطفتين. كانت تعلم أن حياتي الاجتماعية شبه منعدمة، ولا بد أنها افترضتْ أنني وقعت في غرام أول صبي يُظهِر لي بعض الاهتمام. كان وجهي يتضرج بالحمرة وأنا أقص عليها قصتي المكذوبة، كنت أشعر بالخزي من وضعي المهين، لكن ما أشعرني بخزي أكبر كان خداعي لصديقتي المقربة الوحيدة. عندما رأت بيف أنني كنت على شفا البكاء، احتضنتني بين ذراعيها، وأكدت لي أنها ستساعدني.

ثم أضافت:

- لكن اسمعيني يا ماريان، يجب أن تخبري أبويكِ، هذا هو شرطي الوحيد.

طمأنتها وأكدت لها أنني سأفعل.

كانت بيف هي التي حددت لي موعدًا مع طبيب النساء، ولم تكتفِ بذلك، بل طلبت يوم إجازة من المصنع كي تستطيع مرافقتي. أكد الفحص أنني حامل في الشهر السادس. حدد الطبيب موعد حضور عيادة ما قبل الولادة، وكتب لي أقراص الحديد وأقراصًا أخرى لإيقاف غثيان الصباح المستمر. بعدها أضاف أنني أعاني نقصًا في التغذية، ومصابة بفقر الدم، وأكد أنني بحاجة إلى ما يكفي من الطعام والراحة. ولما كان يظن أن بيف قريبتي، راح يملي عليها تعليماته للاعتناء بي.

اصطحبتني بيف إلى المنزل معها بعد ذلك. أعدت لي كوبًا من الشاي، وقدمت لي بعض الشوكولاتة. ثم أنبأتني أنها تحدثت مع زوجها فيل بخصوص ما ألمَّ بي.

وقالت:

- لقد اتفق كلانا على شيء مهم. إن لم يسمح لك والداكِ بالبقاء في المنزل حتى موعد ولادتكِ، يمكنكِ القدوم إلينا والبقاء معنا إلى أن يحين موعد الولادة.

قررت استجماع شجاعتي، وإخبار أمي بأمر حملي، بيد أنني قبل أن أتمكن من فتح فمي بكلمة، كان الأمر كله قد خرج من يدي. بعد ثلاثة أيام من موعدي مع الطبيب، استطاع أبي العثور على الدواء في غرفة نومي.

عندما وصلت إلى المنزل صباح يوم السبت بعد انتهاء ورديتي، وجدت أبي واقفًا في انتظاري. بمجرد أن دخلت من الباب، اضطرب قلبي لمَّا استشعرت الجو المتوتر في الغرفة. كانت أمي واقفة بجانب الحوض، تتطلع من النافذة بعينين شاردتين، وكأنها تعلن من البداية أنها لن تشارك في المأساة التي كانت على وشك الوقوع.

كانت زجاجات دوائي على الطاولة التي كان أبي يقف إلى جوارها. لم يقدم أي تفسير لسبب قيامه بتفتيش متعلقاتي، وقد سألت نفسي فيما بعد: منذ متى يا ترى استطاع تخمين أنني حامل؟ بيد أنه في ذلك اليوم كان الرعب هو الشعور الوحيد الذي اعتراني بمجرد أن أبصرت هيئة أبي المخيفة.

سأل أبي بهدوء كنت أعلم أنه يسبق عاصفة هوجاء:

- ما هذا؟

بهتُّ وأنا أتطلع إلى وجهه المسود من الغضب. قلت متلعثمة:

- إنها.. إنها مجرد أقراص حديد يا أبي.

قطع أبي الغرفة في خطوتين، وأمسك بياقة معطفي، ثم صرخ في وجهي يقول:

- أقراص حديد؟ ولماذا أيتها العاهرة الصغيرة؟

كانت عيناه متقدتين بغضب أشد من أي غضب شاهدته عليه من قبل.

- لقد فعلتِها مجددًا، أليس كذلك؟

كان يصرخ ويسب ويلعن، ويلكزني في صدري وبطني بأصابعه الغليظة القاسية. حاولت حماية صدري بيدي، فلكم معدتي لكمة أفرغت صدري من الهواء. شهقت مذعورة، وانحنيت على نفسي من شدة الألم، فشعرت بيديه تعتصران كتفي النحيلتين. أخذ أبي يهز جسدي وينفضه بغلٍّ، ورغمًا عني عضضت لساني بينما أخذت أسناني تصطك ببعضها بقوة.

- ماذا بداخلكِ هنا إذن أيتها العاهرة الصغيرة؟

استمر أبي يمطرني بالسباب، وأنا أتأرجح للأمام والخلف مثل دمية من القماش.

- مَن الأب هذه المرة؟ مَن الأب الملعون؟

ها هو ذا السؤال الذي سمعته كثيرًا يخرج من فم أبي واضحًا صريحًا. كرره أبي والرذاذ يخرج من فمه ويتناثر على وجهي. انتابتني نوبة غضب مفاجئة من كل هذا الظلم. كنت بحاجة إلى أن أوقفه عن كل هذا.

صرخت بكل ما أوتيت من قوة:

- أنت تعرف من هو. (وأدركت فجأة أن هذا صحيح).

هزني أبي مجددًا، وصاح:

- أخبريني باسمه يا ماريان. (ففعلت).

انفجر فيَّ قائلًا:

- كنت أعلم! حسنًا، إنكِ لن تأتي بهذا اللعين الصغير إلى المنزل.

ورفع قبضته ليلكمني مجددًا. انحنيت مجددًا على نفسي، أحاول حماية بطني من ضرباته. حاولت أن أبلغه من بين شهقاتي بأنني رتبت لإنجاب الطفل في مكان آخر.

صرخت منتحبة:

- لقد حُلَّت المشكلة يا أبي، حُلَّت المشكلة!

إلا أنه كان أشد تهيجًا من أن يتوقف ويسمعني. وعوضًا عن ذلك اشتدت ضرباته، ثم رفعني وألقى بي على طاولة المطبخ.

قبض عليَّ بإحدى يديه بينما كانت اليد الأخرى تفك حزامه الجلدي. حاولت بكل جهدي أن أفر، أن أزحف بعيدًا عنه، إلا أن بطني المتكور أحالني خرقاء ثقيلة. انهالت ضربات الحزام على ساقي وكتفي وذراعي. وشعرت بالمشبك المعدني يمزق جلدي ولحمي. بدأت أسمع طنينًا في أذني، وبدا لي أنه اختلط بصيحات أمي واستغاثاتها، ثم استحال كل شيء أسود.

عندما اكتفى في النهاية، وتوقفت هجمته على جسدي الضعيف، اندفع إلى خارج المنزل، وصرخ في أمي يأمرها بأن تخرجني من هذا المنزل قبل أن يعود. رفعت نفسي من فوق الطاولة بعد عدة محاولات واهنة، وصعدت الدرج على يدي وركبتي وصولًا إلى غرفة نومي. كانت الدماء تسيل بغزارة على ساقي وقد تمزق عنها جوربي. وهالني الرعب من المنظر. خشيت أن يكون قد أذى طفلي.

رقدت فوق فراشي، والدموع تنهمر من عيني بغزارة. رحت أحتضن بطني بيدي أواسي طفلي، وحاولت استعادة بعض قوتي لأجله. ظللت آمل أن تأتي إليَّ أمي، وتسألني عما إن كنت بخير، وتحضنني وتهدهدني

بين ذراعيها، وتعزيني عن كل ما حدث. إلا أني كنت آمل عبثًا. بعد أن أدركت أن شيئًا من هذا لن يحدث، أخرجت بعض الملابس وأدوات النظافة من خزانتي، وألقيت بها في حقيبة تسوق كانت بغرفتي، وعدت أنزل الدرج مستندة إلى الجدار وأنا ما زلت أنزف.

كانت أمي لا تزال واقفة بجوار الحوض، إلا أن هذه المرة كانت تستند بظهرها إلى الحائط وتخبئ وجهها بين يديها. بدت وكأن حجمها تقلص بشكل ما، وكان جسدها كله ينتفض.

قلت:

- أنا آسفة يا أمي. آسفة جدًّا جدًّا.

إلا أنها لم ترد.

همستُ من جديد:

- وداعًا.

وانتظرت بضع ثوانٍ للحصول على رد، أي رد، إلا أن انتظاري كان بلا طائل. مضيت إلى الباب الأمامي وفتحته، وعندها سمعت صوتها. كان متوترًا حادًّا، وأعلى من المعتاد.

قالت:

- ماريان! اعتني بنفسكِ يا عزيزتي.

ورأيت دموعًا صامتة تسيل على وجهها البائس قبل أن أدير رأسي وأخرج من المنزل.

# الفصل الرابع والأربعون

كنت غافلة عن ألم ساقي المجروحة وأنا أعرج بها على طول الطريق المؤدي إلى محطة الحافلات. الفكرة الوحيدة التي كانت مسيطرة على رأسي في ذلك الوقت هي الوصول إلى منزل بيف والتأكد من أن هجمة أبي الشرسة لم تؤذِ طفلي أو تصيبه بسوء. شعرت بأعين الناس تحدق إليَّ وأنا أصعد إلى الحافلة، إلا أني لم أبالِ بأي من هذا، وهمست باسم الطريق الذي رغبت في النزول فيه، وسلمت المال إلى المحصِّل. جلست في مؤخرة الحافلة، غافلة عن نظرات وهمسات النسوة اللواتي استمررن في التلفُّت إليَّ بين الفينة والفينة. تطلعت من النافذة إلا أن عيني لم تريا شيئًا، كانت تغطيهما غشاوة من الدمع. وعندما استطعت رؤية انعكاس وجهي في الزجاج، بدا لي متورمًا منتفخًا، بينما سال المخاط ساخنًا من أنفي.

كان منزل بيف على بعد ميلين من المكان الذي أنزلتني الحافلة فيه. كان بإمكاني ركوب حافلة أخرى، لكن لم يكن لدي أدنى فكرة عن مكان موقف الحافلات، فلقد كان الزوجان يوصلانني دائمًا إلى المنزل كلما قمت بزيارتهما. وعلى هذا قررت الذهاب إلى وجهتي سيرًا، وأخذت أعرج وأتعثر على الطريق.

عندما وصلت إلى منزل بيف، ورأيته مظلمًا، شعرت باليأس يتسلل إلى نفسي، وتذكرت بعد فوات الأوان أن هذا كان هو المساء الذي تخرج فيه بيف بصحبة زوجها لتناول العشاء بالخارج. انهارت ساقاي من

تحتي أخيرًا، والشيء التالي الذي كان بإمكاني أن أتذكره كان صوت جارة بيف المفعم بالقلق.

سمعتها تهتف:

- يا إلهي يا طفلتي! ما الذي حدث لكِ؟

نادت المرأة زوجها، وساعدني الاثنان على الدخول إلى منزلهما.

خلعت الجارة الطيبة جوربي الممزق، ونظفت جروحي بالديتول والماء الدافئ، وضمدت ساقي. وطوال هذه الفترة التي كانت تعتني بي فيها، كانت تهمس بشفقة:

- يا لها من كائن هزيل صغير!

وتؤكد أن من فعل هذا لا بد وأن يدفع الثمن. لقد ظنت هي وزوجها أنني تعرضت لهجوم، ورغبا في الاتصال بالشرطة، وهو الشيء الذي توسلت إليهما ألا يفعلاه.

قدما لي الشاي المحلى مع قطرة من البراندي لتخفيف الصدمة. لا بد أنني نمت على الأريكة، لأن الشيء التالي الذي أتذكره كان سماع صوت بيف.

شعرت بها وهي تمسك يدي بقوة، فالتفَّت أصابعي حول يدها بامتنان، وارتخى جفني مجددًا. كل ما رغبت في فعله في ذلك الوقت كان النوم.

سمعتها تهتف بلوعة:

- من فعل هذا بكِ يا ماريان؟

تمتمت أقول بشفتين متورمتين:

- أبي.

هتفت بيف تقول بحنق:

- يا له من وغد! كيف يمكنه أن يفعل هذا بابنته؟

طافت الكلمات في الضباب الذي كان يغشى كل شيء في تلك اللحظة، لكني انتبهت إلى المرأتين وهما تتحدثان عن حالي.

ساعدتني المرأتان في النهاية على الجلوس، وأوصلتاني إلى منزل بيف نصف محمولة ونصف مسنودة، وساعدتاني على صعود الدرج إلى غرفة نوم الضيوف.

استدعت بيف الطبيب، وجاء الرجل على الفور. فحصني بعناية وأعلن أن قلب الطفل لا يزال ينبض. أخبر بيف وفيل أن عدم دخولي في مخاض مبكر أو خسارة الجنين كانت في حد ذاتها معجزة.

سمعته يحدثهما عن إبلاغ الشرطة بالحادث، تلى ذلك همسات من بيف تشرح له فيها الوضع، وتذكر شيئًا عن أبي، ومن دون أن أرى ما كان يحدث، كنت أعلم أن الطبيب قرر ألا يفعل شيئًا مما كان ينتويه، ويسلم بالأمر الواقع. كان يعلم أن أبي لن يكون أول أب يتعدى على ابنته بالضرب، لأنها حملت دون زواج وهي لا تزال قاصرًا، وأنه لن يكون آخرهم كذلك.

أمرني الطبيب بالراحة التامة في الفراش. قال بصرامة يؤكد على بيف:

- سأمنحها إجازة لمدة أسبوع، ثم سنرى ما يمكننا أن نفعل.

سمعتهم ينزلون الدرج، ثم صوت بيف وزوجها وهما يودعان الطبيب، وبعدها رحت في النوم.

بقيت في فراشي بمنزل بيف طوال ذلك الأسبوع. وعند نهايته أخبرتني أن مديرة شؤون العاملات ترغب في رؤيتي قبل أن أعود إلى موقع خدمتي في المصنع.

سألتها:

- لماذا؟

- حسنًا يا ماريان، أنتِ تعرفين القواعد. لا يسمح المصنع للنساء الحوامل بالعمل، وليست هناك طريقة الآن لإخفاء الخبر، أليس كذلك؟

ثم أبلغتني أن النساء الأكبر سنًّا كن يعرفن منذ مدة في الواقع، وكذلك الإدارة، وقد سمحوا لي بالعمل لأطول فترة ممكنة، إلا أن الوقت قد حان للتعامل مع المشكلة.

***

عندما ذهبت إلى العمل في ذلك اليوم، وجدت أن بيف كانت على حق؛ لقد أخبرتني المديرة أن عليَّ المغادرة.

وأضافت تقول بلطف:

- لكن اعلمي أنه بمجرد أن ينتهي كل شيء وتحلي مشكلتكِ، ستجدين وظيفتكِ بانتظارك هنا. أنتِ ماهرة في عملكِ يا ماريان.

قلت لنفسي يا لها من طريقة عجيبة لوصف الأمر! إنها تعني بالمشكلة طفلي الذي يسكن أحشائي! أخبرتني أن قسم شؤون العاملين سيدفع لي راتبي وبقية مستحقاتي. في وقت الغداء، دُهشت عندما منحوني مظروفًا إضافيًا مليئًا بالمال. لقد تعاونت العاملات وجمعن بعض المال من أجلي، وبالنظر إلى المبلغ الذي كان بين يدي، فإن كلهن قد ساهمن بلا استثناء.

كان بالمظروف ما يكفي مصاريفي الأساسية لعدة أسابيع. إلا أن بيف أبدت اعتراضها، وأكدت لي قائلة:

- ليس عليك أن تدفعي أي شيء لنا.

ترقرقت الدموع في عيني أمام كل هذا اللطف.

وبعد شهرين، أنجبت ابنتي الثانية. لكن هذه المرة أنجبتها في المستشفى.

# الفصل الخامس والأربعون

تولَّت بيف أمر التبني الخاص بابنتي، ووقع اختيارها على وكالة محددة، وأوضحت لي أنهم يقبلون استلام الطفلة بمجرد ولادتها.

إلا أنني وجدتُ هذا الاقتراح مستحيلًا، ورفضت مجرد التفكير فيه.

صحت مستنكرة:

- لا يمكنني تسليمها إليهم هكذا! حتى القطيطات والجراء تبقى مع أمهاتها إلى أن يتم فطامها!

أجابتني بيف:

- لكن هذا سيصعب الأمر عليكِ يا ماريان.

حاولت المرأة الطيبة أن تقنعني، لكني أخذت أخرج لها بأسباب تلو أسباب تبرر تأخير التبني إلى أطول وقت ممكن.

لم أستطع أن أعترف لها بأنني كنت أعرف هذا بالفعل، أعرف أن هذا سيصعِّب الأمر عليَّ لأنني اختبرته مع طفلة أخرى. وحتى مع هذا، بدت فكرة تسليم طفلتي مباشرة دون أن أتعرف عليها أو أقضي وقتًا معها أسوأ بكثير من كل ما مررت به في حياتي. على الأقل باتت صورة لابنتي الأولى محفورة في ذهني إلى الأبد. لكن في هذه الحالة، إذا طاوعتها وتخليت عن طفلتي على الفور، فإنني بذلك أفوت على نفسي فرصة معرفتها إلى الأبد.

بيد أنه في النهاية، ومع ضغطي المستمر، سمحت بيف لي وللطفلة بالبقاء في منزلها على مضض، وأضافت بحزم:

- لكن لبضعة أسابيع فحسب.

عندما أتاني المخاض، كانت بيف، وليست أمي، هي التي تقف إلى جانبي تدعمني وتشد أزري.

قلت لها بحسرة في اللحظة التي رأيت طفلتي فيها:

- إنها جميلة للغاية.

وافقتني بيف:

- نعم، أنتِ محقة.

في تلك الأيام القليلة التي كنت فيها في المستشفى شعرت بالرضا والقناعة. ها أنا ذا أُرزق بطفلة رضيعة من جديد، كائن ضئيل يمكنني دسه بين ذراعي وإرقاده على كتفي. بدا العالم الخارجي، الذي عليَّ فيه اتخاذ قرارات مصيرية، يخبو شيئًا فشيئًا، إلى أن شعرت أنه لم يعد فيه سواي أنا وابنتي، قابعتَين في شرنقتنا الصغيرة الدافئة.

قلت لنفسي وأنا أضمها بقوة إلى صدري: «لا أستطيع خسارتها! لا أستطيع خسارتها مثلما خسرت أختها!».

في تلك الليلة حلمت بنفسي أنا والطفلة نقيم مع بيف وفيل في منزلهما.

لقد كانت ترغب في طفلة أو طفل على كل حال، فلمَ لا تختار تبني طفلتي؟

وعلى مدار ستة أسابيع، بينما كنت أعتني بطفلتي الثانية، أطعمها وأحتضنها وأدلِّلها، كان هذا الحلم يكبر ويزيد وضوحًا. عندما أدركت بيف ما يدور في ذهني، حاولت أن تفهمني أن هذا لن يحدث ببساطة.

أخبرتني أنها ناقشت الأمر مع زوجها:

- إن تبنينا طفلتكِ، فلن نتمكن من رؤيتكِ يا ماريان. هذا لن يعني أنكِ لن تستطيعي البقاء معنا لفترة أطول فحسب، بل أنكِ لن تستطيعي زيارتنا بعد ذلك أيضًا. هل تفهمين السبب؟

بيد أنني لم أكن أفهم شيئًا.

كنت أحب منزل بيف وفيل، بأثاثه الجميل والفوضى اللطيفة التي يتسم بها. لم تكن تلك الفوضى تُقارن ولو من بعيد بالقذارة التي يتسم بها منزل أبي، حيث اقتصرت على بعض المجلات الملقاة على طاولات القهوة، أو حذاء رقص ملقى في مكان ما بشكل عفوي بعد عودة الزوجين إلى المنزل من سهرة في الخارج. كانت الكتب مرصوصة في خزانة الكتب، والأواني الفخارية مرتبة بعناية في الخزانات، والرائحة الوحيدة في غرفة المعيشة كانت مزيجًا من الطعام المطهي وملمع الأثاث وعطر ياردلي المفضل إلى بيف.

كما أنني أحببت هذا الشعور الرائع الذي كنت أختبره للمرة الأولى في حياتي، الشعور بأن هناك من يرعاني ويهتم لأمري. على مدى الأشهر التي عرفت فيها بيف وزوجها، شعرت أنها -وإن لم تكن أمًّا لي- أصبحت أختًا كبيرة لي. وقد أرعبتني فكرة خسارة دعمها بشدة.

عندما أبصرت بيف العواطف المتضاربة تتصارع على وجهي، أمسكت بيدي بتفهم، وأوضحت بلطف السبب في توصلها إلى ذلك القرار.

أوضحت لي بلطف:

- نحن نريد طفلًا، طفلٌ لا يعرف سواي أمًّا له. إلا أننا إن تبنينا طفلتكِ فإن هذا لن يكون ممكنًا، ألست محقة؟ ستتمكنين من رؤيتها إن كنتِ تعرفين مكانها، هذه هي طبيعة الأمهات، وهذا لن يكون صوابًا يا عزيزتي. لن يكون هذا عادلًا بالنسبة إلى الطفلة كذلك، سيختلط عليها الأمر فيما يتعلق بوالدتها الحقيقية.

شرحت لي بيف بلطف أن خياري الآخر –محاولة الاحتفاظ بالطفلة– لم يكن واقعيًّا أو عادلًا بأي شكل من الأشكال.

حينما كنت في السادسة عشرة من عمري، لم تكن هناك إعانة ضمان اجتماعي أو شقق منخفضة الإيجار للأمهات العازبات. كان الطفل غير الشرعي يحمل وصمة هذا طوال حياته، بينما في حالة التبني، كان يتم التأكد من ذهاب كل طفل إلى زوجين مختارَين بعناية، يمكنهما منحه أفضل رعاية ممكنة. هذه هي الكلمات التي سمعتها من قبل، وفي أعماقي، كنت أعلم أن هذا هو الصواب.

طمأنتني بيف أن بإمكاني البقاء معهما بعد تبني الطفلة. لقد كانت تراني لا أزال صغيرة جدًّا، وأنني مررت بالكثير، ولست مؤهلة للعيش بمفردي. وقد اتفق زوجها معها في هذا الرأي.

بيد أنه كان هناك شرط وحيد لبقائي معهما، وهو أن أبدأ في إجراءات التبني.

# الفصل السادس والأربعون

كم كرهت الوجود في المستشفى! كنت محاطة بالعديد من الآباء السعداء الذين كانوا يعدون عدتهم للعودة إلى منازلهم بصحبة أطفالهم في نهاية المطاف. على الأقل في نزل الفتيات، كانت جميع الفتيات الأخريات في وضعي نفسه، يعشن مأساتي نفسها. بيد أنني في المستشفى كنت الأم الوحيدة غير المتزوجة، وبالتأكيد الفتاة الوحيدة تحت سن العشرين. لذا بعد بضعة أيام، وبمجرد أن أصبحت مستعدة، غادرت المستشفى وطفلتي بين ذراعي. صحيح أنني كنت أعلم كم سأتألم عندما أسلمها لوكالة التبني، إلا أنني شعرت أنني هذه المرة كنت أكثر استعدادًا من الناحية العاطفية، وقد ساعد دعم بيف على جعل الوضع أفضل عمومًا. إلا أنني كنت مصممة على قضاء تلك الأسابيع القليلة معها، تلك الأسابيع الثمينة التي يمكنني خلالها حفر تفاصيل ابنتي في ذهني؛ طباعها، ورائحتها، وملامحها، وصيحاتها الطفولية، والطريقة التي كانت تتطلع بها إليَّ.

كانت مثل أختها؛ طفلة لطيفة مهذبة، نادرًا ما تبكي، وتقرقر برضا عندما كنت أحممها وأغرق جسدها الصغير بالقبلات. كانت أصابعها الصغيرة تلتف حول أصابعي، وعيناها الجميلتان المبتسمتان تتطلعان إليَّ في براءة وفضول. وكما أخبرت أختها سابقًا، أخبرت طفلتي الصغيرة كم أحببتها، كم كنت أهتم لأمرها بما يكفي لإبعادها عني،

كي تتمكن من الحصول على حياة أفضل مع أبوين جديدين يمكن أن يمنحاها كل شيء تريده وأكثر.

وجاء اليوم الموعود أخيرًا، لكن في هذه المرة لم تكن هناك موظفة خدمة اجتماعية تتحدث معي بلطف. بدلًا من ذلك طلبت سيارة أجرة كي توصلني إلى وكالة التبني.

وعلى الرغم من أن بيف عرضَتْ عليَّ أن تأخذ إجازة من العمل لتذهب معي، فإني قد رفضت. مهما كنت أتألم، فإن ما أفعله كان لأجل ابنتي الصغيرة، ورغبت في أن أفعله بمفردي.

كنت قد اشتريت لها فستانًا جميلًا صغيرًا، بكمين منفوشين، مُزينًا بصفوف من الدانتيلا الملونة. كنت أرغب في أن تعرف الأم الجديدة أنني أحببت ابنتي، وأن تتأكد من هذا جيدًا. ففي حين كنت أجهل كل شيء عن الأبوين عدا أنهما كانا في وضع يسمح لهما بتوفير مستقبل مشرق لابنتي، كانا يعرفان كم كان عمري فضلًا عن بضع معلومات عن حياتي الخاصة. هذا وحده أخبرهما بكل وضوح بأنني لم أكن قادرة على الاحتفاظ بها.

عندما وصلت إلى هناك، حملت ابنتي بين ذراعي، واستنشقت للمرة الأخيرة عبيرها المميز، ثم سلمتها إلى الموظفة المختصة.

عندما مدت المرأة يديها إليَّ، رأيت أن طلاء أظافرها الأحمر كان مقشرًا قليلًا. وقد أزعجني هذا دون أن أعلم السبب. ثم انتبهت فجأة إلى أنها تحمل طفلتي، وأن ذراعيَّ أصبحتا خاليتين تمامًا، تعانيان آلام الخسارة الفادحة.

أعطيت المرأة التي تحمل ابنتي كل الألعاب والملابس، سواء تلك التي اشتريتها، أو التي قُدِّمت لي كهدية.

قالت باستخفاف:

- سيشتريان لها كل شيء جديد.

إلا أنها أخذت الأشياء مني على أي حال. كل ما قالته الموظفة بعد ذلك كان:

- سيتم الاتصال بك في الأسابيع القليلة المقبلة. هناك استمارات نهائية سيتعين عليكِ توقيعها.

ثم خرجت بابنتي من المبنى، متوجهة إلى سيارتها، بعيدًا عن ناظري إلى الأبد.

عدت إلى المنزل منهزمة مكروبة. ذهبت إلى المطبخ، وأعددت فنجانًا من الشاي، ثم جلست أتأمل الكوب بعينين ذاهلتين. لم أتمكن من تناول أي شيء، فيداي كانتا تستريحان فوق بطني، تتحسسان المكان الذي عاشت ونمت فيه طفلتي.

هذه المرة كان ما شعرت به أكثر من مجرد ألم، أكثر من مجرد فقدان، وأكثر من مجرد خسارة. كان الأمر كما لو أن جزءًا مني، ذلك الجزء الذي عاشت فيه طفلتان لمدة تسعة أشهر، قد تم تفريغه تمامًا، لأشعر بالحرمان والخواء إلى الأبد.

قلت لنفسي إن الدموع يمكنها الانتظار، إلا أنها لم تفعل.

# الفصل السابع والأربعون

في الأسابيع القليلة التي تلت يوم تسليم ابنتي للغرباء، كنت لا أُحتمل بأي شكل. لم أرغب في الأكل أو الاستحمام أو ارتداء ملابسي، لم أرغب حتى في النهوض من فراشي. عندما كنت أستيقظ في الصباح، كانت عيناي تذهبان إلى مكان مهد كاثي الصغير الذي كان بجوار سريري، والذي صار فارغًا الآن. كنت أستمع طوال اليوم إلى صوتها البريء المغرِّد، والآن لم أعد أسمع سوى الصمت. في كل مرة كنت أنسى فيها ولو للحظة أنها لم تعد في الغرفة معي، كان عليَّ أن أؤقلم نفسي مجددًا على حقيقة أنها ذهبت. ابتُليت أطرافي كافة بثقل عجيب، وسيطر عليَّ الذهول، ورزح جسدي كله تحت ألم الخسارة الرهيب الذي تلى حرماني من طفلتي.

لم أستطع أن أتقبل حقيقة أن ابنتيَّ كانتا في مكان ما في هذا البلد، ربما على بعد أميال قليلة لا أكثر، وأنني على الرغم من هذا لن أراهما مجددًا. كل ما كنت أعرفه حينذاك هو أنني أريدهما معي. تخيلت سونيا على الصورة التي يجب أن تكون عليها في ذلك الوقت، طفلة في الثانية من عمرها، يمكنها الكلام والمشي واللعب، ورأيتها بعين خيالي تنادي امرأة لم ألتقِ بها قط بــ: أمي.

ابتُلي ذهني بصورة أخرى خلال تلك الأيام الحزينة الموجِعة، كنت أتخيل امرأة تجلس في غرفة مطلية بألوان الباستيل، كانت الغرفة خافتة الإضاءة، تتطاير فيها ستائر بيضاء رقيقة مع النسيم الذي يهب برفق

من نافذة متسعة، وبالغرفة كان هناك سرير أطفال صغير أبيض، مغطى ببطانية من الصوف الناعم، وإلى جانبها كان هناك كرسي منجد بقماش من القطيفة الناعمة، تجلس عليه تلك المرأة، وتحمل بين يديها لفة صغيرة تطل منها ابنتي. راحت هذه المرأة تحتضن ابنتي بين ذراعيها، وتغني لها تهويدة ما قبل النوم.

بحثت عن وجه ابنتي في تلك الصورة، إلا أنني لم أستطع رؤيته قط. لم تكن هناك سوى دائرة فارغة في مكانه.

عندها، عندما أصبح الألم أكثر من قدرتي على الاحتمال، هربت إلى خيالي، حيث كانت لدي شقة أعيش فيها مع ابنتيَّ كلتيهما.

قلت لنفسي إنه إذا كان بإمكاني العثور على وظيفة بأجر أفضل، فربما يمكنني استعادة كاتي. إنني لم أوقِّع على النماذج النهائية، أليس كذلك؟ وإلى أن يحدث هذا، لم يكن بالإمكان المضي قدمًا في إجراءات التبني القانونية.

بمجرد أن كانت بيف تغادر للعمل، كنت أفحص أعمدة الوظائف الشاغرة في الصحف المحلية، وأرسم دوائر حول تلك التي تبدو واعدة منها، ثم أتصل بالرقم.

ومع تكرار الأسئلة نفسها حول سني، وعدد سنوات الخبرة في العمل، اعتدت الردود التي كانت تأتيني دائمًا. وسرعان ما فهمت أنهم كانوا يبحثون عن أشخاص أكبر سنًّا، وأكثر خبرة، وأفضل تأهيلًا، لكنني ظللت أتصل بكل رقم يعرض وظيفة خالية ذات أجر أعلى من الذي كنت أتقاضاه.

ملأت دفتر ملاحظات صغير بحساباتي. ولكن بغض النظر عن عدد المرات التي أجريت فيها تلك الحسابات، والتي كنت فيها أشطب وأكتب

وأعيد الشطب، فإنني عندما كنت أطرح مصاريف الإيجار من أجري المحتمَل، كنت أجد في كل مرة أن القليل المتبقي لم يكن يكفي حتى الطعام، وبكل تأكيد لم يكن يكفي لرعاية طفلتين.

تركتني بيف لحالي في تلك الأسابيع القليلة الأولى، ولكن في الأسبوع السادس جلست معي، وناولتني رسالة كانت كلتانا تعرف أنها جاءت من المحكمة.

سألتني:

- إنكِ لم توقعي على النماذج النهائية، أليس كذلك؟

أومأت برأسي شاعرة بالذنب.

قالت:

- عليكِ أن تقبلي الحقيقة يا ماريان. أعلم أنه لا يمكنني استيعاب ما تمرين به الآن يا صغيرتي، إلا أنني أعلم تمام العلم أنكِ ترغبين في أن تحصل ابنتكِ على أفضل فرصة ممكنة في الحياة، ألست محقة في كلامي؟

همستُ أعترف:

- بلى.

لم أرغب في سماع صوتي وأنا أقولها، أو الاعتراف بأن بيف كانت على حق.

عادت بيف تقول:

- حسنًا إذن، قومي بالتوقيع على الورق المطلوب. أعلم جيدًا ما تتمنين حدوثه يا ماريان، وثقي أنه لن يحدث أبدًا. فكري فيما تمر به المرأة المسكينة الأخرى، تلك التي انتظرت طفلتكِ

الصغيرة طويلًا، والتي يمكن أن تمنحها كل ما لا تستطيعين منحه لها. ليس من العدل أن تبقيها تنتظر مرعوبة من احتمال حرمانها منها. لا بد وأنكِ تعرفين هذا.

للمرة الأولى منذ أن عرفت بيف كنت أسمع هذه النبرة الصارمة في صوتها. واصلت المرأة إخباري أن الوقت قد حان لترك عالم الأحلام ومواجهة الحقيقة. كان عمري ستة عشر عامًا فحسب، وكانت حياتي كلها أمامي. لقد فعلت أفضل ما يمكنني فعله لأجل طفلتي.

ثم أضافت:

- إن ما فعلتِه ينم عن كثير من شجاعة يا ماريان. لا تريد معظم الفتيات اللاتي يقررن التبني رؤية أطفالهن بمجرد ولادتهم. إلا أنكِ اخترتِ أن تفعلي هذا بالطريقة التي تريدينها. هذا جعلكِ بالطبع تتعلقين بها، ما جعل الأمر أكثر صعوبة بكثير عليكِ.

كانت بيف على حق بكل تأكيد، ولكنها لم تكن تعلم أنني مررت بكل هذا من قبل. لكن حتى على الرغم من أنها لم تكن تجربة جديدة بالنسبة إليَّ، فإنني لم أكن لأتخيل إلى أي مدى سيصبح الأمر صعبًا على نفسي.

تابعت بيف تقول:

- إن الوقت قد حان لوضع كل هذا خلفك. لقد تحدثت إلى مديرة شؤون العاملات في المصنع. أخبرتها القليل عما مررتِ به، فأبلغتني أن عليكِ الذهاب لرؤيتها بمجرد أن تصبحي مستعدة. إنها مستعدة لمنحك وظيفتكِ القديمة. فمتى أخبرها أنكِ ذاهبة؟

قلت في النهاية:

- سأذهب بعد غد.

وفهمت بيف من هذا أنني سأذهب إلى دار البلدية حيث تنتظرني الأوراق الرسمية لأوقعها في النهاية.

وهنا رقَّ صوتها، وأمسكت بذراعي لتؤكد لي دعمها، ثم همست:

- هل تريدين مني أن آتي معكِ يا ماريان؟ يمكنني الحصول على إجازة إن كان هذا هو ما ترغبين فيه.

لكنني أخبرتها من جديد برفضي. كان هذا هو آخر شيء سأفعله من أجل كاثي، وكنت أرغب في القيام به بمفردي.

في ذلك الصباح استحممت وارتديت ملابسي بعناية. ارتديت جوربًا طويلًا، وأجدد ملابس حاكتها لي بيف قبل أن يزيد وزني مع الحمل: تنورة واسعة، وبلوزة بيضاء بلون القشدة. كان الزي، بعد مرور ما يقرب من عام، واسعًا عليَّ، فأنا لم أكتفِ بالرجوع إلى وزني الطبيعي بعد الولادة، بل فقدت الكثير من الوزن الإضافي.

قلت لنفسي إن هذا أمر خارج عن إرادتي، ووضعت حزامًا حول خصري لتصبح البلوزة أقل اتساعًا. غسلت شعري وجعدته، ثم وضعت مكياجي بعناية، وصرت أخيرًا على استعداد لاتخاذ الخطوة النهائية. في السادسة عشرة، كنت قد وعيت جيدًا الصورة التي يمكن أن يقدمها المكياج والملابس، وأننا يمكن بواسطتهما التعبير عمن نريد أن نكون عليه، ونحدد أي أثر نريد أن نتركه على من نلتقي بهم.

كانت المسافة قصيرة إلى محطة الحافلات، تلتها بضع دقائق في الحافلة، إلا أنني لا يمكنني الآن تذكر أي شيء عن تلك الرحلة. لا أذكر سوى إغلاق باب منزل بيف خلفي، ثم وجودي في دار البلدية. من المضحك أنني ما زلت أتذكر صوت نقر كعبي وأنا أسير فوق الأرضيات المبلطة، وكذا وجه المرأة التي كانت في منتصف العمر، والتي وجدتها

في الغرفة التي أخبرتني الرسالة أن أتوجه إليها. سألتني المرأة عن السبب الذي جئت من أجله. أخبرتها أنني كان عليَّ توقيع أوراق تبني.

«آه، نعم». كان هذا هو ردها اللامكترث بعد أن أعطيتها اسمي. بحثت المرأة في خزانة الملفات وقدمت لي النماذج المطلوبة.

قالت بصوت ضجِر وهي تقدم لي قلمًا:

- وقعي هنا، وهنا.

قلت لنفسي وأنا أتناول القلم من يدها الممدودة: أهذا هو كل شيء؟ أهذا هو كل ما يتطلبه الأمر؟ الجلوس لدقيقة مع امرأة غريبة غير مبالية، وتناول قلمًا بلاستيكيًّا رخيصًا، ووضع توقيعي في الأماكن المطلوبة في استمارة بائسة؟

هكذا وقعت على استمارة تقول إنني أتخلى عن جميع حقوقي في طفلتي، ولم يستغرق هذا أكثر من ثلاثين ثانية.

سمعت صوت المرأة الجالسة خلف المكتب يقول «شكرًا»، بينما كانت تضع الاستمارة في الملف. لم تنظر إلى وجهي مجددًا، فاهتمامها بي كان قد اختفى لحظة عودة الورقة إلى ملفها. ودون أن أنطق كلمة أخرى، استدرت وغادرت.

في اليوم التالي ذهبت إلى المصنع واستعدت وظيفتي القديمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# الفصل الثامن والأربعون

أمسكت بالرسالة مجددًا، ومررت أصابعي فوق الكلمات أملِّس عليها برفق. عندما قرأتها بتعجل في المرة الأولى، كنت أتساءل عما إن كان لا يزال بإمكاني الاحتفاظ بسري، لأن كاثي، طفلتي الثانية، كانت هي صاحبة الرسالة.

همست أقول: «لكنكِ تستحقين الحقيقة يا طفلتي. لديكِ كل الحق في معرفة أختكِ، وإن استطعتِ العثور عليَّ، فلعلها تعثر عليَّ هي الأخرى مثلكِ. إن التقينا، سيتعين عليَّ إخباركِ بالحقيقة».

في ذلك اليوم تحدثت إلى ابنتي كاثي كما لو كانت معي بالفعل، تجلس بجواري على الأريكة.

«إنني لن أتمكن من إخباركِ أن والدك كان صبيًّا هجرني وذهب إلى لندن، أليس كذلك يا كاثي؟ بالطبع سترغبين في معرفة اسمه، والمكان الذي عاش فيه، والعمل الذي قام به. سترغبين في تتبع أثره كذلك، ألست محقة في هذا يا بنتي؟ ولن أستطيع أن أخبركِ بأنني لا أعلم من كان والد أختكِ. إنكِ لن تصدقيني ببساطة». ولكن على أي حال، أهذه هي القصة التي أريد أن أرويها لابنتي؟ عدت بذاكرتي إلى الكذبة التي ألَّفتها وأنا في الثالثة عشرة من عمري، الكذبة التي كان لها الكثير من التداعيات.

شرد ذهني في أحداث الماضي، حتى وقعت عيناي على الصورة ذات الإطار الفضي على رف الموقد. كانت الصورة لي مع زوجي، وقد تم

التقاطها قبل بضعة أشهر فحسب. كنا في ذلك الوقت في عطلة مدتها أربعة أيام قضيناها في منطقة ليك ديستريكت احتفالًا بذكرى زواجنا.

كان زوجي قد أعد كل شيء كمفاجأة لي. وبمجرد أن انتهى من الترتيبات، قدم لي التذكرتين، وأبلغني بابتسامة مشرقة أنه حجز لنا في فندق أربع نجوم. وقد التقط أحد رفاقنا في الرحلة هذه الصورة، ولما عدنا إلى المنزل قررت وضعها في برواز جميل.

كان زوجي، بطوله البالغ مترًا وتسعين سنتيمترًا، يدرك إلى أي مدى يبدو عملاقًا إلى جواري بطولي الذي لا يتعدى مترًا ونصف. كان يحيطني بذراعه بحنان، وكنت أتطلع إليه بابتسامة عريضة كلها ثقة وسعادة وحب. أخذت أحدق إلى الصورة وأتذكر تلك الأوقات السعيدة، وإذا بي أرى وجهًا آخر يرتسم فوق وجه المرأة الناضجة التي أصبحت عليها في الصورة. كان وجهًا ذا ملامح بريئة حزينة، يتطلع إليَّ بعجز وقهر واضحين. أبصرت بعين خيالي الطفلة التي كنت عليها ذات يوم، طفلة مرعوبة وحيدة. وكان الرعب والوحدة هما ما جعلاني شديدة الضعف والتأثر منذ نعومة أظافري. انتفضت وأنا أتذكر أحداث الماضي، لكن سرعان ما أعدت ذهني إلى حاضري السعيد.

رحت أسترجع الأحداث السعيدة في حياتي، مثل تلك الليلة التي التقيت فيها بزوجي بوب، الرجل الذي نعمت في كنفه بالأمان بعد سنوات من الشقاء. مذ عدت إلى العمل بالمصنع، بدأ سيل من الفتيات القادمات من لندن يتدفق تدريجيًا في مصنعنا. وإن كانت تلك الفتيات قد سمعن بأي قصص تخصني، فإنهن لم يذكرنها قط. كانت أذهانهن منشغلة بأحدث الملابس التي يردن شراءها، وقاعات الرقص التي يمكنهن الاستمتاع بوقتهن فيها. أقنعتني مجموعة منهن بالانضمام إلى طاولتهن في حفل الرقص السنوي الذي تنظمه المؤسسة التي ننتمي إليها.

هتفت بيف مشجعة عندما رأتني على وشك الرفض:

- هيا يا ماريان. لقد حان الوقت لأن تبدئي في التعرف إلى الناس، والاستمتاع بوقتكِ. ما رأيكِ في أن أحوك لكِ زيًّا جديدًا؟ لقد اشتريت بعض الأقمشة الرائعة، وأقسم أنني سأصنع لكِ منها ثوبًا يدير رؤوس جميع الرجال.

كانت ماكينة الخياطة في مكانها المعتاد فوق الطاولة، وقد انتشرت حولها مجموعة من الأقمشة الجميلة من كل شكل ولون. ذكرني هذا بالأيام الخوالي. راحت بيف تقص وتخيط، مولية كامل تركيزها إلى عملها. كان المذياع يعزف أحدث أغنية في ذلك الوقت، وراحت بيف بشفتين محشوتين بالدبابيس تدندن مع الأغنية بمرح. شاهدتها تحوِّل القماش البسيط المصنوع من القطن إلى ثوب أنيق أستطيع أن أختال به في الحفل.

أعلنت بيف بمرح:

- لقد حان الوقت كي ترتدي شيئًا جديدًا وجميلًا يا عزيزتي.

وانطلقتْ بهمة تحوك فستاني الجميل الذي كان يشبه فساتين الأميرات، بصدريته الضيقة، وتنورته المنفوشة.

في حافلة صغيرة انطلقنا ذلك المساء. حينما وضعت قدمي في الحافلة كنت قلقة متوترة، ووجدتها نصف ممتلئة بالفعل بفتيات من كل صنف، يرتدين أثوابًا على أحدث صيحات الموضة. كانت جميع الفتيات عازمات على قضاء ليلة سعيدة. رحت أتطلع إليهن بفضول، وملأني الشعور بالامتنان لبيف الطيبة التي أبدعت في صنع ثوبي. لقد وجدت ثوبي جميلًا، لا يقل عن أثوابهن الفخمة شيئًا. استرخيت حينئذ، وجلست في مقعدي بثقة، أستنشق الهواء المعبأ بمزيج من عطور الفتيات

المتنوعة. عند وصولنا، تناهت إلى سمعي أصوات بخاخات مثبتات الشعر بينما كانت الفتيات يضعن اللمسات الأخيرة على وجوههن وشعورهن. كنا في العادة مجموعة صاخبة، بيد أنه مع زيادة الترقب والحماس، ارتفعت الضوضاء إلى مستوى أعلى بكثير. علت صيحاتهن وضحكاتهن المرحة، وهن يتحدثن بحماس عن توقعاتهن بخصوص الحفل، ببالٍ خالٍ من الهموم.

بمجرد أن وصلت الحافلة الصغيرة إلى وجهتها، هرعت الفتيات إلى الخارج. تقاطرت المجموعة عبر بوابة الفندق حيث تُعقد السهرة، حاملات حقائبهن الصغيرة الأنيقة، المزينة بالجواهر الزائفة المتلألئة.

بمجرد وصولي، قدم لي النادل مشروبًا زاهي اللون، رحت أرتشفه باستحسان، وأخذ توتري يتلاشى شيئًا فشيئًا.

تبعنا الوافدين عبر البهو، إلى أن دخلنا إلى القاعة، حيث رُصت طاولات طويلة بجوار بعضها بعضًا من أجل العشاء. في الطرف الأقصى من الغرفة كانت هناك حلبة رقص واسعة بالإضافة إلى منصة مرتفعة، كان من المقرر أن تعزف عليها الفرقة الموسيقية بمجرد انتهائنا من الطعام.

بعد أن انتهيت من طعامي، مالت إحدى الفتيات الجدد عبر الطاولة، وقالت:

- مرحبًا يا ماريان، هل تعلمين أنهم وضعوا أسماءنا في مسابقة أميرة الشركة؟

حدقت إلى الفتاة بعينين متسعتين من الذهول، ونظرت عبر الطاولة إلى حيث كانت تجلس بيف.

هتفت بيف ضاحكة:

- لا تلوميني. إن الرجال هم من وضعوا اسمكِ. لا علاقة لي بهذا الأمر من قريب أو من بعيد.

قُدم لي كأس جديدة من الشراب، فتجرعتها بعصبية. كانت فكرة السير رائحة غادية بدلال على حلبة الرقص، بينما أعين الجميع مسلطة عليَّ، تحثني على الركض إلى أقرب مخرج، والهروب إلى حيث لا يراني أحد. إلا أنني كنت أعلم أن هذا ليس خيارًا متاحًا أمامي. قامت الفتيات الإحدى عشرة الأخريات اللواتي تم اختيارهن للمشاركة بتشكيل صف واحد طويل، وما لبثت أن جذبتني إحداهن من ذراعي لأقف معهن.

هتفت فتاة شقراء جميلة:

- تشجعي يا عزيزتي، واستمتعي بالقليل من المرح.

راقبتها متوترة بينما كانت تسير على الحلبة متمايلة بدلال، وضجت القاعة بعدها بالتصفيق. ثم جاء دوري، قطعت حلبة الرقص بأسرع ما يمكنني، آملة ألا يشتعل خدي من شدة الخجل، وذهلت عندما سمعت المزيد من الهتافات والتصفيق. هذه المرة كانوا يهتفون ويصفقون لي أنا!

فازت الفتاة ذات الشعر الأشقر الجميل بالجائزة الأولى، بينما جئت أنا في المركز الثاني. كان وجهي يتضرج بالحمرة القانية وهم يعلقون شريطًا ورديًا حول رقبتي يحمل لقب الوصيفة، وضجت القاعة مجددًا بالتصفيق والتهليل.

ومع بداية العزف تقاطر الشبان عليَّ يطلبون الرقص. رقصت مع بعض الرجال الذين أعرفهم من العمل. وبينما كان المساء يشارف على نهايته لاحظت طاولة بعيدة قليلًا، يجلس عليها بضعة رجال أكبر سنًّا منا، ويتابعون ما يحدث على حلبة الرقص دون مشاركة. حدث شيء

شديد الغرابة حينها. سمعت الصوت الصغير في رأسي يقول: «اطلبي منه أن يرقص معكِ». لم أكن بحاجة إلى أن يخبرني الصوت أي واحد منهم كان يعني. كانت عيناي مثبتتين على الرجل ذي الشعر الداكن، ذلك الذي يشبه الممثل سيمون تمبلر، بطل مسلسل The Saint.

هتفت أنهر هذا الصوت قائلة: «مستحيل!»، إلا أنه استمر يلح عليَّ مرة بعد أخرى. شعرت عندها كما لو أن فتاة جريئة لا أعرفها قد استولت عليَّ. وسرعان ما وجدتني أقف أمامهم، وأبتسم للرجل ذي الشعر الداكن وأسمع نفسي أقول:

- هل ترغب في الرقص؟

قال برقة:

- لديكِ ابتسامة جميلة حقًّا.

ثم رأيته يهمس بشيء ما لصديقه وشعرت بوجهي يتضرج بحمرة الخجل. اكتشفت لاحقًا أن ما قاله لزميله كان: «راقب وجهها وأنا أحدثها».

نظر إليَّ الشاب نظرة طويلة مستحسنة، ثم ابتسم وقال:

- حسنًا، هيا لنرقص إذن.

ولما نهض من على مقعده، أدركت أنني كنت بالكاد أصل إلى خصره.

قال:

- أعتقد أنكِ ستحتاجين إلى الوقوف على قدمي إن فشلت بقية الطرق الأخرى.

تطلعت إليه فوجدته يبتسم لي مجددًا. أخبرته باسمي، فأعلمني أن اسمه بوب. سألني عن عمري. أجبت: «سبعة عشر»، واعترف أنه كان أكبر مني بثماني سنوات.

***

اصطحبني بوب معه إلى المنزل في تلك الليلة، وفي عصر اليوم التالي، ذهبنا في جولة معًا. لا أذكر إلى أين ذهبنا، إلا أنني أذكر جيدًا أننا لم نتوقف عن الحديث. كنا قد انسجمنا معًا لدرجة أشعرتني وكأنني أعرفه منذ وُلدت.

كانت بيف وفيل في المنزل عندما اتصل بي لأول مرة، ولما كانا حريصين جدًّا عليَّ، ويحاولان حمايتي بكل السبل، فقد عملا بشتى السبل على معرفة كل شيء يخصه.

هتفت بيف بابتسامة عريضة عندما كنا نتناول الشاي يوم الأحد:

- سأحتاج إلى حياكة المزيد من الملابس. ستكونين بحاجة إلى مزيد من الأثواب لتبدلي فيها إن كنتما ستستمران في الخروج بانتظام.

بعد تناول الشاي، أخذت أتحدث قليلًا مع بيف، وقد أخبرتني أنها وفيل يجدانه شابًّا لطيفًا. لكن لا أنا ولا بيف جئنا على ذكر الفكرة الوحيدة المقلقة التي لم تفارق ذهنينا قط.

عاجلًا أم آجلًا، كان عليَّ أن أخبر بوب بشأن كاثي، طفلتي المتبناة، وكنت مرعوبة حقًّا من هذه الفكرة. كانت هذه هي الغيمة الوحيدة التي تكدر عليَّ صفو تلك الأسابيع الأولى. كيف ستكون ردة فعل بوب عندما يكتشف أمر الطفلة؟ في كل مرة كنت أقابله كان تصميمي على الاعتراف له بكل شيء ينهار تمامًا. كنت في غاية السعادة وأنا معه، وخشيت أن

أفسد باعترافي كل شيء. كنت أعلم أنه يحبني ويعاملني كزهرة رقيقة. ماذا سيقول؟ ماذا سيفعل؟ كيف سيفكر بي حين يعلم؟

وذات ليلة، وبينما كنا نجلس ونتسامر في إحدى الحانات، عقدت عزمي على أن أخبره. اجترعت كأسًا من الجن والتونيك دفعة واحدة، وقبل أن يضع بوب كأسه على الطاولة، أنبأته أنني أريد التحدث معه في السيارة. عندما لاحت على محياه نظرة قلقة، أفهمته أن هناك شيئًا مهمًّا عليَّ أن أخبره به.

وقد قررت التمسك بالقصة نفسها التي أخبرت بها بيف، عن ذلك الفتى الذي هجرني وذهب للعمل في لندن.

عندما استجمعت شجاعتي في النهاية لإخباره بكل شيء، قال بوب بهدوء:

- أنا أعلم. كنت أعلم منذ المرة الثانية التي خرجنا فيها. الرجال يتحدثون يا ماريان.

كان يعلم كذلك أنني سأخبره بمجرد أن أصبح جاهزة، وكان ينتظر بصبر مجيء هذه الساعة. أخذ يدي الصغيرة بين يديه الكبيرتين الحانيتين، وضغط عليهما مطَمئنًا وداعمًا. نظر بوب مباشرة في عيني، وبدأ الحديث. أخبرني أن لكل شخص الحق في ارتكاب الخطأ مرة واحدة، كل إنسان يخطئ، كلنا عرضة لاقتراف زلة ولو لمرة. كان يعرفني بما يكفي ليثق بأنه يريد مني أن أصبح زوجة له. أكد لي بوب أنه يرغب في أن يعتني بي. كان يعرف القليل عما فعله أبي عندما اكتشف أمر حملي، وأخبرني أنه لن يسمح لأي شخص بإيذائي بهذه الطريقة مجددًا. أخبرني أن الشاب الذي فعل هذا بي قد فعل حسنًا بمغادرة المدينة، فإن كان هذا الشاب يعيش هنا، واكتشف بوب من هو، كان

سيحاول قتله في نهاية المطاف. لقد كنت دون السن القانونية، أليس كذلك؟ كنت عذراء قاصرة وساذجة تم استغلالها بأحط طريقة ممكنة، هذه هي الطريقة التي كان يراني بوب بها.

في ذلك اليوم، كان أهم شيء سمعته من بوب هو كلمة «الزواج».

كررت مدهوشة:

- الزواج؟

ولعلِّي بدوت أكثر ترددًا مما كان يرغب. أجاب:

- حسنًا يا ماريان، ربما كنت موهومًا، أو تصورت شيئًا غير حقيقي. لقد اعتقدت أنكِ تشعرين بشيء نحوي.

لم أستطع الرد سوى بكلمة واحدة، نطقتها متلعثمة:

- نعم.

لكن ما قصدته فعلًا هو أنني بالطبع كنت أشعر بالحب نحوه، وبالطبع كنت أرغب في الزواج به. أخبرني برغبته في مقابلتي لوالديه، وأكد لي أنهما سيحبانني دون أي شك. ثم أخبرني شيئًا آخر لم أكن راغبة في سماعه.

عبر بوب عن رغبته في الالتقاء بأبويَّ مثلما كان يرغب في أن ألتقي بأبويه.

في تلك الليلة، عدت إلى المنزل في غاية النشوة، وكأنني عصفور محلق في السماء. إلا أنني عندما أويت إلى فراشي، وتدثرت بأغطيتي، وحاولت النوم عادت إليَّ كلماته تهتف في أذني محذرة: «خطأ واحد».

وهنا قررت بأن هذا «الخطأ الواحد» هو كل ما كان سيسمح بوب به.

# الفصل التاسع والأربعون

علمت أن بوب سمع بشأن نوبات سُكر أبي وكذا بشأن شراسته وعنفه، إلا أن الشيء الذي كنت قلقة بشأنه فعلًا هو رأيه في المنزل الذي تربيت فيه.

وللإعداد لهذه الزيارة، ذهبت لرؤية أمي للمرة الأولى منذ طُرِدت من المنزل. وقد اخترت التوقيت يومها بمنتهى العناية، بحيث أذهب وأعود قبل أن يرجع أبي من العمل.

أنبأتني أمي أنها كانت تعرف بأمر بوب، حيث سمعت من أحدهم أنني أواعد شابًّا محترمًا، وأكدت لي كم كانت فرحة بهذا الخبر. لم تخبرني أمي من أين حصلتْ على هذه المعلومة، لكني تكهنت أن أبي كان مصدرها. كان أبي يرتاد الحانات نفسها التي يرتادها عمال المصنع.

أخبرتها أن بوب يعرف بأمر كاثي، وأن ذلك لم يمنعه من تقديم عرضه بالزواج. ثم أعلمتها بما طلبه مني، وهي رغبته في مقابلة أبويَّ.

سألَتْ أمي:

- وماذا عن الطفلة الأخرى؟ هل يعرف بوب بشأن ابنتكِ الأولى؟

تجهمت، وهززت رأسي نفيًا. ثم ناشدتها قائلة:

- أرجوكِ يا أمي! لا تحاولي إقناعي بأن أخبره بأمر كهذا!

التقت نظراتنا، وتابعت كلامي أقول وأنا أحدق إلى عينيها الكئيبتين:

- إن سمع بوب بهذا الأمر، سيرغب في معرفة الأب. بوب يعرفني جيدًا، ولن يصدق أنني كنت في الثالثة عشرة من عمري أعاشر الرجال من كل صنف لدرجة أنني لم أستطع تحديد من كان الأب. كان عمري وقتها ثلاث عشرة سنة يا أمي! سيطالبني بوب بإخباره باسم من فعل هذا بي.

أخفضت أمي بصرها، وتنهدت بقوة. وبعد أن صمتت هنيهة، أخبرتني أن أُحضر بوب معي عصر يوم السبت.

وأضافت موضحة:

- الأفضل أن تحضرا قبل أن يتاح لوالدكِ الوقت للذهاب إلى الحانة.

لقد رغبت حقًّا وصدقًا في أن أخبر بوب عن طفلتي الأولى. رغبت في أن أبدأ حياتنا الزوجية دون وجود أسرار بيننا، إلا أن عبارة «خطأ واحد» استمرت تتردد في أذني، وتثير الرهبة في نفسي. ثم حدث شيء جعلني أتوصل إلى قراري النهائي بشأن هذا الأمر.

في أحد الأيام، ظهر الجار أمامي فجأة. وكي أكون أكثر تحديدًا، جاء الجار يزورني في منزل بيف.

حدث هذا في يوم كانت فيه بيف وزوجها في العمل، وكنت في المنزل وحدي.

عندما فتحتُ الباب الأمامي أبصرت أمامي رجلًا كدت لم أميزه للوهلة الأولى. كان يقف أمامي متوسط الطول، أشد نحافة من ذي قبل، في ملابس رثة لدرجة أثارت تعجبي. كان قماش سترته يلمع، وربطة عنقه الرثة معقودة حول ياقة قميصه المجعد، وبنطاله متهدل حول ركبتيه. أما شعره الداكن فكان مسرَّحا للوراء، وقد وخطه الشيب بكل وضوح.

أخذت عيناه تتطلعان بصفاقة إلى ما وراء كتفي في محاولة لرؤية ما بداخل المنزل. بيد أن أول ما استطعت تمييزه من بين كل هذا كانت رائحته؛ كانت مزيجًا من البنزين وزيت الشعر ودخان السجائر.

هتف بابتسامة لزجة:

- مرحبًا أيتها السيدة الصغيرة. ألن تدعيني للدخول؟

كل ما رغبت فيه في تلك اللحظة هو أن أغلق الباب في وجهه، وأجعله يختفي من حياتي إلى الأبد.

قرأ الجار ما كان يعتمل بداخلي على وجهي بوضوح، ومد قدمه يضعها في المدخل، وابتسم ابتسامته الصفراء مجددًا.

- هيا يا ماريان قبل أن يشعر الجيران بشيء فتسوء سمعتكِ. نحن لا نرغب في شيء كهذا، أليس كذلك؟ وبخاصة بعد أن أصبحتِ فتاة محترمة مهذبة يُشهَد لها بحسن الخلق. الأفضل أن تسمحي لي بالدخول يا فتاتي، ألست محقًّا في هذا الكلام؟

فكرت في الرفض وصفق الباب في وجهه، ثم خطرت لي فجأة فكرة أفضل بكثير، فكرة قد تمنعه عن محاولة رؤيتي والتدخل في حياتي مجددًا. بدأت تفاصيل الفكرة تتكشف أمام ذهني. أخذت نفسًا هادئًا عميقًا، ثم تنحيت جانبًا أفسح له الطريق.

بمجرد إغلاق الباب سألته بصوت حاد:

- ماذا تريد؟

لكنني كنت أعلم الإجابة مسبقًا. لم يكن هناك سوى شيء واحد فحسب يرغب الجار فيه، الشيء نفسه الذي أراده مني دائمًا. إلا أنني لم أعد طفلة مذعورة وحيدة، أليس كذلك؟

- سمعتُ أنك ستتزوجين يا ماريان. أنا حقًّا سعيد من أجلك. وقد قلت لنفسي أن آتي إليكِ وأقدم لكِ التهنئة.

مد ذراعيه محاولًا احتضاني، فرجعت بسرعة إلى الوراء لتفاديهما.

هتف الجار يقول:

- ما الأمر يا عزيزتي؟ ألا تريدين تقبيل صديقك المميز القديم؟ لا تقولي إنك نسيتني بالفعل. لن أصدقكِ.

تراجعت إلى الخلف منكمشة على نفسي، ثم أخبرته بوضوح أنني أريده أن يغادر المنزل، وهددته بأن بيف ستعود في أي لحظة.

كان رده ببساطة:

- لا تكوني سخيفة يا ماريان، لم تكذبي عليَّ قط قبل هذا. أنا أعلم أنها الآن في وردية الصباح، ولن تعود قبل الثانية عشرة.

تطلع حوله بخبث، ثم سار بثقة إلى غرفة الجلوس، واستراح على الأريكة.

قال:

- لا أريد أكثر من حديث قصير.

تطلعت إليه بعصبية بينما كانت عيناه تتفحصان أرجاء الغرفة شبرًا شبرًا. واستطرد بعدها قائلًا:

- يا له من منزل جميل مريح ذلك الذي تعيشين فيه يا ماريان! ألا تتفقين معي؟

لم أجبه، وانتظرته كي يقول ما جاء ليقوله. سألني بالنبرة نفسها التي أتذكرها منذ أيام طفولتي:

- إذن هل يعرف حبيبكِ بأمركِ يا ماريان؟ أيعرف بأمر الطفلتين اللتين تخليتِ عنهما؟

وذكرتني هذه النبرة بالأوقات التي كان يخبرني فيها أنه الوحيد الذي يستطيع حمايتي.

صحت في وجهه:

- بالطبع يعرف بأمر كاثي. ألم أكن أعيش هنا في أثناء حملي بها؟

أجاب بابتسامة صغيرة صفراء:

- أتساءل عن القصة التي أخبرته بها يا ماريان، بالتأكيد لم تخبري الرجل بالحقيقة. (ثم صمت قليلًا وتابع) ألم أخبركِ عن أختكِ الصغيرة؟ لقد كبرت وصارت في منتهى الجمال!

تطلعت إليه بتقزز، ولكن سرعان ما طغت مشاعر الغضب على الاشمئزاز. اجتاحتني نوبة غضب مفاجئة لا أظن أنها ألمت بي من قبل.

قال:

- أراهن أن هذا الشاب المحترم الذي تفكرين في الزواج به لا يعرف كل شيء عنكِ. أراهن أنه لا يعرف مثلًا أنكِ لا تستطيعين تذكر أي وقت من حياتك كنتِ فيه لا تزالين عذراء.

وبمجرد خروج تلك الكلمات المقززة من فمه، عرف أنه أصاب الهدف، وندت عنه ضحكة قصيرة هازئة.

- اسمعي يا ماريان، إن كنتِ لطيفة معي، سأبقى صامتًا بشأن الطفلة الأخرى، وكم كان عمركِ وقتها.

ثم جلس متربعًا على الأريكة، والتوت قسمات وجهه في ابتسامة ظافرة. في تلك اللحظة انفجر غضبي جارفًا في طريقه كل الرعب والفزع الذي انغرس في قلبي مذ كنت طفلة صغيرة.

كذبت محاولة أن أبدو واثقة قدر الإمكان:

- أنت مخطئ في هذه النقطة. إن حبيبي بوب يعرف. أجل، إنه يعرف كل شيء. وهل تعرف ماذا قال؟ أكد لي بوب أن هذا ليس له أي تأثير على وعده بالزواج، فقد كنت طفلة غريرة ساذجة في ذلك الوقت. لكنك على الرغم من هذا محق في أنني كذبت. لقد كذبت عليه في شيء واحد فحسب. لقد أخبرت بوب أنني أنجبت طفلتي الأولى من صبي أكبر مني في المدرسة، والثانية من شاب كنت أواعده في الماضي. وهل تعرف ما قاله بوب بعد ذلك؟

لم ينبس الرجل الصغير الخسيس الجالس على الأريكة ببنت شفة. بدا وكأن الكلمات قد هجرته. وبشعور قريب من الانتصار، أجبت عن سؤالي بنفسي.

- لقد أخبرني أنه لا يريد أن يعرف اسم أي من هذين الشابين، لأنه إن عرفهما لن يكون مسؤولًا عما سيفعله، وبخاصة لمن تسبب في حملي وأنا غريرة في الثالثة عشرة من عمري. إن السر الوحيد الذي لم أخبره به هو اسمك، وإن كنتَ حريصًا على نفسك سيكون السر الوحيد الذي ستعينني على الحفاظ عليه.

كان جسدي كله ينتفض من الغضب وأنا أبصق تلك الكلمات في وجهه، وفرحت لما رأيت أنه استوعب كل كلمة قلتها. استطاع أن يفهم من ملامح وجهي أنه لم يعد لديه أي سلطة عليَّ. أخيرًا.

استطردت أقول:

- آه، ولعلمك، الأفضل لي ولك ألا أسمع بوجود صلة من أي نوع بأختي الصغيرة، فهذا قد يذكرني باسم معين، وقد أخبر بوب بهذا الاسم، وصدقني أنت لا تود له أن يعرف شيئًا عن هذا الاسم.

ظل يحدق إلى وجهي لعدة ثوانٍ بعينين ثاقبتين، ولم أحول نظراتي الغاضبة عن وجهه قط. وقفت أتطلع إليه بذقن مرفوع بثقة. بعدها، ودون أن يتفوه بكلمة واحدة إضافية، نهض الجار من على الأريكة، وتحرك نحو الباب، خارجًا من حياتي.

أتذكر أنني استندت إلى الباب بوهن بعد مغادرته، حيث كنت أحاول محاربة موجة الغثيان التي ألمت بي. ثم أدركت بعد دقائق أنني انتصرت.. انتصرت على الجار أخيرًا.

وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي تحدثت فيها إلى الجار.

# الفصل الخمسون

أخبرت بوب بشأن زيارتي لأمي، وأنبأته بأننا مدعوان لزيارة منزل والديَّ يوم السبت المقبل. منحني ابتسامة دافئة، وقال:

- خيرًا فعلتِ يا ماريان. والآن أريدكِ أن تحضِّري نفسكِ يوم الجمعة. خذي إجازة، ولا تضيفي اسمكِ في الورديات الإضافية خلال نهاية هذا الأسبوع، فهناك مناسبة خاصة خططتُ لها، مفاجأة بمعنى أدق.

سألته مدهوشة:

- ولكن ما هي؟

لم أكن أحب أن يخفي عني أحد شيئًا، ولم أكن أريد خسارة أجر يوم كامل ما لم يكن ذلك مهمًّا. إلا أن ابتسامة ماكرة تراقصت على شفتيه. طلب مني بوب أن أكون صبورًا، وأكد لي أنني سأعرف كل شيء في القريب العاجل.

ثم ختم كلامه بقوله:

- كوني جاهزة في التاسعة بالضبط، لأننا سنذهب إلى لندن.

وكان عليَّ أن أقبل بهذا الغموض مؤقتًا. وعلى الرغم من أن لندن كانت قريبة منا، فإنني نادرًا ما كنت أذهب إلى هناك، ووجدت نفسي متحمسة لتلك النزهة الغامضة كثيرًا.

في صباح يوم الجمعة، استيقظت، وارتديت ملابسي على عجل، وكنت جاهزة لنزهتي المرتقبة حتى قبل أن تستيقظ بيف أو زوجها.

أخبرني صوتي الداخلي أنه بغض النظر عما خطط له بوب، فإنه سيكون شيئًا مميزًا.

قطعنا جزءًا من الطريق في السيارة إلى أن وصلنا إلى محطة مترو الأنفاق، وهناك أوقفنا السيارة، وأخذنا المترو إلى لندن. لم تكن ساعة ذروة، إلا أنني كنت أقبض على يد بوب بإحكام بينما كنا نشق طريقنا عبر الحشود. وبعد نصف ساعة تقريبًا وصلنا إلى حديقة هاتون.

سألني بوب:

- ألم تأتِ إلى هنا من قبل؟

ثم تعالت ضحكاته عندما أخبرته أنني لا أعلم أين نحن من الأساس. أخذني من ذراعي إلى أن وصلنا إلى متجر صغير. دق الجرس ففتح الباب رجل عجوز في ملابس سوداء.

قال بوب وهو يحثني على الدخول:

- إن أردنا أن نلتقي بوالديكِ، أعتقد أنه من الأفضل أن يكون لديكِ شيء تريهما إياه، ألست محقًّا في هذا؟

وسرعان ما وجدت نفسي أجلس في متجر الجواهر، تُعرض عليَّ خواتم الزواج على كل شكل ولون.

كنت عاجزة تمامًا عن الكلام. لم يخطر على بالي أمر الخاتم قط. كانت مجرد حقيقة أن بوب يرغب في الزواج بي أكثر مما حلمت به طوال حياتي.

جربت واحدًا تلو الآخر. كانت كلها جميلة، وبدا كل واحد لي أجمل من الذي يسبقه. ولكن فجأة لفت انتباهي خاتم مختلف تمامًا. كان خاتمًا بسيطًا من الذهب مزينًا بأحجار صغيرة من الألماس. وضعت الخاتم في إصبعي، وسرعان ما أصابني الإحباط لما وجدته أكبر من مقاسي بكثير.

إلا أن الصائغ أكد لي مبتسمًا:

- إن كان هذا هو ما يعجبك، فيمكنني تصغير حجمه. لا تقلقي.

شعرت بابتسامة عريضة ترتسم على وجهي عندما أكد لنا أنه سيكون جاهزًا في غضون ساعة.

قال بوب:

- هيا بنا إذن يا ماريان، فلنشاهد معالم المدينة خلال هذه الساعة، وبعد ذلك يمكننا العودة إلى هنا لأخذه.

رحنا نتجول في الشوارع، ونتفرج على بعض الكنائس القديمة ذات الطراز المعماري الرائع. شعرت كأنني أحلق في الهواء من شدة السعادة. عدنا بعد مرور الساعة، وجربت الخاتم مجددًا. كان قد أصبح مثاليًّا، يناسب إصبعي الرفيع تمامًا، ويبرز جمال يدي الصغيرة.

خلع بوب الخاتم من يدي، وهتف ضاحكًا:

- ليس هنا! ليس بعد!

وأعاده إلى علبته المخملية، ووضعه بأمان في جيبه. وجدنا مطعمًا صينيًّا مريحًا في ذلك الحي، وذهبنا إليه طلبًا للغداء. وهنا أخرج بوب الخاتم من علبته، ووضعه رسميًّا في إصبعي. شعرت أنني أكاد أجن من الفرح.

أعلن بوب بعد انتهائنا من الغداء:

- سنذهب لزيارة أهلي هذا المساء. يريد أبي وأمي الاحتفاء بنا.

أخافتني الفكرة. لم أكن قد التقيت بأبويه اللبقين المهذبين سوى مرة واحدة فحسب. فكرت في المنزل الكبير الذي نشأ فيه، بأثاثه المريح، وصوره العائلية المؤطَّرة في براويز من الفضة، ولوحاته الأنيقة المعلَّقة على الجدران، ورفوفه الخشبية الزاخرة بالكتب، ثم تراءت لي صورة منزل أبي.

وكما لو كان يقرأ أفكاري، شدد بوب قبضته على يدي، وقال:

- إننا سنتزوج يا ماريان، وستسعد أمي كثيرًا بفكرة استقراري. توقفي عن القلق لو سمحتِ.

وقد كان محقًّا. استقبلنا أبواه عند الباب بابتسامة مرحِّبة، ونال خاتم خطبتي إعجابهما، وأثنيا عليه كثيرًا. صافح بوب يد والده بطريقة رسمية إلى حد ما، إلا أن والدته شبت على أطراف أصابعها، واحتضنت ابنها وقبلته بحرارة وافتخار. ثم انتقلت إليَّ، وقبلتني بحرارة على خدي. وقد رأيت الدموع تترقرق في عينيها عندما فتح والده زجاجة من الشمبانيا كي نشرب نخب زواجنا. ألقى والد بوب خطابًا رسميًّا صغيرًا يعبر فيه عن مدى سعادته بانضمامي إلى عائلتهم.

وبالكاد استطعت النوم في تلك الليلة من فرط الإثارة. هتفت من قلبي وأنا أتطلع إلى السماء:

- يا رب! أتوسل إليك يا إلهي أن تحفظ لي بوب، وألا تدع أي شيء يفسد علينا هذه السعادة.

جاء اليوم التالي؛ يوم السبت المنتظَر. توجهنا أنا وبوب إلى منزل أبي لتناول الشاي. وفي الطريق، رحت أدير خاتم الخطبة في إصبعي بعصبية مرارًا وتكرارًا. إن كان بوب قد لاحظ شيئًا، فإنه لم يعلق. طفق بوب طوال الطريق يحدثني عن المكان الذي سنعيش فيه عندما نتزوج. أعلن بتصميم:

- الشراء أفضل من الإيجار.

ووافقته على كل ما قاله، ورحت أومئ برأسي بحماس.

وصلنا إلى منزل والديَّ في وقت أسرع من اللازم. كانت معدتي متشنجة تمامًا. شعرت بالغثيان يسيطر عليَّ وأنا أتذكر تفاصيل

آخر مرة رأيت فيها أبي. سألت نفسي كيف سيرحب بقدومنا؟ وكيف سيتعامل مع بوب؟

دُهِشت عندما وجدت أن أبي هو من فتح الباب، وأنه مد يده ليصافح يد بوب بكياسة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثم قال بترحيب:

- هيا ادخلا.

وأدركت أنه تناول القليل من الخمر، ما يكفي منها لتحسين مزاجه على الأقل. أعلن أبي:

- لن أشرب شايًا ونحن نحتفي بتكريم ابنتنا الغالية لنا بهذه الزيارة.

وذهب ليحضر زجاجتين من البيرة، قدم إحداهما لبوب. ثم سكب كوبين من نبيذ الكرز الحلو لي ولأمي. أعلن أبي عن سعادته بخبر زواجنا، وأبدى إعجابه بالخاتم. كنت أعلم أنه يفكر في ثمنه وليس في شكله الجميل على إصبعي. أظهرت أمي القليل من التأثر، وأومأت باستحسان، إلا أنني شعرت بتوترها يأكلها من الداخل.

سألتُ:

- أين إخوتي وأختي؟

فأخبرتني أن الكبار كانوا في منزل صديق لهم، والأصغر كان في منزل دورا.

وعندها تطلع أبي إليَّ، ورأيت آثار المرح تتلاشى من فوق وجهه، فأعددت نفسي لما لا أستطيع منه فرارًا.

- إذن يا ماريان، ماذا أخبرتِ خطيبكِ بخصوص الطفلة؟

عم الصمت الغرفة لبضع لحظات. تتابعت في رأسي صور شنيعة: أبي يخبر بوب عن ابنتي كلتيهما، وبوب يطلب مني إعادة خاتمه.

لكنني فجأة سمعت صوت بوب يتحدث بهدوء لكن بمنتهى القوة والثبات.

أجاب بوب عن سؤال أبي بنفسه قائلًا:

- اسمع، أريد أن أوضح لك أمرًا مهمًّا؛ أنا لست مهتمًّا بشأن ماضي ماريان. الشيء الوحيد الذي يهمني هو مستقبلنا معًا. إنها المرأة التي أحبها، وأريد أن أتزوجها، وسنقوم بذلك بمباركتك أو دونها. كل ما أريده أن أقدرها حق قدرها، وأعتني بها لبقية حياتي.

ثم نهض بجسده فارع الطول، وذهب إلى حيث كنت جالسة، ووضع ذراعه حول كتفي ليعلن دعمه وحمايته لي، وتطلع إلى أبي بعينين جادتين خاليتين من الابتسام.

وتابع:

- لذا لا داعي لإزعاجها أو...

وهنا توقف مؤقتًا محاولًا منح كلماته تأثيرًا أكبر، ثم قال:

- الحديث عن هذا الموضوع مجددًا.

بعد أن انتهى بوب من كلامه، كانت دموع الحب والعرفان قد تجمعت في عينيَّ. قلت لنفسي حينها: «يا إلهي! ما الذي سيقوله أبي الآن؟»، إلا أن أبي لم يقل شيئًا، ولم يخاطر قط بعدها بإثارة غضب بوب عبر طرح هذا الموضوع مجددًا. التفتُّ إلى بوب ونظرت إليه هامسة:

- شكرًا.

كانت هذه هي آخر مرة تحدث أحد فيها عن حياتي الماضية.

وتزوجنا بعد مرور ثمانية أشهر.

# الفصل الحادي والخمسون

بعد بضعة أسابيع من زيارتنا لهاتون جاردن والخطبة الرسمية، أعلن بوب أن لديه مفاجأة أخرى لأجلي. أخذني في سيارته في عصر أحد الأيام بعد انتهاء العمل، وسرنا في طريق لم أستطع التعرف عليه. وقف بوب أمام منزل من طابق واحد، وقد عُلقت في حديقته الأمامية لافتة تقول «للبيع».

تطلعت إليه باستغراب فأخبرني أنه قدم عرضًا لشرائه، وأن كل شيء مرهون بموافقتي. فإن كنت متأكدة من أنني أريد أن يكون هذا المنزل منزلنا، فإنه سيمضي قدمًا ويشتريه.

أضاف بوب:

- إنه يحتاج إلى القليل من التعديلات يا ماريان، لكن يمكننا القيام بذلك معًا في عطلة نهاية الأسبوع. إذا قمنا بالرسم والتزيين معًا فسيكون ذلك أمرًا ممتعًا، أليس كذلك؟ كما أنني أفهم قليلًا في النجارة، لذا أستطيع صنع خزانات ومطبخ جديد كذلك إن كنتِ ترغبين.

تجولنا في الغرف، وبدأت أتخيلها مطلية بألوان فاتحة وزاهية، مع ستائر جميلة فوق النوافذ.

ستتولى بيف مسألة حياكة الستائر طبعًا، وبدأت أتخيلها وقد عُلقت بالفعل.

بمجرد حصولنا على المفاتيح، بدأنا نقضي معظم أمسياتنا ونحن نعمل في المنزل. تولى بوب الأعمال الشاقة مثل صنفرة الأثاث الخشبي، وصنع الخزانات المطلوبة، وساعدته أنا في طلاء الجدران والفرك، ثم قمنا معًا بتلميع الأرضيات الخشبية الجميلة. ثم قررنا أننا سنقضي شهر العسل في منزلنا، رغبنا في أن يكون كل شيء جاهزًا بحيث نستطيع الانتقال إلى المنزل مباشرة في اليوم الذي سنتزوج فيه.

أخبرني بوب أنه لا يحبذ فكرة الأقساط، وأصر على أنه لا يرغب في بدء حياته الزوجية مديونًا، بصرف النظر عن الرهن العقاري طبعًا. وبما أننا كنا سندفع تكاليف زفافنا بأنفسنا، فإننا قد قررنا الزواج في السجل المدني عوضًا عن الكنيسة.

كان والدا بوب يشعران ببعض من خيبة الأمل، بسبب رفضنا إقامة حفل زفاف كبير في الكنيسة. إلا أنهما فهما أن أبويَّ لم يكونا في وضع يسمح لهما بالدفع مقابل ذلك. عرضا أن يكسرا هذا التقليد، إلا أنني أنا وبوب صممنا على دفع تكاليف حفل زفافنا بأنفسنا، فكلانا كان يعمل على أي حال. عندما شرحنا هذا لهما أعلنت والدته ضاحكة أنها زرعت القرنفل في اليوم نفسه الذي أخبرناها فيه بخبر زواجنا، وأن الزهور ستكون جاهزة لتزيين بزة العريس في يوم الزفاف.

أما والده فأعلن ببساطة أنه صار يعرف ما سيفعله في عطلات نهاية الأسبوع خلال الفترة القادمة، وهو مساعدتنا في تجهيز المنزل وإعداده بكل وسائل الراحة لقضاء ليلة زفافنا في هناء.

اشترينا الأثاث الجديد مفككًا، وبدأنا تجميعه في عطلات نهاية الأسبوع. كما جئنا بأبواب جديدة لخزانات المطبخ، والتي كانت مطلية بالأبيض اللامع، بدلًا من الأبواب القديمة ذات الطلاء الأخضر المتقشر. ثم

قمنا بتركيب بلاط جديد أبيض اللون في الحمام. واستطاعت بيف خلال نفس الوقت حياكة ستائر متطابقة لكل غرفة. قالت عندما شكرناها إنها «هدية زفافنا». أوكلت إليَّ مهمة اختيار الأقمشة وألوان غرفة نومنا بعد أن حكيت لبوب ذات مرة أنني طالما حلمت بأن تكون لي غرفة نوم خاصة بي حينما كنت أعيش في منزل أبي في الماضي.

هتف يومها ضاحكًا:

- اختاري ما تشائين إذن يا ماريان. كل ما أتمناه هو ألا تمانعي مشاركتي إياك في غرفة النوم!

احمر خداي خجلًا حينما فكرت في ليلة زفافنا.

قررت طلاء الجدران باللون الكريمي الفاتح، وكانت الستائر فوق النوافذ باللون الأزرق الفاتح. كما مررت على متجر «هابيتات» الذي كان قد افتُتح حديثًا في لندن، ومن مدخراتي اشتريت لحافًا وبعض الأغطية والملاءات والوسادات، والتي كانت كلها باللونين الأزرق والأصفر. ستكون إضافة مثالية تكمل أناقة غرفة نومنا، كما هو الحال مع سريرنا الجديد المصنوع من خشب الصنوبر، والذي قدمه لنا والدا بوب كهدية زفاف.

مرت الأسابيع سريعًا ونحن نجهز المنزل. احتفلنا بعيد الميلاد، وبعده حان الوقت لوضع الخطط النهائية لحفل الزفاف.

كانت ابنة أخت بوب وأختي هما وصيفتا الشرف، ومرة أخرى ساهمت بيف بحياكة ثوبين لهما من المخمل الأزرق، مزينين بالفرو الأبيض.

كنت أبحث في المتاجر بالفعل عن ثوب زفافي، وأخيرًا وجدت الشيء المناسب؛ ثوب كريمي اللون يصل إلى الركبة، وفوقه جاكت من الستان الناعم.

وأخيرًا، في منتصف شهر فبراير، حل أهم أيام حياتي. استيقظت مع بزوغ الفجر لأستعد. وضعت مكياجي بعناية بمساعدة بيف، ثم بدأت

في فك الكرات التي لففت عليها شعري بعد غسله في الليلة السابقة. ثبَّتُّ زهرة بيضاء كبيرة في شعري، وأخذت أرفل في ثوبي فرِحة. وأخيرًا، وضعت قدمي في حذاء أبيض ذي كعب عالٍ، وصرت مستعدة.

ذهبنا أنا وبوب في سيارته إلى السجل المدني. كان قد أخبرني في الليلة السابقة:

- إنه اليوم الذي سنبدأ فيه رحلة حياتنا معًا، رحلة أتمنى أن تستمر إلى آخر العمر.

عندما وصلت السيارة، خرج بوب أولًا ومد يده إليَّ لمساعدتي، فابتسمتُ له ابتسامة عريضة. تطلعت إليه بانبهار وأنا أرى كم كان يبدو وسيمًا بشعره الداكن الأنيق وقد مُشِّط إلى الخلف، وكتفيه العريضتين اللتين كانتا تملآن سترة بذلته.

أمسكت باقة الزهور البيضاء الصغيرة بين يديَّ، وحاولت أن أوقفهما عن الارتجاف من فرط التوتر والإثارة، وسرت أنا وبوب يدًا بيد إلى مكتب السجل المدني. كنت لا أزال غير قادرة على تصديق أن هذا اليوم قد حل أخيرًا.

مع مرور السنوات، مُحيَت الكثير من تفاصيل يوم زفافي من ذهني، ولم يبق سوى غيمة من ذكريات هذا اليوم السعيدة. لقد غلبتني في ذلك اليوم مشاعري، واشتدت إثارتي وحماسي، حتى إنني بالكاد استطعت النطق باسمي أمام الموثِّق. أتذكر قبلات أصدقائي، وابتسامة بوب وهو يناديني بالسيدة مارش.

تركنا أنا وبوب السجل المدني يدًا بيد، منطلقين تحت نثار من القصاصات الملونة إلى حيث تنتظرنا سيارتنا. كان والدا بوب قد حجزا

مطعمًا لأجلنا نحن والأصدقاء، وعلى هذا انطلقت المجموعة الصغيرة التي حضرت عقد الزواج لتناول الغداء معنا.

وقد أسعدني في ذلك اليوم أن أرى أبويَّ وقد بذلا جهدًا خاصًّا ليبدوا في أفضل حُللهما. كانت أمي ترتدي ثوبًا جديدًا وترفع شعرها في كعكة أنيقة، بينما ارتدى أبي قميصًا أبيض تحت سترة مناسبة، وإن كانت أضيق من اللازم.

لا أتذكر الآن ما تناولناه على ذلك الغداء. ما أذكره هو صب كؤوس الشمبانيا، وشرب نخب سعادتنا. وبعد أن استمعنا إلى خطبة إشبين العريس، وضحكنا جميعًا على نكاته، انتهت العزومة بسرعة، وعدنا إلى منزلنا.

كان الأصدقاء قد رتبوا لإقامة حفل صغير في أثناء وجودنا في السجل المدني وتناول الغداء. كل ما كان عليَّ فعله حين عدتُ هو تغيير ملابسي، والنزول إلى الحفل، الذي بدأ بمجرد أن قرع الضيف الأول الجرس. تقاطر الأصدقاء صديق إثر صديق يحملون هدايا الزفاف، والتي اشتملت على عدد هائل من الأدوات المنزلية التي تكدست في غرفة نومنا الاحتياطية، وأكدت لي أننا لن نكون بحاجة إلى التسوق لشراء الأطباق الصينية، أو الأواني المنزلية، أو المناشف لفترة طويلة جدًّا.

أحضر الأصدقاء أسطوانات الأغاني، وسرعان ما صدح صوت «ألفيس بريسلي» بأحدث أغنية له «إما الآن وإما أبدًا»، ثم تبعته الفرقة الجديدة وقتها رولينج ستونز بأغنيات ذات إيقاع أسرع. مع تقدم الوقت صارت الأغنيات أهدأ وأهدأ، إلى أن رقصنا أنا وبوب على أغنية «الرقصة الأخيرة» لفرانك سيناترا.

وتدريجيًّا غادر أصدقاؤنا إلى أن أصبحنا وحدنا تمامًا في منزلنا الجديد. كانت المدفأة مشتعلة، والستائر الجديدة مسدلة عازلة إيانا عن العالم. كما أخبرني بوب سابقًا، كان ذلك اليوم هو بداية رحلتنا الطويلة معًا.

على مر السنوات أصبح زواجنا شراكة متينة، نتخذ فيها كل قرار بشكل مشترك، ونقرر المكان الذي سنقضي فيه عطلاتنا معًا، وبعد ولادة ابنينا، بدأنا نتشارك رعاية الطفلين. لقد كان زواجًا مثاليًّا؛ زواجًا مبنيًّا على الحب والثقة، لم يفسده عليَّ سوى السر الذي خبأته في قلبي لسنوات عديدة. في كل عيد ميلاد عندما كنت أتطلع إلى وجهي ابنيَّ السعيدين، كنت أعود وأتذكر ذلك العيد الذي جلست فيه بصحبة مجموعة من الفتيات البائسات، اللاتي كن يحملن أطفالًا لن يعيشوا معهن، وكنا نحاول معًا التظاهر بأننا جزء من عائلة واحدة كبيرة.

آه.. كم كنت أتوق إلى إخبار بوب! إلا أنني لم أجد في نفسي الشجاعة الكافية قط للاعتراف له بأنني لم أرتكب خطأً واحدًا فقط.

هتفتُ أحدث ابنتي الغائبة:

- والآن ها أنتِ ذي تكتبين لي.

لقد توقعت مجيء مثل هذا اليوم مذ تغير القانون، وسمح للأطفال المتبنين بتتبع آبائهم الحقيقيين بمجرد بلوغهم الثامنة عشرة. همست أحدِّث غرفة المعيشة الفارغة بأفكاري الحزينة. كنت أعلم أنني وصلت في النهاية إلى اليوم الذي لم يعد من الممكن فيه تأجيل قراري بشأن ما عليَّ فعله. فكرت في سنوات الزواج السعيدة التي عشتها. رأيت بعين خيالي ولديَّ يتطلعان إليَّ بحيرة ولوم، ولداي اللذان صارا رجلين بالغين الآن، فارعَيْ الطول مثل والدهما بالضبط.

فكرت حينها أنني لم أخدع زوجي كل تلك السنوات فحسب، بل خدعت ابنيَّ الغاليين كذلك.

# الفصل الثاني والخمسون

التقطت ظرفًا آخر من على طاولة القهوة. في داخل ذلك الظرف كانت هناك رسالتان لم أبعث بهما إلى صاحبتيهما. لقد كتبتهما في الوقت الذي تغير فيه قانون التبني. خصصت كل ابنة من ابنتَيَّ برسالة، أخبرها فيها كم أحببتها، وأؤكد لها أنني لم أنسها قط، أو أتوقف لحظة عن افتقادها.

كتبت أقول: «إن قررتِ في يوم من الأيام أن تجديني، فهلا جلبتِ صورِكِ معكِ؟ أريد أن أعرف منها كيف عشتِ سنوات عمركِ الماضية، تلك السنوات التي حُرمت من رؤيتها بأم عيني. اجلبي معكِ يا بنتي جميع صورِكِ، تلك التي التُقطت لكِ وأنت رضيعة، وتلك التي أخذوها لكِ وأنتِ طفلة تحاول تعلم المشي. أريد أن أرى كيف بدوتِ في أول أيامكِ في المدرسة، أن أقرأ بعض تقاريرك كي أكتشف ما إن كانت لديكِ أي من اهتماماتي. إن أبويك، اللذين تناديهما بأمي وأبي، لديهما تلك الذكريات محفورة في ذهنهما بالفعل، أما أنا فلم أركِ مذ كان عمركِ بضعة أسابيع. يمكن لأبويكِ أن يستعيدا ذكرياتكم كلما رغبا، ويسترجعا جميع اللحظات السحرية؛ فيبتسمان على البعض ويضحكان على البعض الآخر. لا أريد سوى استعارتها يا بنتي، لا أرغب في أكثر من التظاهر بأنها ذكرياتي عنكِ، ولو لبعض الوقت».

مرت الساعات دون أن ألحظ أن النهار ينقضي. لم أدرك أن الوقت قد تأخر إلا عند سماع صوت الباب وهو يُفتح، والذي تبعه صوت زوجي يناديني. وبعد لحظات وجدت بوب يقف أمامي في غرفة الجلوس.

سأل في اللحظة التي رآني فيها راقدة بوهن فوق الأريكة:

- ما الأمر يا ماريان؟ ماذا حدث؟

سمعت القلق واضحًا في صوته، وانهرت حينها. سالت دموع الذنب والعار على وجهي دون توقف. ثم رفعت ذراعي أناوله الرسالتين اللتين كتبتهما.

قلت:

- اقرأهما من فضلك.

ساد صمت لبضع دقائق في المنزل، لا يقطعه إلا حفيف الورق.

هتف بوب بعدها يقول:

- أكان لديك ابنتان؟ اثنتان لا واحدة؟!

أدركت حينها أن صوته كان حزينًا أكثر منه غاضبًا، لكنني كنت لا أزال غير قادرة على التطلع إليه.

عاد يقول مذهولًا:

- ثلاثة عشر! كنتِ في الثالثة عشرة من العمر ومررتِ بهذا الجحيم؟ لمَ لم تخبريني؟ لماذا يا ماريان؟!

أخبرته أنني كنت أشعر بالعار من الماضي، أنني لم أتوقف عن الشعور بالعار مذ كنت في الثامنة من عمري. وعندئذ، وللمرة الأولى في حياتي، قصصت على بوب قصة طفولتي بالكامل مع الجار. وبينما كنت

أقص على زوجي أحداث الماضي المؤلمة، كان غضب بوب يتعاظم حتى كاد يملأ الغرفة بأكملها. كنت أجلس منكمشة عند زاوية المقعد.

راح بوب يطرح عليَّ الأسئلة، ويستوضح بعض الأمور، إلى أن أنهيت القصة كلها أخيرًا.

صاح عندما علم أن جارنا هو والد الطفلتين:

- الملعون! الوغد الملعون!

وأضاف في النهاية:

- ربما كنتِ محقة بعدم إخباري بأي من هذا! لو كنت أدري بهذه الفعلة الشائنة فالله وحده يعلم ماذا كنت سأفعل بهذا الوغد.

طمأنني تدريجيًّا بأن غضبه كان بسبب ما حدث لي، وأنه ليس غاضبًا مني على الإطلاق. كان يشعر بالأسف الشديد، الأسف على أنني حملت هذا العبء وحدي طوال هذه السنوات.

قال بوب أخيرًا في أثناء ما كان يراقبني وأنا أبكي على الماضي والمستقبل:

- استمعي لي يا ماريان، إنك لم ترتكبِي أي خطأ! كنتِ طفلة فحسب. ربما في أعماقكِ كنتِ ترين أن ما يحدث كان خطأ، إلا أنكِ لم تستطيعي فهم السبب. لا يمكن لأي طفل أن يستوعب شيئًا كهذا. يا إلهي! كم كنتِ مرعوبة وقتها! كم كنتِ ملتاعة القلبِ ووحيدة! ثم إن والديك لم يفعلا شيئًا لإيقافه! إن أباكِ مجرم حقًّا. أقسم أنه لو فعل أحدهم هذا بابنة لي لقتلته على الفور.

وعندها عرضتُ على بوب رسالة ابنتي كاثي.

تحدثنا طوال ذلك المساء. وسألته عن ردة فعل ولدينا في رأيه.

كانت إجابة بوب واضحة وقاطعة:

- لقد اختلف الزمان وتغيرت الأفكار يا ماريان. أنتِ أمهما، وهما يحبانكِ بقدر ما أحبكِ. لا شيء سيغير هذا. سندعوهما في نهاية هذا الأسبوع ونخبرهما معًا. ما رأيكِ؟

وبعد أن انتهى بوب من طمأنته قبَّلني، فأحسست بدفء جسده وروحه يعيد لي شعوري بالأمان من جديد.

ثم أضاف بلطف:

- أعتقد إذن أن لديكِ مكالمة هاتفية مهمة عليكِ أن تجريها في صباح الغد.

# خاتمة

كان بودِّي أن أقول إنني عندما فتحت الباب لاستقبال ابنتي وحفيدي بعد مرور أسبوع، عرفتهما على الفور، وأننا إن كنا التقينا في أي مكان آخر دون سابق موعد لكنا استطعنا التعرف على بعضنا بعضًا من الوهلة الأولى. كنت أتمنى أن الرابطة التي شعرتُ بها طوال تلك السنوات قد أبقتنا على اتصال بطريقة أو بأخرى. إلا أن كل هذا لم يكن صحيحًا. في ذلك اليوم، وعندما فتحت باب منزلي، رأيت شابة جذابة تقف على العتبة.

بعد أن تحدثنا لبعض الوقت سألتها إن كنتُ أشبه المرأة التي تخيَّلَتها. وأجابت ابنتي:

- لا، لقد كنت أفكر فيكِ دائمًا على أنكِ تلك الفتاة الضعيفة البالغة من العمر خمسة عشر عامًا، والتي أُجبرت على التخلي عن طفلتها للتبني.

تحدثت مع ابنتي عن السنوات الطويلة التي مرت، وسعدتُ لما رأيتها قد أحضرتْ لي الصور التي طلبت منها إحضارها عندما أجريت معها أولى مكالماتنا الهاتفية.

كنت مخطئة بشأن الصور، فبتصفحها واحدة تلو الأخرى تأكدت أنه ليس هناك من بديل للذكريات المشتركة. كانت مجرد صور لطفلة لم أتمكن من التعرف عليها.

وبعد برهة أخبرت كاثي عن أختها سونيا، كما أنبأتها أخيرًا باسم الأب الذي لم تكن تعرف عنه شيئًا.

لم يضايقها هذا كثيرًا، ففي نظرها كان الرجل الذي رباها هو والدها الحقيقي، وزوجته هي أمها الحقيقية. آلمني سماع هذا، إلا أنني سعدت أيضًا بموقفها هذا. كان كلامها يعني أن والديها منحاها الحب والاحترام، وأبقياها سعيدة، وأشعراها بالتميز، وأغدقا عليها الحنان.

عندما غادرت ابنتي واعدة إياي بالبقاء على اتصال، سالت دموعي تحسرًا على ما حُرمت منه كل تلك السنوات، على ما ضاع مني ولا أستطيع تعويضه.

اجتمعت أنا وبوب بولدينا، وأخبرناهما بأمر شقيقتيهما. وكان ردهما عمليًا وبسيطًا: متى يستطيعان مقابلتهما؟!

تتبعتني سونيا، كما كنت آمل أن تفعل، وتواصلت معي بعد ذلك بعام. كانت سعيدة للغاية عندما علمت أن لديها أختًا وابنة، وكان لقاؤهما مبهجًا للقلب.

أخبرتني أنها لم تتزوج قط، وأن علاقة أبويها بالتبني التي اتسمت ببرود المشاعر وجمودها هي التي أخرجت هذه الفكرة من ذهنها على الأغلب.

للأسف الشديد، علمت أن ابنتي الكبرى لم تستطع قط بناء صلة مع الزوجين اللذين تبنياها. كانا في منتصف العمر عندما قاما بتبنيها، وأنبأتني ابنتي بنبرة حزينة أنه كان منزلًا خاليًا من الضحك. تذكرت سونيا وهي بعد رضيعة ترتدي بذلة رومبير زرقاء خاصة بالصبيان، وألقيت باللوم على نفسي لهذا. لعله كان شعوري بالذنب من أنني لم

أستطع توفير فستانًا لائقًا لها، وتركتها تذهب في ملابس طفل ذكر. لم أكن أرغب سوى في معرفة أن ابنتي كانت سعيدة على الأقل.

منذ أن التقينا بكاثي، وأعضاء عائلتها في تزايد مستمر، وهكذا صرت جدة عدة مرات. نتواصل بالبطاقات في المناسبات والأعياد، بالإضافة إلى بعض الزيارات العرضية بين الحين والآخر.

أما سونيا فقد أبقت على التواصل مع أختها، إلا أنها رأت أن الصلة بينها وبيني كانت أضعف من أن تبرر استمرارنا في التواصل معًا. وحتى هذه اللحظة لا أزال آمل أن تغير رأيها.

وكلما رأى بوب تلك النظرة على وجهي، التي تنبئه بأن ذهني انجرف إلى سنوات طفولتي الأليمة، كان يمسك بيدي، ويؤكد لي أن كل ذكرى يمكن أن تصبح ذكرى سعيدة. ثم يضيف:

- سأحاول أن أجعل ذكرياتِك الجديدة كلها سعيدة.

وهذا هو ما يفعله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عانت ماريان مارش ويلات طفولة مدمرة. تَسبب جارُها المغتصِب في حملها مرتين، وأُجبرت على التخلي عن كلتا ابنتيها. وفي سن السادسة عشرة لم يكُن لديها خيار سوى مغادرة المنزل لإنقاذ نفسها. قررت ماريان عدم العودة إلى منزل أبيها. وقد التقت في نهاية المطاف بالرجل الذي سيصبح زوجها، وعملت أخيرًا بالتمريض، الذي كان حلمها مذ كانت في الثالثة عشرة. ماريان الآن امرأة متزوجة، سعيدة في زواجها، ولديها ولدان بالغان.

تعيش توني ماغواير في نورفولك. بعد كتابة سيرتها الذاتية الأكثر مبيعًا "لا تخبري ماما"، وتبعتها بالجزء الثاني "تركوا بابا يعود". والآن تساعد توني الآخرين على كتابة قصصهم الخاصة.

telegram @t_pdf

# HELPLESS
# الخاضعة

في عمر ثماني سنواتٍ، كانت ماريان تعاني ويلات الإهمال من أمها وأبيها، الذي كان عنيفًا ومُدمنًا على الكحول. وبسبب حالتها البائسة ومظهرها الرّث، نبذها بقيّة الأطفال الآخرين. لم يكُن هناك سوى شخصٍ واحد فقط يمنحها الحنان الذي كانت تتوق إليه. لقد كان جارها الذي قرأ عليها ملامح الإهمال والضعف، فناداها بسيدته الصغيرة، وقرر استغلالها بأحط الصور. وحين لم يكُن لديها أحدٌ تلجأ إليه، فأبقت "سرّهما" حبيسَ صدرها. في الثالثة عشرة من عمرها، صارت ماريان حاملًا. ومنعها رُعبها من إخبار موظفي الخدمة الاجتماعية عن حقيقة والد طفلتها.

وبعد ستة أسابيع من ولادتها، انتُزِعَت رضيعتها من بين ذراعيها، وتم عرضها للتبنّي. وبعد أن عادت ماريان إلى بيت أبيها، عاد الجار للاعتداء عليها؛ فحملت مرة أخرى بعدها بعام.

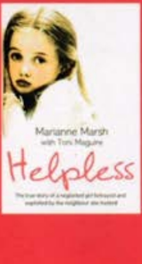


هذه المرة حاول والدها إجهاضها بأعنف الصور المُمكنة، لكنه فشل في هذا. واستطاعت ماريان الهرب أخيرًا من بيت أبيها؛ خشية على حياتها وحياة طفلتها، ولم يكُن في حوزتها حينها سوى كيس بلاستيكي يحمل أغراضها البسيطة.

9 789778 581003

عصير الكتب

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb